صاحبها ورئيس تحريرها

مدحت عكاش

MADHAT AKKACHE

الثقافة

مجلة ثقافية أدبية شهرية

دمشق - ص.ب ٢٥٧٠ هاتف ١٦٢٩١

العددان

الخامس والسادس

تشرين أول وتشرين ثاني

١٩٦١

السنة الرابعة

بعد سبع سنوات

كل طالع تشرين الثاني تتجدد ذكرى بداية الاسطورة الكبرى فنعود الى ذاتنا نتطلع هل فيها المعالم الاخلاقية التاريخية التي فرضتها ثورة الجزائر على صميم الفرد العربي .

أين نحن من هذه الثورة التي هي التعبير الاصيل عن امكانيات العربي في هذه المرحلة التاريخية ؟

أين نحن من صبوة الانسان على قمم الاهراس الى ان يحقق ، خلل الآلام والدموع ، المثل الاعلى ؟

لقد اندفعت الثورة الى الجبال من الاحياء العربية التي يخيم عليها بؤس لم تعرفه الانسانية على مر العصور لتحيك بدم الاحرار خيال السعادة وارتبطت كل رصاصة بشبح عامل بائس سرق الاستعمار منه مقومات العيش ، ومن عينيه كل نظرات التفاؤل .

ان وراء كل خطوة من خطوات جيش التحرير خيال طفل جائع واسمال امرأة وبيتا هدمته الطائرات وطعنة من مدية مظلي في ظهر شيخ .

لقد جمعت ثورة جيش التحرير كل آلام الجزائر فاطلقتها وانطلقت بها الى تخوم النصر . ثورة بدأت نظاما لا ينتهي حتى ولو وصل الى النصر لانه يجد وراء كل انتصار هدفا جديدا لا بد لها الا وان تحققه .

لقد بدأت ثورة ونظاما تبنيه لبنة لبنة وعصمتها التضحيات عن الكذب والتدجيل فحققت اشتراكية جزائر المستقبل في جيشها وأجهزتها والارض التي سيطرت عليها .

لقد نادت بالحرية فجمعت كل أحرار الجزائر الذين طالبوا بها متحدين السجون والارهاب لانها مؤمنة ان الحرية لا تمنح ولا تعطى وانما تفرض فرضا وهيهات ان يؤمن بها من لم يعان أزمتها ويحترق بلهيبها . جمعت الاحرار الذين خبروا كيف تؤخذ الحرية ويضنون بها من أجلهم ومن أجل شعبهم ، بل من أجل الانسان .

لقد جددت الثورة معالم الانسان وردت اعتباره في عالم هدف أنظمته المختلفة اذلال الانسان واستعباده فأعطت له معنى مثاليا تاريخيا . انسانها انسان التضحية الذي لا يؤمن بالنصر قدر ايمانه بالمعركة ضد الاستعباد حتى اذا انتصرت على الاستعباد بدأت معركة الانسان مع صميمه كيما يحقق المثل الاعلى .

لقد طهر الدم أرض الجزائر وطهر انسانها فاصبح هو ذاته رسالة الارض مجردة عن الزيف التاريخي .

سبع سنوات من العذاب والتدمير والدم وكأنها ليست شيئا ، كأن الثورة بدأت من جديد ، لان الماضي - رغم اعتزازها به - صغير اذا قيس بالمستقبل : وملحمتها الكبرى ما زالت في بدئها .

« الثقافة »

الخيال الخلاق

بقلم : جان موركان

ترجمة : عبد الوهاب الوكيل

ان ما أريد قوله يقع بصورة طبيعية في ثلاثةأجزاء : أولا ، البحث في ماهية الخيال المبدع ، وثانيا محاولة تطبيق الفكرة على أعمال الفنان ، سيما على القصاصين والشعراء ، وثالثا الاستفسار أو البحث في مكانة الفنان في العالم الجديد ، وفي قيمة التصور المبدع كدليل يهدى الى أسلوب من الحياة ..

فلنفحص أولا ، ما هي خواص الخيال الخلاق السلبية :

هنا مثل مألوف يقول ، ان الانسان اذا شعر بالحاجة الشديدة لشيء ما فانه سيناله ، وهذا صحيح الى حد ما ، لان معظم الفشل الذي يصيبنا يعزى الى تشتتنا الفكري ، في الوقت الذي تكون فيهجميع نجاحاتنا بفضل الاستقرار والتركيز الفكري ، فالانسان الذي يرغب بعزم ان يكون غنيا قبل كل شيء ، لا بد وان يحصل على الثروة ، بيد ان مقدرته على تحقيق ذلك ليست مثالا على قوة الخيال المبدع ، ومهما تكن طبيعة الخيال الخلاق وصفاته فانه ليس واسطة لبلوغ ما يجلبه الطموح والطمع ، فهو لا ينشد الحصول على منجزات معينة .. بل هو غاية مثالية متسامية أبدا ، ولعل هذه الفكرة تبدو صعبة الفهم سيما اذا ما وضعت بأبسط صورها ، فنحن عندما نتصور بشوق ورغبة نخلق ما نتصور ، وما نخلقه انذاك له قيمة حقيقية متنامية لا يمكن أن يملكها شيء آخر ..

لا شك انك ستدرك في الحال غرابة النقطة التي وصلت اليها . فما معنى كلمة « يتصور » ؟ وما هو « الشوق » حسب هذا المعنى ؟ وما هي القيمة الفنية .. لن اتعبك بتعاريفي لهذه الاصطلاحات في هذه المرحلة ، فسيظهر معناها بعدئذ ، وسأنتقل الى صلب الموضوع بسرعة اذا ما قدمت لك أمثلة على الخيال الخلاق ، ويجب أن تلتمس لي العذر اذا ما بدت هذه الامثلة تافهة صبيانية لاول وهلة ، فهي محاولاتي الخاصة للفهم والافهام .

ان الامثلة المألوفة لدينا هي تلك التي نجدها في القصص الخرافية والتي هي بمثابة مستودعات الحكمة البشرية ، وقصص الخرافات هذه تشير دائما وأبدا الى نفس الحقائق ــ وهي ان طيش الانسان الرئيسي هو سوء استعماله للخيال ، فقد منح الانسان ثلاث رغبات ، لكنه بدلا من استخدامها بشوق للخلق والابداع ، راح يستخدمها لاشباع كبريائه وفضوله وطمعه ، وكل هذه لا قيمة لها مطلقا ، وقد منح رجل ما حق المطالبة بثلاث رغبات ، فاستخدم الاولى بدافع الشراهة للحصول على اكلة (السوساج) فقالت له أمه « يالك من معتوه تبدد هذه الرغبة في المطالبة بـ (السوساج) بدلا من طلب صندوق بالذهب يمنحك الراحة طيلة الحياة » ومضت في مضايقاتها اياه ، لان طمعه لم يكن كبيرا ، حتى ضاق ذرعا وتمنى ان تكون (السوسجة) فوق طرف انف زوجته ، وكانت هذه رغبته الثانية ، أما الرغبة الثالثة فكانت زوال (السوسجة) من انفها ، وعندما انتهى كل شيء ، أصبحوا كما كانوا دائما ، فلم يتم خلق أي شيء ، فالخيال الذي يستخدم لاغراض الطمع والحقد هو خيال مجدب .

وهناك قصة أخرى ابتدعتها عن اخوة ثلاثة ، منح كل واحد منهم الحق في تمني رغبة واحدة فقط ، فشرعوا في مغامراتهم ، فصمم الاثنان الكبيران منهم العزم على الزواج من ابنة ملك لكيما يرثوا مملكته .. وقالا بانهما سيستعملان رغبتيهما في هذا السبيل عندما تتهيأالمناسبة لهما . أما الثالث الذي سخر منه اخواه لغموضه وتردده قال بأنه لا يدري بعد كيف يستخدم رغبته ، ثم قال « ان الشمس مشرقة ولدى الملابس اللازمة والماء الكافي ، فاذا شعرت بالجوع فهناك التوت ، وليس هناك ما احتاجه الا الوحدة ، فاركبوا يااخوتي وسأكون في أثركم . » ولما راحوا مسرعين يضربون خيولهم بكعوبهم ، أخذ الاخ الصغير يقهقه صائحا خلفهم « من يدري ؟ ربما

تحققت رغبتي هذا المساء ٠ » اما الآخرون فقد اعتبروا هذا الكلام هذيان مجنون فنسوه في الحال ٠

وبينما كانوا يمرون في الغابة ، طرق سمعهم صوت يصيح «خل سبيلي ! خل سبيلي ! اطلق سراحي رجاء » فلم يعر الاخ الاكبر الكلام أهمية لشدة خوفه ، وسار في طريقه ، اما الاخ الثاني وكان متحفظا فقد استدار جانبا نحو مصدر الصوت فوجد امرأة عجوزا متسولة وقد شدت الى جذع شجرة مجوفة ، فقال لها : « سأطلق سراحك في الحال » ثم ذهب ليأتي بفأسه المشدودة الى سرج فرسه ، فقالت العجوز : « ان الفأس لا تجدي ، وسوف تفلت منك » لكنه كان عنيدا وذا ثقة بحكمته ، فاحضر الفأس ورفعها بكل قوته ، لكنها طارت من يده وقد ثلمت ، فالتفت قائلا « كيف اذا أستطيع اطلاق سراحك ؟ » فأجابته العجوز « توجد طريقة واحدة فقط : هي ان تسمح لي بانتزاع رغبتك منك ٠ » فهز رأسه وقال : « لي رغبة واحدة فقط ، وأنا أحتاجها للحصول على اميرة ومملكة » لكنه كان شابا حسن النية ومع انه رفض طلبها الا انه فعل ذلك وشعور الاسف يغمره ٠

وبعد فترة قصيرة وصل الاخ الصغير الى هناك يغني بفرح لانه كان ينظم شعرا ، فلم يكد ينتبه الى صياح العجوز المشدودة الى الشجرة ، وهي تستغيث قائلة : « افرج عني ! خل سبيلي ٠ » حتى أخذ فأسه كما فعل أخوه من قبل – والاف من الرجال الاشداء غيره – وتقدم نحوها ٠ وكانت العجوز طاعنة في السن ، وقد أعياها الشباب بفؤوسهم كثيرا من قبل ، وكأن لهم جميعا فكرة واحدة ، وهي ضرب الشجرة بتلك الفؤوس التي كانت تتطاير دائما من أيديهم ، لكن العجوز كانت تحب الجنس البشري رغم طيشه ، وقالت بصبر مخاطبة الاخ الاصغر كما كانت تقول دائما ، « هناك طريقة واحدة فقط ، هي ان تسمح لي بانتزاع رغبتك منك » فسألها الشاب « ولكن كيف عرفت بان لي رغبة واحدة ؟ » فأجابت ان لكل انسان طلبا واحدا ، فسألها الشاب « وكيف يمكنني اعطاؤك رغبتي ؟ فالرغبة ليست كيسا من الجوز يمكن تداوله بالايدي » فأجابت العجوز « كلا ليست هي كيسا من الجوز ، لكن ادراك هذه الحقيقة يعني بانك تعرف بعض الشيء ، وهو بداية الحكمة ، بل ان معرفة كنه الرغبة هي بداية العبقرية ، ومعرفة كيفية اعطائها للاخرين هي بداية الورع والقوة » فأجاب الشاب متعجبا « الورع والقوة ! هذه كلمات كبيرة وليست صعبة كما تتصورين ياعزيزتي العجوز ، فاذا كنت شابة، وجميلة ، فسيكون سهلا جدا ، اذ كنا نقع في حب بعضنا بعضا وتصبح رغبتي جزءا منك ، وحبك لي يجعلها ملكا لك » ٠

فأجابت المرأة العجوز : « نعم ولكني لست شابة ولست جميلة ، ينبغي اذا ان نأتي بطريقة أخرى ٠ »

وراح الشاب يسير جيئة وذهابا بقرب الشجرة حتى قال أخيرا :

« اذا قدر لي ان أموت فهل تنطلق رغبتي حرة وتعيش فيك من جديد ؟ »

فردت العجوز « هذا صحيح أيضا ، لكنك الآن ، حديث السن ووافر الصحة ، وانت على سفر طويل ، وعليه يجب ان تجد طريقة أخرى ٠ »

فجلس الشاب على الارض والشمس تشرق من بين الاشجار وكان مسرورا لانه لا يزال في ريعان الشباب له رغباته وامانيه ، لكنه كان حزينا في الوقت نفسه ، لان المرأة العجوز قبيحة وسجينة في عالم جميل كهذا ، ولقد اعيته الحيلة لاطلاق سراحها ، وكان شديد الذكاء ففكر في الف طريقة وطريقة ، يستخدم بها المطارق والعصى والفؤوس والبكرات لانقاذها ، لكنه مع ذلك كان يشعر بان البكرات سترفض ان تدور ، والعصى ستتكسر ، والفؤوس ستطير من يده ، واخيرا ولانه كان حزينا ومسرورا في آن واحد فقد راح يغني أغنية عن الحب مهداة الى الاميرة تلك المرأة العجوز كما لو كانت شابة جميلة وطليقة ، وعندما انتهت الاغنية كانت تقف أمامه ، شابة انيقة ، وجميلة جدا ٠٠

فقالت له : « والآن يبدو أن لك آلاف الرغبات لا رغبة واحدة ، كلما انشدت انشودة فانك تهدى واحدة منها ، وعندما تهدى الرغبة تكون قد تحققت ٠ »

فأجاب الشاب : « ان هذا شيء حسن جدا ، ولكن ترى ما الذي سيحل باخوي » على حين انها لم تعد تهتم بالرجال الاقوياء ٠٠ فقالت الفتاة « اما عن اخويك ، فسيعود المتحفظ الى فأسه الثمينة التي تركها هنا على الارض ٠٠ وسيرغب في تحطيمها ، وهكذا سيجد نفسه مساء حيثما كان صباحا ، اما الاخ الخائف فقد واجه دبا وتحول الى اسد ، ولن نسمع منه شيئا اللهم الا زئيره ٠»

ولن اجرد اسطورتي هذه من حسناتها عن طريق تفسيرها ، فلا بد وانك قد ادركت عنها حقيقتين : الاولى هي ان الدافع الى الخيال الخلاق ليس عقليا بل يتعلق بشكل من الاشكال بالفرح المفرط ، اذ ربما يكون الشاب قد نجح عن طريق الحب أو عن طريق الموت ، وقد نجح فعلا عن طريق انشاد أغنية غزلية بطريق الشعر ٠

والحقيقة الثانية هي ان الخيال انما هو عملية

مشتركة ، فهو نتاج قوتين متفاعلتين ، قوة العطاء ، وقوة التسلم فالشاب لم يرغب في اطلاق سراح العجوزفحسب، بل اعطاها امنية ، واشبعها خياله ، فاستلمت الامنية واستجابت لها ٠٠ وسوف اتوسع في شرح هذه الافكار واطبقها على أمثلة أخرى من الخيال المبدع ٠

وسأشير باختصار الى ناحية واحدة ، هي مسألة الدعاء ، لان الموضوع اوسع من ان يلم به تارة ولاني لا أرغب في تحدي المعتقدات الدينية تارة ، لكن الحقيقة المسلم بها عند جميع فقهاء المذاهب المختلفة هي ان الدعاء واسطة يستطيع الانسان ان يحدث بها تغييرا روحيا ، وسواء أكانت نتائجها المادية اكثر ام لا ، فان ذلك ليس موضوع بحث الآن ، ان وظيفة الخيال المبدع هي احداث التغيير الروحي كي يتغير قلب الانسان وطبعه ، وهذه الناحية من الدعاء فقط هي موضوع اهتمامنا الآن ، فالدعاء الذي يحدث مثل هذا التغيير الذي يطابق تماما الشرطين اللذين اعتقد انهما من خصائص عملية الخيال المبدع ، هو عملية انفعالية فكرية ، وهو فعالية مشتركة بين الانسان والهه ، وهو تسلم واشباع ، لكن الانسان في هذه الحالة ليس هو الشخص المعطى والمشبع ، فان صلواته وجميع انظمته الدينية الصارمة ، وتمارينه العظيمة سواء كانت كاثوليكية أو بروتستانتية ، بوذية أو هندوكية ، تهدف فيما تهدف الى تطهير نفسه من الادران الروحية ، وتفتح قلبه كي يستقبل الهه ويدعو الروح السامية للدخول فيه واحتلاله ٠ ان جميع الكتابات الصوفية التي عثرت عليها تروي قصة مماثلة لهذه ليس ذلك لان الانسان استطاع الوصول الى الخالق بل لانه تمكن في النهاية من التغلب على مقاومته الجسدية (المادية) والعقلية للخالق وكان القديسون في العصور الوسطى يتكلمون باستمرار بلغة مجازية غزلية مشبهين انفسهم بالعرائس تتهيأن لاستقبال أزواجهن ، وقد تختلف هذه الاستعارة في الشكل بيد ان جميع النصوص الصوفية المكتوبة لمختلف الشعوب تعطينا وصفا مماثلا لعملية الخيال المبدع التي تتم بواسطة التفاعل المشترك بين الرجل النشوان والروح الاعلى في تقبل واشباع يعصف بهما الحب ٠

ولنتمهل قليلا لنتأمل المدى الذي بلغناه ٠٠ قلنا ان الخيال الخلاق ، هو واسطة لاجراء تغيير روحي يكون الحب شرطا فيه ، لان الحب جوهر القيم الروحية ، ويجب تميزه بحذر عن الرغبة في الشيء والحاجة اليه ، كما يجب تميزه بحذر مماثل عن الوهم واحلام اليقظة ، فالعلاقة المميزة هي ان هذه الاعمال ، أي الحاجة والرغبة والتوهم ، هي أعمال مفردة تخص الشخص نفسه ويستطيع القيام بها بنفسه بينما يحتاج الخيال الخلاق لوجوده ما تحتاج اليه القوة المغناطيسية من قطبين ، سالب وموجب ، فهي عملية مشتركة ، وليست فردية ، تحتاج الى جذب موصل بين المعطى والمتسلم ، وما الفن الا نوع من هذا الجذب ٠

وبهذا أكون قد بلغت صلب موضوعي ، فانا على وشك القول باننا عندما ننقد عملا فنيا كثيرا ما نميل الى مناقشته بلغة الاصطلاحات ونقيم أحكامنا على أساس الاجوبة التي نضعها لانفسنا ، ومهما تكن الاسئلة مهمة فان أهميتها قليلة بالنسبة للسؤال الذي نطرحه على أنفسنا والذي هو الاساس الذي يقوم عليه ، أو بالاحرى، يجب ان يقوم عليه موضوع التذوق الفني ، فهو أساس التذوق الفني لانه أساس الحياة ، فقد اعتاد الناس ان يتساءلوا عن أي كتاب أو أية صورة يعثرون عليها ، هل هي رومانتيكية ؟ هل هي طبيعية ؟ هذه الاسئلة كانت تبدو مهمة وحيوية بنظر معاصري « موسيه » ومن ثم معاصري « زولا » ولو انهم اجابوا بنعم فقد فعلوا ذلك باستحسان ، واذا اجبنا نحن اليوم عن نفس السؤال بنعم فربما فعلنا ذلك باستياء ، فقد تبدل الاتجاه ، الم يعم الصخب في احدى المسارح قبل مائة عام تقريبا لان « فكتور هيوكو » ظهر وكأنه قد أحدث ثورة في الفن عن طريق ادخال استعمال « التدوير » في الشعر الدراماتيكي من وزن « الالكساندرين » ؟

ونحن نرى اليوم بان عمله ذلك لم يأت بأي خرق لاي مذهب فني مهم ، كما اننا لا ننفي صفة الفنان عن « هيوكو » لمجرد ان راسين يتمتع بها ٠ ويبدو ذلك النقد المعاصر غير وارد أو صحيح الآن بخصوص تأثيره على طبيعة الفن نفسه على الرغم من كونه معقولا وطريفا لا سيما وانه ينبه الاذهان الى تنوع الاشكال الادبية ، فاذا كان غرض النقاد هو التحقيق فيما اذا كان «هيوكو» فنانا أم لا فانهم قد أخطأوا في صياغة السؤال ، وكذلك الحال معنا ٠٠ فالتحدي الشائع اليوم للكاتب المعاصر هو التساؤل عما اذا كان ذلك الكاتب مجددا وفيما اذا كان يتماشى مع روح العصر ، وقد نذهب أبعد من ذلك في التساؤل عما اذا كان يعترف بان أهوال الحرب تهدد العالم ؟ وهل ان كتاباته تعكس هذا الهم الذي يشغل العالم ؟ فاذا لم يكن كذلك فهو اذا «رومانتيكي» يستحق اللعنة ٠

وهناك سؤال آخر تقام الاحكام الفنية الجمالية على أساسه وهو : هل ان هذا الكاتب من الحزب الذي ينتمي اليه ؟ وهل هو يساري أم يميني ؟ ولست بحاجة الى التأكيد على مدى شرور ومضار مثل هذا السؤال فيما

اذا القى في هذا المعهد المكرس للعلم والمعرفة الحيادية ٠٠ ولكني التمس منكم ان تلاحظوا أن سؤالا واحدا كهذا يؤدي بنا الى التساؤل عما اذا كان الفنان عصريا ، وهذا بدوره يؤدي الى التساؤل عن الناحية التي يعد بها فنانا عصريا ، ولا يبتعد هذا كثيرا عن السؤال عن الحزب الذي ينتمي اليه ٠٠

فالى هذا السؤال سوف تقادون انتم في فرنسا ، ونحن في انكلترا اذا استمر كل منا في تساؤله الخاطىء عند الحكم على العمل الفني ، فليس السؤال المعقول هو عما اذا كان الانتاج « رومانتيكيا » أو « واقعيا » أو « رمزيا » بل هو عن كونه عملا من الخيال الخلاق أم لا ؟ وهل يحتوي في طياته بذورا تمكن الناس من القيام بعملية التصور الخلاق ، ولاجيال عديدة أيضا ؟ من المؤكد انه لا يوجد عمل فني خالد بنفسه ، فخلوده وموته لا يتوقفان على ماهيته التي يتم الحكم عليها بمقاييس معاصريه فحسب ، بل على قوة التحول الكامنة فيه ، فاذا قدر له ان يدوم ويبقى ، فيجب ان يتم خلقه باستمرار في اذهان اولئك الذين يتقبلونه ، ويجب ان يكون له معنى جديد بالنسبة لكل جيل ، فاذا اردت ان تثمن « راسين » فهل تعتقد بانك ستثمنه لنفس الاسباب التي جعلته عظيما في القرن السابع عشر ؟ ٠٠

فالمسرح الفرنسي والفكر الفرنسي في العصر الحاضر لم يعودا يتطلبان من الكاتب المسرحي ان يتحدث عن التقدم عن طريق الرسل ، ويوضح أشخاصه بواسطة المؤتمنين على الاسرار ، وباختصار فان البناء المسرحي الكلاسيكي الذي سار عليه راسين بصرامة يعارض تماما روح النقد الحديث ، ومع ذلك ، ورغم الهجوم الذي يلقاه من الكثير من النقاد فراسين لا زال حيا،فسيقولون: (ماذا ؟ هل نعتبر « راسين » مثلا في الخيال الخلاق ـ راسيننا الذي مهما تكن مزايا شعره ، فهو كأي مثل رديء يمكننا اختياره من بين الفنانين المبدعين العظام الذين يؤجج خيالهم نارا في قلوب المعاصرين) وستقولون ان لراسين مزايا بارزة عديدة استحسنها « بوالو » ولكن لماذا اخترته أنت الانكليزي الجاهل ، لتوضيح مقالتك هذه ؟ لقد كان من الاسهل جدا اختيار « موليير » أو حتى « كورني » لكني اخترت « راسين » لانه صعب ، واذا ما نجحت في اقناعكم بانه لا يزال حيا لانه كان يملك في داخله بذور الخيال لخلاق فسأكون قد خطوت خطوة واسعة في سبيل تثبيت وجهة نظري هذه ، واعتقد بانكم ، وخاصة اولئك الشباب منكم والذين هم في ثورة دائبة ضد الاشكال الادبية الكلاسيكية ، لن تستطيعوا الجلوس لو كنتم فرنسيين وذوي حس مرهف ، أثناء عرض مسرحية « فيدر » دون أن تهتز مشاعركم بين آن وآخر بالرغم من الممانعة التي تبديها نفوسكم ، اليس كذلك ؟ لكم ان تقولوا ما تشاؤون ، ان كمال راسين يجلب الملل وهو لهذا السبب يعد ضعيفا ، وأنا بصفتي انكليزيا يعشق الشذوذ الرائع الذي يحتويه انتاج شكسبير الفني اميل الى تأييدكم ، ولكني واثق من وجود أبيات شعرية في « فيدر » تنتزعني من نفسي ، وتجعلني اكبت انفاسي ، وتبعث في روحي السحر وفي خيالي الحياة ، مهما تعجز أذني عن تحسس الكمال الموجود في لغتكم ، على الرغم من ان ما توحيه الى هو ما لم يتصوره راسين ٠ ولا ازعم اني مهتم جدا بمصير أي واحد من أشخاص مسرحيته ، لكنه يحمل في عبقريته ذلك السيف الحيوي الذي يضربني به فيسبب لي حياة جديدة مستقلة ويجبرني على التخيل بنفسي ، وهذه هي المقدرة الحقيقية والخلود الحقيقي للفنان ٠

ويمكنني اذا سمحتم ان اورد مثلا آخرا من لغتي الانكليزية ولا يختلف في النوع ٠٠ لقد جرت العادة في انكلترا ان نصف شكسبير بأديب مسرحي عظيم ، ونعتبر انتاجه الادبي يضم خلاصة الحكمة البشرية ، ولا اشك في حكمته وسعة تجارية أو عمق وتنوع تعاليمه الخلقية التي نجدها في كتبه ، فهذه الاشياء تزيد في عظمته ، لكنها ليست جوهر تلك العظمة ولا السبب في خلوده ، والبرهان على ذلك كائن في نشوة الرجل وصفته التي توسع فجأة خيال السامع ، ويمكن ان نجدها في قصائده الغنائية مثل :

اين تمرحين يا سيدتي ٠٠
هلا تمهلت وانصت ، فحبيبك المخلص ،
الذي يجيد الغناء بألوانه ، قادم
لا ترحلي من هنا ايتها الحبيبة الجميلة
فان الاسفار تنتهي بلقاء المحبين
وهو ما يعرفه كل انسان مبصر

* * *

ما هو الحب ؟ انه مما لا نجده في العالم الآخر
فالجذل الاني ، يجلب الضحك في الحاضر
اما ما يأتي به المستقبل فليس بأكيد
والتأخير لا يجلب الكثير
فتعالي قبليني ايتها الحبيبة ، ابنة العشرين
فالشباب مادة لا تدوم

* * *

وانت ترى أن ما يقوله شكسبير في هذه القصيدة لا يزيد عما يأتي : (انت شابة . الحياة قصيرة . قبليني الآن .) ولا يحتوي هذا القول على فلسفة اصيلة او تجربة فريدة ، ولا تعاليم خلقية عميقة ، فهو يردد ما قاله معاصروه الاليزابيثون باستمرار لانهم كانوا في فزع دائم من ان يشوه الجدري جمالهم ويلتهمهم الموت في سن مبكرة . وبينما راح كثير من معاصريه يكتبون باسهاب في هذا الموضوع حتى أصبحت كتاباتهم لا تثير اهتمامنا نحن الذين لا نخشى الجدري ، كتب هو بنفس الموضوع ما اعتقده أعظم قصيدة صغيرة في اللغة الانكليزية .

واذا ما أصبحت « هملت » في عداد النسيان يوما ، فاني اعتقد بان هذه القصيدة سوف تذكر وتردد .. لماذا ؟ ليس ذلك بسبب محتواها بل لما توحيه وتنقله الينا من خارج نفسها ، فانا اشعر عندما اقرأها كأني ازيد معرفة وخبرة بالحياة فيزداد شعوري بالشباب والحب الحقيقين اللذين تخفيهما المظاهر .

وتختلف بهذه الناحية عن القصائد التي هي أقل شأنا ، والتي تحفل بالشباب وبحب امرأة معينة مهما كانت تلك القصائد جميلة . ولنا ان نضع المسألة بهذه الصورة ، فنقول ، ان القصائد الاقل شأنا تلقي ضوءا على وجه معين أو عدة وجوه ، لكن هذه القصيدة الغنائية تملأ نفس القارىء باشعاع مقدس حتى اذا ما قرأها شعر بانه أصبح ــ ولو للحظات ــ اله يتمتع بسلطة الآلهة وحبهم ورحمتهم ، ويحدثنا « ديستويفسكي » عن رجل كان يركع امام امرأة وهو يناجيها بقوله : (انني لا اركع لك ، ولكن للبشرية المعذبة بك) وهذا وميض مماثل من العبقرية . ولا يوجد فنانون ثلاثة يختلفون فيما بينهم كما يختلف راسين وشكسبير ودستويفسكي ، كما لا يوجد فنانون يختلفون في أساليبهم كما يختلف هؤلاء ، لكنهم يشتركون في الامثلة التي اعطيتها بصفة واحدة : وهي انهم يتمتعون بقوة يصبحون بوساطتها الوميض الذي يسهل الاتصال بين الالهة والبشر ، ويرتفع بخيال القارىء عن المستوى المادي فيرى الله ويدخل في ملكوته ، ويمكنك ان تفسر لفظة « الله » التي استعملتها كما تشاء ، فلست بعالم ديني ، لكني اعلم بانه اذا لم يكن لهذه الكلمة عندك من معنى ، فلا يمكن ان يكون للفن عندك من معنى ، ولا للخلق من معنى ، ولا للخيال من حدود ..

* * *

فكيف ينبغي اذا أن يعيش الفنان ويعمل ؟ لقد كتب « جورج مور » في رسالة وجهها الى فتاة شابة جدا كانت تتدرب على طريقته الفنية ، الكلمات التالية :

(اذا ما فضلت الخروج للترفيه عن نفسك عندما تشعرين بعجز عن الكتابة ، فان فنك سوف يتدهور وينعدم ، فحياة الفنان في هذه الناحية اشبه بحياة « البهلوان » الذي يجب ان يتدرب على حرفته يوميا سواء كان الوحي بجانبه أو بعيدا عنه ، اذ يجب ان لا ينتظر الوحي بل يواصل استدعاءه دائما .. ولا بد للوحي ان يستجيب له يوما ما .. واذا اردت التمتع بحديث عرائس الشعر فعليك ان تعدي لها ساعات من الهدوء ، وان لا تشعري بالخيبة اذا ما خالفت الوعد الذي ضربته لها . ولكي تستقبلي عرائس الشعر الاستقبال اللائق بها يجب ان تكون لديك شقة خاصة ، وان تتناولي الطعام فيها بمفردك دائما ..)

ولا بد انك قد لاحظت بان « مور » و « بودلير » يقارنان بين حياة الفنان وحياة « البهلوان » : فهو يجب ان يتدرب باستمرار على صناعته وان يمرن عضلاته دائما .. لكني أقول ان الفنان يجب ان يحكم على حياته في ضوء حياة القديسين الذين لا يتدربون على صناعتهم فحسب في طقوسهم الدينية بل يهيئون انفسهم ويروضونها للرضوخ والاستسلام ، ويشير « مور » نفسه الى هذه الفكرة فيقول : (يجب ان تتناولي الطعام فيها بمفردك دائما .)

ويجب ان نبحث أولا في مسألة تمرن الفنان على صناعته ، فلو ان الصناعة كانت هي الغاية بذاتها لاصبحت عديمة الفائدة ، فكثير من الناس يشمئزون من الرجل الذي يقضي شهرا كاملا في دراسة مقطع واحد ، ذلك لانهم انفسهم غير قادرين على الصبر والتحمل ، ويزعم هؤلاء النقاد بان الحرف المعقدة ليست الا ضربا من الغرور والكبرياء ، فهم يقولون (هل يعتقد المستر جونس بان أهميته قد بلغت حدا تلزمه بان ينتقي كل كلمة من كلماته وكأن القدر ومصير العالم مرتبط بها ؟) والجواب على ذلك بسيط جدا . ان الصناعة اليدوية الدقيقة هي عمل يدل على التواضع لا الكبرياء ، فالرجل المتكبر الذي تغمره مشاغل العالم يعتمد على نفسه ، فهو يؤمن بحكمته هو ، كما انه معجب بذكائه فهو يسطر ما يجول بخاطره كما يرتجل السياسي على قارعة الطريق خطبة فارغة ، وبالعكس فان الفنان يعرف في قرارة نفسه انه لا شيء ، ويشعر بانه ليس الا اداة ، وان واجبه يستدعي تحسين هذه الاداة وليس هو المسؤول عن اشباع خيال الاجيال القادمة ، وان المسؤول عن كل

ذلـك هو تلك القوة الخالدة الخارجة عن نفسه والتي يسميها بعضهم الله ، ويدعوها بعضهم الآخر « عرائس الشعر » والتي تعمل بوساطته ٠

وثمة عقبة أخرى يجب مجابهتها ، فكثيرا ما قيل ، انه لما كان الناس الاعتياديون ليسوا من محترفي صناعة الادب لذا كان الاسلوب بنظرهم عبثا ، وعليه فهو مضيعة للوقت ٠ ولكن هل يمكن القول انه لما كان أغلب الناس الذين يرتادون المسارح ليسوا من الممثلين أو النقاد لذا فلا يمكن ان يتأثروا بأسلوب التمثيل ؟

وهناك جواب بسيط على ذلـك ، فانا أعتقد بان قليل من الفرنسيين فقط هم الذين يمكن ان يخالفوني بأن أثر ترجمتهم للكتاب المقدس في تفكير فرنسا كان ولا يزال أقل من الاثر الذي احدثته (النسخة المصدقة) في لغة وتفكير انكلترا ٠ وذلك لان اثر (النسخة المصدقة) لكتابنا المقدس شيء يتعلق بالاسلوب وهو معجزة أدبنا البارزة ويقال ان هذا الاسلوب قد ابتدعته لجنة قام بتعينها الملك « جميس الاول » فاذا صح ذلك فهي الخدمة الوحيدة التي اسدتها لجنة انكليزية للفن ، فمحتواها وتاريخها وتعاليمها الخلقية كلها متضمنة في انجيلكم ولكن انجيلنا غرة رائعـة في الاسـلوب وقياس لجميع مؤلفاتنا الادبية ، والمصدر المطلق لقواعد النحو والصرف عندنا ، والحرارة الكامنة في الحديث الاعتيادي للفلاح والتاجر والارستقراطي التي تتناقلها الاجيال ٠٠ فلقد صنع الانجيل الشيء الكثير في سبيل وحدة وعظمة وبناء الشخصية الانكليزية ، مما لم يفعله أي شيء آخر الا البحر ، وليس ذلك للمادة التي يحتويها ـ ذلـك لان تراجم أخرى صنعت من نفس الاصل ولكنها لم تحدث نفس الاثر ـ بل لان الاداة التي استخدمها الفنان كانت في غاية الكمال ٠

فماذا نعني بالوصول بالاداة الى غاية الكمال ؟ وما هو الاسلوب الكامل ؟ أليست أساليب الفنانين جميعا متباينة ؟ فكيف جاز لنا وضع قواعد ؟ من الطبيعي ان يتعذر علينا ذلك ٠ ولكننا اذا ما بحثنا هذه النقطة من ناحية الخيال الخلاق وليس كصراع بين الواقعية والرمزية والانطباعية فستظهر لنـا بعض الافكار القيمة ، لقـد استعملت في كتاب لي سابقا هذه الكلمات « ان الفن هو اخبار عن الحقيقة التي لا يمكن التعبير عنها بصورة مغايرة » ٠

اذ لا يمكن التعبير عن الحقيقة (الحقيقـة التي تقفيها المظاهر) لسببين : ليس لانها غامضة بذاتها ، لان جميع الصوفيين الذين يزعمون أنهم اهتدوا اليها يقولون انها ، فوق كل شيء ، بسيطة ٠٠

« كأنها هالة عظيمة من شعاع صاف ليست له نهاية ، وهدؤها التام يضاهي بريقها » ولكن لاسباب تتعلق بضيق لغتنا وقصورنا في التعبير فاللغة تقوم على ملاحظـة المظاهر بينما تتعدى الحقيقة جميع المظاهـر وتتسامى بعيدا عنها ٠٠

فاللغة اداة خصصت للتمييز بـين أشياء معينة ولتحديد وجوه الشبه والاختلاف بينها في الوقت الذي تتعدى الحقيقة جميع الفروق وتؤلف منها وحدة كاملة ، لا و حدة الاشياء المخلوقة فقط بل وحدة الخالق والمخلوق ٠ وهذه هي أهم نقـاط الضعف في اللغـة ، والغرض من الاسلوب هو التغلب عليها بان تستعمل اللغة بحيث يتشبع بها خيال القارىء ومن ثم يأتي بثمار طيبة فيجتاز بها جميع الفروق التي تمليها المظاهر الى عالم الوحدة الحقيقية ٠ وكلما زدنا استقصاء عن ماهية الاسلوب الذي يمكن القراء من الوقوف على (اخبار الحقيقة) من خلال الضجة التي تحدثها الكلمات فان الجواب ، كما يبدو ، يتوقف على عاملين : الشكل والقوة الكامنة في النص ، فالشكل الذي ينبغي للفنان استخدامه يجب ان يقرره هو طبقا لطبيعته ، اذ تتوقف شخصيته على اختياره للشكل ، ولكي يصبح عمله خالدا يجب ان يكون لـه شكل منتظم ، أي أنه يجب ان يعطينا باستمرار وفي كل جزء من أجزاءه سـواء في جمله أو فقراتـه أو مجلداته انطباعا مماثلا لذلك الانطباع الـذي نحصل عليه من قصده « السونت » أو من الحياة نفسها ، وهو ان النهاية هي نفسها البداية وان الاشياء الناقصة تسير في طريق الكمال ٠ ان الغرض من القافية هو التجاوب مع اللفظة السابقة ، وقيمة جميع الاشكال الادبية كائنة في خلقها في النفس حالة من التوتر أو الاحساس العنيف والتأثر الروحي والشعور العميق بالتوقع والامل الذي هو بمثابة المحرك للخيـال ، وذلـك عن طريق الايحاء بامكانية اشباع ما لم يشبع بعد ٠ وكما يرى في الموت تحقيق أمل معين وفي الحب تحقيق أمل آخـر اذ يفتح كل واحد منهما مجالا لتوقع أكبر من الذي تحقق فعلا ، كذلك يمكن ان يكتشف في أي لون من النتاج الفني ذلك الضمان السلمي الذي ينبع منه الخيال ٠ ولكن الشكل الادبي وحده غير كاف ، ففي الاسلوب العظيم تكمن قوة هائلة تتحسسها كلما مضيت في قراءتك حيث تشعر بان جميع عوالم الحقيقة تتفاعل في ذهن الكاتب فتمد بصرك

الى السماء وتبدأ في التصور فتفتح سماواتك الخاصة أمام عينيك ، وانا عندما اطلب من الفنان اداء واجبه الاول ، وهو تحسين الاداة التي يستخدمها في عملية الفن ليس لاعتباري الاسلوب زخرفة لفظية ، بل لاني اؤمن بان الشكل والقوة الهائلة الكامنة في العمل الفني انما هما تطهير للنفس البشرية ٠

وللفنان وظيفة أخرى أكثر خطورة ، هي التمرن على الاستسلام ، فقد قال (جورج مور) « اذا اردت ان تنصت الى عرائس الشعر فعليك تهيأة ساعات من الصمت لها » ويجب ان لا تكون الساعات ساعات صمت فحسب بل ساعات استسلام أيضا ، ويجب ان لا تشك فيها أو تجزع لغيابها ، كما يجب ان لا تستخدمها عندما تأتي اليك لاغراضك الخاصة من قوة وغرور وانما كما تشاء هي في ان تستخدم ، واذا ما دعاك الناس «استنادا» فليس لانك أنت الذي علمتهم ذلك ، واذا كرهوك وضحكوا منك فلا تكرههم أو تعاملهم بالمثل ، وانما الق على نفسك سؤالا واحدا فقط ـ هل خنت عروس الشعر ؟ ـ وعند ذاك يمكن تبرير مقتهم لك ، اما اذا لم يكن في الامكان تبريره فلا تتوان في تحمل ذلك المقت من أجلها هي ، ويجب ان تكيل الصاع بالصاع وان لا تشغل نفسك بالجدل الشخصي أو أي نقاش الا في الدفاع عن حرية الفنانين ليكونوا فنانين ، كما يجب ان لا يشغلك امر معاصريك كثيرا الا في الكشف عن الخير الذي يكمن فيهم ويجب ان لا تنضم الى أي حزب أو طائفة ، بل ينبغي ان تكون وحيدا في سلام ٠

ويجب ، قبل كل شيء ، ان لا تخشى الهزء ، وان لا تخشى الكشف عن نفسك ، فالخوف من ان نكون موضع سخرية الناس هو لعنة الادب المعاصر ، فكثيرا ما يقال لنا بان روح عصرنا هذا ساخرة ومشككة وان جميع كتاباتنا يجب ان تؤخذ بتحفظ ، ان هذه النظرة ناتجة عن رهبة مهلكة ستؤدي بدورها الى مهارة مجدبة ، كالقصائد المبنية على الحقد الفلسفي ، والروايات التي كتبها رجال سرعان ما يحتقرون شخصياتهم الروائية لئلا نضحك منهم لاختيارهم واعجابهم بشيء كثير العيوب كالرجل أو لحبهم شيئا ناقصا كالمرأة ، بيد ان الرجال والنساء بطيشهم وآلامهم ، بآمالهم والخير الذي يكمن فيهم ، يكونون المادة التي يتألف منها الفن عندنا ، وعلى الفنان ان يخضع لها كما يخضع للاشياء الاخرى ٠ فوجود الفنان في العالم لم يكن للتضحية بالبشرية بل لخدمتها ٠

ومع ذلك فطالما قيل ان الكاتب الذي يقضي حياته في الطريقة التي ذكرتها ويكرس جزءا كبيرا منها للتأمل ولاجراء التحسين البطيء على صناعته يكشف عن المشاعر الانسانية نحو اخوانه البشر ، ويكون انانيا في انكماشه الظاهري عن المجتمع ، فكثيرا ما يتساءل الناس عن قيمة فنه في عالم مضطرب وعن المعنى الذي يمكن ان يتضمنه بالنسبة للرجال الذين ينشدون عملا ، والنساء والاطفال الجياع وبالنسبة للكتل البشرية العظيمة المكافحة من أجل الاطمئنان والسلام ٠ كما يجري التساؤل عن قيمة القصة بالنسبة للرجال الذين يرهبهم الموت ، لا سيما القصة التي لا تعكس مبادىء أي حزب معين والتي لا تعني بالكفاح المعاصر من أجل العيش ، ويطلق على اولئك الكتاب الذين يؤلفون مثل هذه القصص أحيانا تعبير (المطلقين للحياة) فاذا كان الجواب على ذلك بنعم عندئذ تؤدي الدهشة من وجود ملايين القراء المتحمسين لهذه القصص في أنحاء العالم الى اتهام آخر وهو ان هؤلاء القراء انفسهم (مطلقين للحياة) أو انهم متلهفون للفرار من الحياة ٠ وأنا أتذكر باني عندما زرت ألمانيا لآخر مرة في حزيران ١٩٣٤ استقصيت بكل عناية موقف الحكومة من الفن ٠ وكنت أفهم جيدا سبب خنقها للآراء المعادية للنظام القائم ، لان ذلك العمل مألوف في الاقطار التي قامت فيها ثورات ، فالحكومة التي تقام بالقوة والتي ليست متأكدة من مكانتها ، لا ترغب في مواجهة النقد ، ولكني امعنت في الاستفسار عن الموقف الرسمي نحو الاعمال الفنية التي تكمتنع عن الخوض في الامور السياسية كليا ـ وتعنى قليلا بالشعر الغربي المحض كما في (روميو وجوليت) أو (ينابيع الربيع المتدفقة) (لترجنيف) فاخبرت بانه على الرغم من عدم منع مثل هذه الكتب الا انها تعامل بازدراء واهمال وذلك لانها لم تؤيد الحكومة بالفعل ولم تعكس وجهة النظر النازية ، فاولئك الذين يتحدثون عن الفنان بصفته (مطلقا للحياة) انما هم نازيون دون ان يعلموا ٠ فهم يفرضون ان لا شيء يستحق الكتابة عنه ما عدا نظراتهم الخاصة للعالم، تلك التي عبر عنها النازيون بلفظة (النظرة الى العالم) ٠

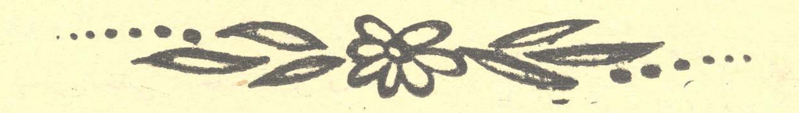
ولنبحث نفس المشكلة من وجهة نظر أخرى ـ ليس من وجهة نظر الكاتب نفسه بل من وجهة نظر القارىء العادي ، فكثيرا ما قيل بان الكاتب الذي لا يعنى مباشرة بمشاكل العصر والذي يفكر بالرجال والنساء كأفراد لا كوحدات في كتل بشرية سواء أكانت تلك الكتل امما ، أو عناصر أو طبقات اقتصادية ـ فان مثل هذا الكاتب لا يقوم بأي مجهود لزيادة السعادة أو تقليص شقاء الجنس البشري ، أو انه اذا ما قام بأي وظيفة فانه يقوم

بها بفعل المخدر ، وليس هذا بصحيح ، واذا ما طبقنا فكرة الخيال الخلاق على القارىء العادي فسنجد انه ليس بصحيح وسنشعر بوجود علاقة بين الفن والحياة في العصر الحاضر والتي لم يعترف بها اولئك الذين يطلقون على أنفسهم بكل كبرياء لفظة (معاصرين) ٠

ولكي نميز بوضوح بين السعادة والمتعة الحسية ، نقول ان المتعة تعتمد على الاشباع الآني للرغبة ٠ أما السعادة فهي الشعور الذي يلازم الانسان أحيانا بان للحياة قيمة وانها تسير نحو هدف عظيم وانها فوق كل ذلك تحقق كمالها بنفسها ٠ والشقاء هو تشتت وانقسام الفكر وشعور بالخيبة والضلال والحياة القائمة على الصدفة التي لا تخضع لنظام او شكل ثابت ، فالحياة الشقية اشبه بكتاب ردىء ينتقل من هنا الى هناك دون الالتزام بشكل نظامي ٠ والصعوبة الرئيسية في الحياة هي الصعوبة التي يجدها الجميع في الوقوف على الشكل الحقيقي للحياة التي نحياها أو ادراك ما اذا كان لها أي شكل منظم ٠

ان من خصائص حياتنا الحاضرة (وهي صفة تميزنا عن اسلافنا وتضفي معان خاصة على لفظه « حديث ») هي انه عندما يكون الناس تعساء فان شقاءهم ينبع من هذا الانقسام في الفكر ، من الحنين غير المجدي الى النظام والتعقل في الحياة ٠ ان هذا هو عصر الشك ، فعندما تخلى كثير من الناس عن معتقدات آبائهم أخذوا يبحثون عن عقائد تحل محلها ٠ فعصرنا هذا هو عصر العلم الذي طغت فيه معلومات الانسان على حكمته وأخذت تتملكه فكرة القوة المخربة الكامنة في اختراعاته والتي لا يستطيع السيطرة عليها ٠ انه عصر تناقض مخيف نجد فيه نظام التوزيع ناقصا جدا ، فبينما تتلف المواد الغذائية في جزء من العالم ، نجد الرجال والنساء يصرخون في طلبها في جزء آخر منه ، وهو بالاضافة الى كل ذلك عصر التساؤل الذي لا يجد فيه الشباب مخرجا لتحمسهم ، فهم دائما في سؤال : لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ ما هو معنى حياتي هذه ؟ ما هو النظام الذي نسير وفقه ؟ ما هو شكل الاشياء القادمة (في عبارة هـ٠ج ولز) ؟ وعندما لا نجد لهذه الاسئلة جوابا يحل الشقاء والاضطراب أو الضجر العقيم ، فهذه هي طبيعة الشقاء الحديث ٠

ولنطرح السؤال « لماذا ؟ » ثانية ٠ اننا اذا ما فشلنا في ادراك الشكل الذي ستتخذه الاشياء في المستقبل وتعذر علينا من بين الارتباك الذي يطغي على الحياة الحاضرة ، الوقوف على نظام لها يتمم نفسه ، اما يعزى الفشل عند ذاك الى جدب في الخيال عندنا ؟ فاننا في قرارة انفسنا نشعر بوجود شكل حيوي ينتظر الكمال ـ فاذا لم نشعر بذلك فلا يوجد سبب يدعونا الى الحياة الا قليلا ولا في الكفاح من أجل الحياة بصورة أحسن مطلقا ـ ومع ذلك فنحن نعجز عن تصور الشكل وهو كامل ٠ وهذه هي أهمية الادب للقارىء العادي ، والصور للمشاهدين ، والموسيقى للمستمعين والفن للبشرية ٠ فبدلا من أن تخدره نراها تدفعه لكي يتصور تلك الاشياء التي لا يستطيع بغير تصورها معرفة نفسه أو اسعادها وجلب الاستقرار لها ٠ فبهذا المعنى فقط يمكن ان نطلب من الفن وظيفة (العمل كمرآة للطبيعة) ، فليست قيمته الاساسية كائنة في تمثيل الحقائق التي تجري ملاحظتها في الحياة أو التعليق على تلك الحقائق ، انها قيمة كبيرة في قابليتها في العمل كمرآة للانسان بحيث يستطيع ان يرى ما كان عليه وما سيكون عليه ، وان يدرك (عن طريق عمل خيالي خلاق) نفسه جزءا من الطبيعة ، وان يكتشف الخالق في نفسه ٠ فمن طريق الشكل الفني وقوته الدافعة فيه يستطيع الفنان العظيم ان يوصل فكرة الشكل المنظم الى البشر ، كما هي الحال مع الشاعر في القصة الخرافية التي رويتها ٠ ويستطيع الفنان ان يهب رغبته حيث يتسلمها الناس سرا في قلوبهم فتتضاعف وتؤدي مهمتها ٠ فالفنان لم يخلق في العالم من أجل المجد والقوة ٠ انه موجود لكي يصغي كما انه موجود ليتحدث وكي تستطيع الانسانية (المرأة العجوز سجينة الشجرة) بوساطته ، وهو الرسول المخلص والاداة الالهية ، من اعادة خلق نفسها باستمرار ٠



الجريمة

قصة بقلم : زكريا تامر

كان سليمان الحلبي يمشي بخطى متئدة مبتهجا بالهواء الذي يهب فيما حوله مسقطا الاوراق الصفراء من الاشجار المنتصبة على جانبي الشارع وكانت يداه قابعتين في جيبي بنطاله كطفلين نائمين • وحين توقف لحظة عن السير ريثما يشعل سيجارة ، دنا منه رجلان ، وجهاهما متجهمان • وطلبا من سليمان الحلبي هويته بلهجة صارمة • وارتبك اذ عرف مهنتهما • وقد كانا طويلي القامة ، قسمات وجهيهما متشابهة الى حد عجيب • وأعاد الرجلان الى سليمان أوراق هويته ثم طلبا منه مرافقتهما ، فأطاعهما دون تفكير ، وسار وهو يقول لنفسه : لا بد أن ثمة سوء تفاهم •

واقتاده الرجلان الى مخفر غير بعيد • وادخلاه الى غرفة لها ثلاث نوافذ مفتوحة للشمس والهواء والسماء وكان يجلس في صدر الغرفة ، رجل ذو ثياب سوداء ، امامه مكتب حديدي ، تكومت على سطحه اكداس من الورق الابيض • وقال سليمان لنفسه : هذا رجل اسود •

وقال الرجل الاسود متسائلا : هل انت سليمان الحلبي ؟

فأحنى سليمان رأسه بالايجاب دون ان يتفوه بكلمة ، وتناول الرجل الاسود ورقة بيضاء موضوعة على المكتب ، وطفق يقرأ برتابة وكسل : « في ليلة السادس من حزيران شاهد سليمان الحلبي ، حلما قتل فيه الجنرال كليبر » •

وتوقف الرجل عن القراءة ، وتطلع الى سليمان الحلبي بعينين صارمتين بينما تحول الرجلان الى تمثالين من حجر ، متسمرين قرب احدى النوافذ • وكانت المدينة خلف النافذة •

وتساءل الرجل الاسود مخاطبا سليمان :

ـ هل هذا صحيح ؟

مغمغم سليمان الحلبي مستنكرا :

ـ لا لا • انا لا أعرف الجنرال كليبر •

فالتفت الرجل الاسود نحو الرجلين ، وقال لهما :

ـ احضرا الشهود •

ولم يتحركا غير ان باب الغرفة فتح بعد لحظات ، ودلف الى الداخل ثلاثة أشخاص ، ثيابهم معفرة بالتراب ووجوههم صفراء كأن أصحابها عاشوا مئات السنين في قبو يمقت الشمس • وعرفهم سليمان على الفور ، وكانوا رجلا هرما وامرأة كهلة وفتاة في مقتبل العمر •

وقال الرجل الاسود : ليتقدم الشاهد الاول •

وابتعد الهرم منفصلا عن المرأة الكهلة والفتاة ، واقترب من مكتب الرجل الاسود ، ووقف أمامه محني الظهر ، وقال بصوت كأنه منبعث من اسطوانة عتيقة تدور بتثاقل تحت ذراع الحاكي :

ـ في ليلة السادس من حزيران شاهدت سليمان الحلبي يقتل الجنرال كليبر •

فقاطعه سليمان هاتفا : ابي •

فلم يأبه الهرم له ، وتابع كلامه قائلا :

ـ ابصرته يطلق من مسدس ضخم سبع رصاصات اخترقت جسد الجنرال وانبثق الدم من سبعة ثقوب • وكان الحزن في تلك اللحظة فارسا يمتطي صهوة

جواد غير مروض ، وقد وطأت سنابكه لحم سليمان بينما غرس الفارس سيفه في القلب تماما ، ولكن سليمان لم يمت انما سمع الرجل الاسود يقول :

ـ الشاهد الثاني •

وتقدمت المرأة الكهلة ، ووقفت بجانب الرجل الهرم ، وقالت :

ـ رأيته يقتل الجنرال ، كان يحمل فأسا ، وقد رفعها الى أعلى ، وأهوى بها بكل قوته فشطر الرأس الى قطعتين ، وسقطت الجثة قربي ، واستطعت رؤية النخاع ممزقا خارج الجمجمة المهشمة •

وأشارت نحو سليمان الحلبي باصبع لا ترتجف ، وقالت :

ـ هذا هو القاتل •

فتمتم سليمان الحلبي بحسرة : أمي أمي •

فرمقته الكهلة بقسوة ، وقالت له :

ـ امك امرأة واحدة فقط •

وتذكر سليمان يوم كان صغير السن يلعب في الزقاق ، ملطخا ثيابه بالطين ، فوقفت أمه على عتبة باب البيت ، وكشفت عن صدرها الشديد البياض ، وقالت له منادية بحنو : تعال تعال •

وقال الرجل الاسود : الشاهد الثالث •

وتطلع سليمان الحلبي الى الفتاة بنظرات اسيانة ، ولم تتحرك الفتاة ، فدمدم الرجل الاسود بغضب :

ـ الشاهد الثالث •• ليتقدم

وظلت الفتاة متجمدة في مكانها غير انها بدأت بالكلام قائلة :

ـ رأيته راكبا سيارة ، دهست الجنرال ، ومرت فوقه عدة مرات حتى تحول الى لحم لا شكل له •

وصاح سليمان الحلبي :

ـ ماذا حدث يا أختي ؟ ألم أتركك في البيت وقد طلبت مني ان اشتري لك مشطا ؟!

وأخرج يده من جيبه حاملة مشطا أسود اللون ، وقال الرجل الاسود :

ـ لينصرف الشهود •

وأشار بيده بحركة ضجرة الى الشهود الثلاثة فتجمعوا في الحال متلاصقين في كتلة واحدة ، واتجهوا نحو الباب ، وما لبثوا ان غادروا الغرفة •

ووضع الرجل الاسود سيجارة بين شفتيه ، وحين رفع يده نحو السيجارة حاملة عود الثقاب المشتعل ، لاحظ سليمان ان يد الرجل الاسود غريبة فجلدها كثير التجاعيد فكأنه جلد سرطان ميت ظل زمنا مديدا تحت شمس قاسية •

ونفث الرجل الاسود دخان سيجارته ، وتابعه بنظراته بينما كان يتلوى صاعدا في جو الغرفة ثم يتلاشى بتكاسل ، وقال لسليمان :

ـ هل سمعت ما قيل ؟ ان الادلة على جريمتك ثابتة •

ـ لم اعترف بشيء •

ـ اعترافك ليس مهما • لقد اعترف غيرك بذنبك•

ـ انا بريء •

فتجهم وجه الرجل الاسود ، وقال بصوت بارد وقاس :

ـ لماذا ولدت ما دمت بريئا ؟ جئت الى هذا العالم كي تهلك وستهلك دون احتجاج ، انت مجرم ، وكنا نراقبك منذ أمد طويل فالناس المشبوهون نعرفهم بسرعة ولا يستطيعون خداعنا •

وتناول الرجل الاسود أوراقا بيضاء من على سطح المكتب ، وأخذ يقرأ ما كتب فيها :

ـ في الثالث من نيسان في الساعة الحادية عشرة وثلاث دقائق تطلع سليمان الحلبي الى القمر ، وقال لنفسه : القمر سعيد لانه لا يعيش في مدينة حاكمها الجنرال كليبر •

وتألق القمر في مخيلة سليمان الحلبي ، وكان قمرا ابيض تهرول نحوه سحب قرمزية .

– في يوم الحادي عشر من مايس في الساعة الثامنة صباحا فتح سليمان الحلبي أبواب اقفاصه واطلق سراح عصافيره .

وتذكر سليمان رغبة في البكاء اجتاحته بينما كانت العصافير في بدء انطلاقها عبر الفضاء الازرق ترفرف باجنحتها بارتباك واضطراب .

– وفي الساعة الثانية بعد ظهر يوم الثاني من حزيران خطر في ذهن سليمان الحلبي ان العالم سيكون سعيدا لو هلك بعض الاشخاص . ورمى الرجل الاسود الاوراق على المكتب بحركة ساخطة ، وقال :

– ألم أقل لك ان أمثالك لا يستطيعون خداعنا ؟

وظل سليمان صامتا وقد استغرب ان ينمو في اعماقه شعور حقيقي بالذنب ولكنه كان في الوقت نفسه شديد الاقتناع ببراءته .

وابتسم الرجل الاسود ، ولعق بلسانه شفته السفلى ، وقال :

– ستعدم في الساعة السادسة .

فالقى سليمان نظرة سريعة على ساعته فألفاها توشك أن تصبح السادسة ، فانتابه الهلع . ورفض تصديق ما حدث حوله ، واعتبره مجرد حلم سيصحو منه بعد لحظات على هزة من يد أمه وسيسمع صوتها .

وقال الرجل الاسود بتشف : ستعدم .

– ألن أحاكم ؟

فضحك الرجل الاسود ، وقال :

– انتهت المحاكمة ، أنا القاضي .

وتناهى الى سمع سليمان صفير قطار ، لا بد ان القطار يهدر الآن مارا تحت الجسر قاذفا دخانه في سحابة صغيرة لن تعيش طويلا وستضمحل أثر ابتعاد القطار .

– هل سأموت شنقا ؟

– لا .

– هل سيطلق النار علي ؟

– لا .

– هل سأحرق ؟

– لا .

– هل سأدفن حيا في التراب ؟

– لا .

وأشار الى الرجلين قائلا :

– هيا نفذا الحكم بالاعدام .

الساعة الآن هي السادسة تماما . والمدينة مستسلمة بفتور لضياء الشمس الآفلة ، وكانت كامرأة ترغب في النوم قليلا بعد ان انهكها العمل لاجل أولادها .

وعري سليمان الحلبي من ملابسه كلها ، ولم يخجل من وقوفه عاريا عريا كاملا أمام أعين الرجال الثلاثة . وكانت السيارات تعبر الشوارع وهي تزعق بابواقها عند المنعطفات . واخرج الرجلان من خزانة خشبية مدية كبيرة . ثم ألقيا سليمان على الارض ، ولم يحاول المقاومة .

وكان بجانب الرجل الاسود ، منضدة قصيرة القوائم ، ملصقة بالحائط ، يقبع فوقها مذياع صغير ، مد اليه الرجل الاسود يده . وبعد قليل انسابت منه أغنية لامرأة ، صوتها مفعم بالعذوبة والشجن ، ويتلاقى فيه الربيع والمطر والحنان العارم .

وانصت الرجلان قليلا للاغنية ثم تحولا الى جلادين ، وبترا أصابع اليد اليمنى بالمدية ، فصرخ سليمان متألما ، وتدفق الدم . خمس أصابع كانت ملكا لسليمان الحلبي ، وقد صافحت الاصدقاء ولمست باشتهاء لحم النساء ، وكان باستطاعتها في لحظة غضب خنق مخلوق ما .

وقال الرجل الجلاد لزميله : يالها من أغنية . ماذا تغديت ؟

فأجاب الرجل الآخر : حساء وقليلا من الخبز . اسناني تؤلمني .

ـ مسكين .

واشعل الرجل الاسود سيجارة ثانية ، وتركها معلقة بين شفتيه لتحترق على مهل .

وقطع ساعد سليمان ، فتأوه واطلق صرخة حيوان، صرخة طويلة مبحوحة . ولقد كان سليمان يحلم بأن تنام الفتاة التي سيحبها على ساعده لا على وسادة محشوة بالصوف او القطن .

وقال أحد الرجلين بينما كانت أصابعه تلتف حول مقبض المدية وكأنها تتوق لان تصير قطعة منها :

ـ ليلة الامس شاهدت فيلما وكان سخيفا .

ـ كل الافلام سخيفة في هذا الاسبوع .

وكانت أغنية المذياع تصعد وتبوح بالعذاب المر الذي يبقى اثر اندثار الحب .

واضمحل مرفق سليمان . وكان مرفقا يتكىء على حواجز الانهر ومناضد المقاهي ويلكز الاصدقاء .

وجثا أحد الرجلين على ركبتيه ، وبتر الذراع اليمنى كلها بحركة سريعة بينما كان الرجل الثاني يمسك بسليمان لمنعه من الحركة ، ولم يحاول سليمان الحلبي المقاومة انما كان ينتفض كلما مست المدية لحمه ، ويتلوى على الارض الناعمة الملساء بينما الدم يتابع تساقطه ذا الايقاع المكتئب .

وفتحت دور السينما أبوابها ، وغادرها روادها بخطى متثاقلة . وبترت ذراع سليمان اليسرى . ولو كان سليمان الآن متسولا يمشي في الشوارع لاستدر الشفقة ولانهمرت النقود عليه فهو بلا ذراعين ولن يستطيع معانقة امرأة ، واذا جاع فمن سيضع اللقمة في فمه ؟ وكان الرجل الاسود يبتسم منتشيا بالاغنية المنبعثة من المذياع . وتابع الرجلان عملهما ، وابتدأ جسد سليمان الحلبي ينقرض متضائلا رويدا رويدا . وكانت الاعضاء المقطوعة تلقى جانبا . وكان الناس في الشوارع يسيرون على الارصفة ، وبعضهم يقف قليلا أمام واجهات المكتبات متطلعا الى عناوين الكتب والجرائد . وكانت أصوات بائعي أوراق اليانصيب تتصاعد مطاردة المارة بالحاح : ستربح مئة الف ليرة . وكانت الباصات تواظب على المسير متوقفة بين الحين والحين في أمكنة معينة .

وقال الرجل الاسود مخاطبا الرجلين :

ـ لننته بسرعة . لدي موعد .

وتخيل الرجل الاسود بيته . لا بد أن ضيوفه ينتظرون مقدمه ولا بد ان وزجته ترحب بهم ، وتقدم اليهم فناجين القهوة . زوجته ذات الجسد الشهي سيعتصرها اعتصارا نهما بين ذراعيه .

وكان الرجلان في تلك اللحظة متغضني الجبين ، يداهما ملوثتان بالدم .

وقال الاول الممسك بالمدية :

ـ الى أين تنوي الذهاب بعد العمل ؟

ـ الى المقهى .

ـ انا سأذهب الى البيت . سأقرأ قليلا من الشعر ثم أنام .

ووضع حد المدية على عنق سليمان الحلبي ، واغمض سليمان عينيه بينما كان يحس بنصل المدية يلامس حنجرته ويوشك على ذبحها ، وشاهد نجوما تبزغ وكأنها عصافير ميتة .

وجمع الرجل الجلاد قوته ، وضغط على المدية ، فاخترقت اللحم والعظم اللدن ، وفصلت الرأس الذي تدحرج مبتعدا عن قطعة اللحم الباقية ، وكانت قلبا وكتفين . وظلت عينا سليمان الحلبي مفتوحتين ، تطل منهما نظرة بلهاء .

ونهض الرجل الاسود ، ووضع في جيبه علبة السجائر ثم سار متجها نحو باب الغرفة ، وعندما أمسك بمقبض الباب التفت نحو الرجلين وقال لهما :

ـ نظفا الغرفة قبل ذهابكما .

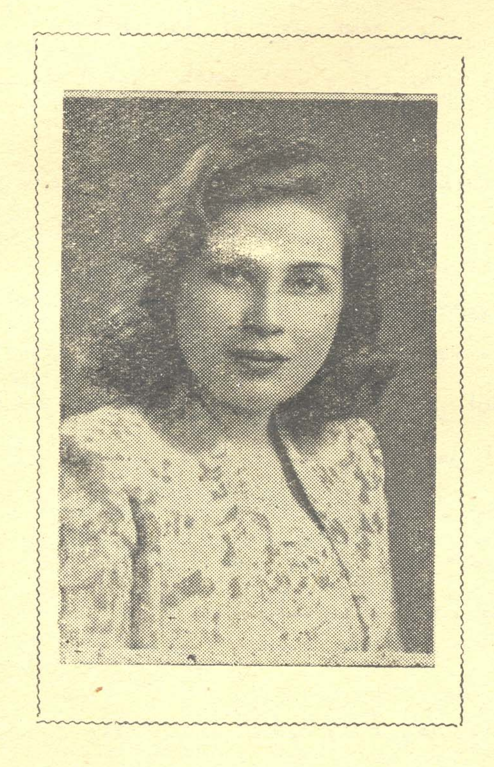
وعندئذ تذمر الرجلان بأصوات مرتفعة .

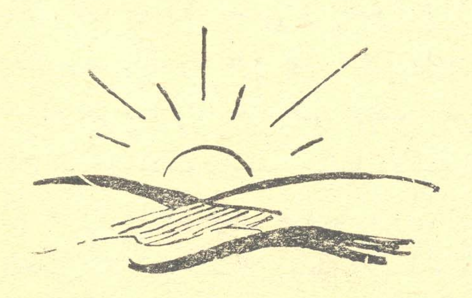
دمشق ـ زكريا تامر

من عزيزة هارون

شاعرة سوريا الاولى

بمناسبة الانتفاضة المباركة





ماذا أرى ياموطني .. ماذا أحس وأشعر ؟ .
قل لي بأن الوحدة الكبرى تعود فتزهر
قلقي يهيم وليس لي الا هواك مسير
أهلي وأحبابي وخلاني فممن أثأر ؟
جرح ينام على العزاء وألف جرح يسهر
في سوريا قومي يثور على القيود ويزأر
متكبرون فان بدا علم العروبة كبروا
قال الفداء توحدوا .. فرأيت جيشا يهدر
غنيت وحدة أمتي لحنا حبيبا يؤثر
وحسبت ليل عروبتي بك يا (جمال) ينور
فهتفت للحلم الرغيد وصار ليلي يقمر
وصحوت من حلمي على صوت القيود تزمجر
فسمعت ألف متيم بجلال عهدك يكفر
فضممت جرحا في الضلوع من الاسى يتفجر
ودمي على شفة النداء مجمد لا يقطر
مكر الزمان وأخوتي بزمانهم لم يمكروا
أجمال ما ذنب الاباة الصيد ان يتحرروا
قلب العروبة ياجمال على الاذى لا يصبر
جيشي بقيت على المدى جيشا يصول ويقدر
نفدي حماك وفي حماك فداؤنا لا يذكر
سل ما تشاء فما نحيد عن الوفاء ونحذر
تحيا لتنتصر العروبة بالجهاد وتكبر
أحرار يعرب والحقوق بكم تصان وتجبر
ان العروبة في الشام لها سيوف تشهر
ودمشق في شرع العروبة للعروبة منبر
والوحدة الكبرى بأسباب المحبة تثمر
يا مصر ألف تحية وهوى يضج ويزخر
اخواننا بالدمع .. بالدم .. تشعرون ونشعر
يا جيشنا في الشام تحيي الشام فيك وتفخر
أكبادنا تلك الجباه الشامخات واكثر
سر يا حياة الشعب فالدرب الطويلة تقصر
للوحدة الكبرى تسير وأنت أنت مظفر
قيل الجنان ، فقلت أفيائي أحب من الجنان وأنضر
كل الربوع بموطني أمل رحيب أخضر
أمجادنا علم يرف على الزمان ويخطر

نظرية الدور في العقيدة الفاطمية

بقلم : الدكتور محمد حاج حسين

اتخذت الاسماعيلية نظرية الفيض الافلاطونية أساسا لنظرية الدور فقد تأثروا بالمظاهر الدورية للعقل الكلي التي بدأت سلسلتها بآدم ، وانتظم فيها نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، واختتمت بالامام اسماعيل وابنه محمد • وهؤلاء هم الناطقون • وقد ملئت المدد التي تفصل بين كل ناطق وآخر بمجموعات سباعية من أشخاص صدروا كالناطقين عن القوى الخارقة • وكل مجموعة سباعية تدعم عمل الناطق الذي سبقها ، وتمهد للناطق الجديد • وكل مظهر من هذه المظاهر الدورية للعقل الكلي يظهر في زمنه حتى ينتهي العمل الذي قام به المظهر السابق • ومعنى هذا أن الوحي لا ينقطع لان الامام يرث الانبياء النطقاء • وآدم ليس أول مخلوقات الله ، فقد كان قبله عالم آخر • وكان حجة لآخر امام في الدور السابق وأول آدم في الدور الحالي ثم يأتي بعد ظهور قائم القيامة ، وهو آدم الدور القادم • وهكذا يأتي بعد كل آدم نطقاء وأئمة تمثل كل مجموعة منهم المجموعة السالفة ، بمعنى أننا نستطيع أن نقول أن آدم هو نوح ، وهو ابراهيم ، وهو موسى ، وهو عيسى ، وهو محمد • وما حدث لكل منهم يحدث للآخر • ولهم في ذلك حديث يروونه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لتسلكن سبل من تقدمكم حذو القذة بالقذة ، والنعل بالنعل ، حتى لو دخلوا خشرم ضب لدخلتموه » •

وتتجلى هذه النظرية في شعر ابن هانيء الاندلسي ، فقد تدبرها ، وهتف في شعره كقوله مادحا المعز لدين الله :

من صفو ماء الوحي وهو مجاجة
من حوضه الينبوع وهو شفاء
من أيكة الفردوس حيث تفتقت
ثمراتها وتفيأ الافياء
من شعلة القبس التي عرضت على
موسى وقد حارت به الظلماء
من معدن التقديس وهو سلالة
من جوهر الملكوت وهو ضياء
من حيث يقتبس النهار لمبصر
وتشق عن مكنونها الانباء
فتيقظوا من غفلة وتنبهوا
ما بالصباح عن العيون خفاء
ليست سماء الله ما ترأونها
لكن أرضا تحتويه سماء

فابن هانيء يرى أن المعز من قبس موسى • ومعنى هذا ان هذا الامام في دوره له نفس التأييد الذي كان لموسى في دوره ، وهو جوهر الملكوت مثل العقل الكلي • والنهار عندهم علوم الدعوة الباطنية • وتشق عنه الانباء ، أي تؤخذ عنه أسرار الدعوة •

وتتجلى نظرية الدور أيضا في ترديد ابن هانيء لفكرة أن المعز وارث الانبياء • يقول :

ولقد براك وكنت موثقه الذي
أخذ الكتاب وعهده المسئولا
حتى اذا استرعاك أمر عباده
أدنى اليه أباك اسماعيلا
من بين حجب النور حيث تبوأت
آباؤه ظل الجنان ظليلا

أدى أمانته وزيد من الرضى
قربا فجاوره الاله خليلا

فقد ورث عن الانبياء البرهان والتبيان والفرقان والتوراه والانجيل ، وذلك « لان حبل الامامة متصل لا ينقطع ، وواجب لا يندفع ، وأول الائمة آخرهم ، وآخرهم أولهم »[1] .

ويفسر هذا القاضي النعمان بقوله : « وذلك تصديقهم بأن ما وعد الله ، ورسوله به من اثبات أمر وصيه ، والائمة من ذريته هو كائن لا يشكون فيه . ومن هذا جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله انه قال : ما بعث الله نبيا قبلي ، الا وقت أخبرني بعلي وصيي ، وأمر بأن يأخذ البيعة لي وله على أهل طاعته ، والائمة من ذريتي »[2] .

وهكذا آمن الفاطميون بهذه النظرية ، ودعوا اليها بحرارة . يقول ابن هانيء :

أقسمت لولا أن دعيت خليفة
لدعيت من بعد المسيح مسيحا

ويقول :

نعش الجدود فلو يصافح هالكا
ما وسدته يد المنون ضريحا

فلو صافح المعز ميتا لاعاده الى الحياة لانه وفاقا لنظرية الدور حل محل عيسى الذي أحيا الموتى . غير أننا نقف قليلا ، فان البيت الاول قد يدل على أن ابن هانيء لم يكن حين نظمه قد فهم نظرية الدور تماما . ولعله نظمه في أول عهده بالدعوة الفاطمية لان المستجيبين لا يلقنون أسرارها دفعة واحدة ، بل يتدرجون في مراحلها . وعندما وعى أطوار الدعوة ، واستوعب

(١) غاية المواليد ٣٨
(٢) تأويل دعائم الاسلام (مخطوط ورقة ٢٦١)

أسرارها ، فهم نظرية الدور حق الفهم ، فوصف المعز بجميع خصائص الانبياء ، ورأى أنه ورثهم ، وتجلوا فيه . ولا غرو فان « صورته النورانية التي هي مبنية من جميع من تقدمه من الانبياء والاوصياء والائمة والحدود، والمؤمنين عليهم جميعا السلام »[1] .

وهكذا نرى أن الائمة ورثوا الانبياء لا في معجزاتهم وخصائصهم فحسب ، بل في صورهم أيضا . فهم قد أيدوا بما أيد به الانبياء من نورانية ، وقوى خارقة . وردوا كلاما في هذا المعنى عن الامام زين العابدين اذ يقول : « فلما أيدت بما أيدت به من الانبياء ، نطقت على لسان عيسى بن مريم في المعهد ، فآدم وشيت ، ونوح وسام وابراهيم واسماعيل وموسى ويوشع وعيسى وشمعون ومحمد . وانا كلنا واحد . ومن رآني ، فقد رآهم جميعا »[2] . فالانبياء واحد في كل ، وكل في واحد ، أولهم آخرهم ، وآخرهم أولهم . ولهذا كان ابن هانيء يرى في امامه المعز النبي محمدا صلى الله عليه وسلم ، وعيسى بن مريم عليه السلام :

وكأنما أنت النبي محمد
وكأنما أنصارك الانصار

كما سار في الانصار جدك من منى
وفاد الحواريين عيسى بن مريم

فالامام المعز هو محمد ، وهو عيسى . قال جعفر بن منصور اليمن :

« ان الامامة لا تتغير ، ولا تنتقل جارية أبدا مع مرور الدهر . فالائمة ينتقلون ، ويصيرون الى دار

(١) مسائل مجموعة من الحقائق العالية والدقائق والاسرار السامية . لمؤلف مجهول . نشرها ر . شتروطمان ٦٠

(٢) زهر المعاني ٧٧

كرامته ، ومحل رضوانه بغية أشخاصهم ، وقيام الخلف منهم في مقام السلف باتصاله بالامامة ، لان الامامة لا تنتقل ، ولا تزول . وانما الائمة صلوات الله عليهم يتوارثون بالانتقال والاتصال خلفا عن سلف كما أن عرش الله حال لا يزول » . وقد مضى ابن هاني الاندلسي يردد في المعز لدين الله الفاطمي :

لو كنت آونة نبيا مرسلا
نشرت بمبعثك القرون الاولى

أو كنت نوحا منذرا في قومه
ما زادهم بدعائه تضليلا

لله فيك سريرة لو أعلنت
أحيي بذكرك قاتل مقتولا

فالمعز هو نوح ، وهو المسيح الذي أحيا الموتى . والامامة متصلة من لدن آدم حتى زمنه ، لا تزول ولا تفنى . « فالولاية مثلها مثل آدم عليه السلام لانه أول من افترض الله تعالى ولايته ، وأمر الملائكة بالسجود له . السجود والطاعة هي الولاية . ولم يكلفهم غير ذلك ، فسجدوا الا ابليس كما أخبر الله سبحانه . فكانت المحنة بآدم عليه السلام ، الولاية . وكان آدم مثلها . ولا بد لجميع الخلق من اعتقاد ولايته . ومن لم يتوله لم تنفعه ولايته . ومن تولاه من بعده اذا لم يدن بولايته ، ويعترف بحقه ، وبأنه أصل ما أوجب الله عز وجل ولايته من رسله وأنبيائه وأئمة دينه ، وأولهم وأبوهم »[1] فالامامة سلسلة تنتظم فيها أدوار لا تنتهي . والامام يقال له المتم . ومعنى المتم انه بالائمة تتم أدوار النطقاء . و « لكل امام متم نصيبه من دور ناطقة ليبلغ الامر من الاول الى الثاني . ومن ثانيه الى ثالثه ، ومن ثالثه الى

(١) تأويل دعائم الاسلام ١/٨

رابعه ، ومن رابعه الى خامسه ، ومن خامسه الى سادسه ، ومن سادسه الى سابعه الذي يرتقي من مرتبة الامامية الى القائمية ليكون سابعا »[2] .

وهكذا كان للامام السابع المعز لدين الله التأييد المطلق الذي كان للانبياء في أدوارهم السابقة . وتجلت هذه النظرية في شعر ابن هانيء ، وأدرك سرها ، ولهذا فالمعز وارث الارض ليقيم بها الدعوة :

وأنت معد وارث الارض كلها
فقد حم مقدور وقد خط مكتوب

ويقول :

لك الارض دون الوارثين وانما
دعوت الورى فيها عضاة فبخبخوا

والارض في التأويل الاسماعيلي الدعوة ، فهم يرثون دعوة الانبياء ليدعوا الناس اليها . قال جعفر بن منصور اليمن : « يرث الارض الائمة الذين يتولون اقامة الدعوى اليه . فهم الوارثون الارض في الباطن ، وهي الدعوة . وهم الذين يدعون الى دين الله ، والى الناطق السابع منه ولد محمد صلى الله عليه وآله وسلم »[1] وقد أولوا الآية الكريمة : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون » بأنهم الائمة الذين يرثون الدعوة الى الله ، ويتمون رسالة الانبياء .

وصفوة القول ان فهم نظرية الدور يجلو الكثير مما غمض من العقيدة الاسماعيلية .

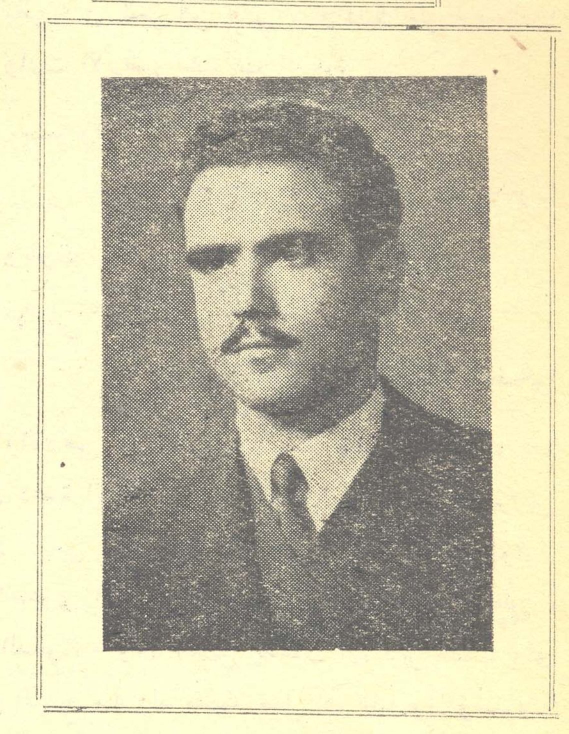
(٢) ابو يعقوب السجستاني : تحفة المستجيبين .
(١) الشواهد والبيان (مخطوط ورقة ٥٥) .

محمد حاج حسين

المدينـة المسحورة ...!

« الى : ا٠ش ٠ ذكرى خطوبتنا الفاشلة ، لانهم أرادوا لنا الانهزام ٠٠ هذه النهاية المرة !»

قصة بقلم : يوسف الحاج



كان يحمـل فكـرة رهيبة عن المدينة التي دعي لزيارتها ٠ شاعرها طفل كبير يبحث عن الحقيقة ويطلب منها أن تكشف له ذاتها ليؤمن بها ٠٠ صباياها يرقصن على أنغام الحب الثعباني ، يتلوين على أنغام الجاز في منعطفات الليل المضرج بالرؤى المحرورة ٠٠ أشجارها تحمل حبات الزيتون المباركة ٠٠ على بطاقة الدعوة ذكر أن هذه المدينة مسحورة ، تفعل فعلها في النفوس منذ الصغر وتؤثر تأثيرا ملحوظا في شخصية سكانها ٠٠ فالمردة واله الحب يهومون في بحر سوادها يفتشون عن ركن هادىء بالقرب من شجرة كرمة أو زيتون ٠٠ حارسها الوحيد متجلبب بالنار ينفذ حرفيا توصيات حاكمها التنين القاطن في بيت عال صنع من أخشاب الزيتون المسنة بعد أن تعرضت الاشجار للصقيع فالعقم ٠٠ أما نهارها فعادي جدا ، فهي تشبه أية مدينة أخرى من المدن البشرية ٠

حينما تسلم بطاقة الدعوة من شاعر المدينة ، كان يعاني من عذاب الصلب في مدينته ٠٠ وخطرت له وهو يقرأ حروف البطاقـة المكتوبـة بالقار والكبريت فكرة رائعة : « لماذا لا أذهب وأرسم لوحة لهذه المدينة وقد أعياني التفتيش عن موضوع قوي أرسمه طيلة عام لا زمني ٠٠ لماذا لا أتخلص نهائيا من جو مدينتي الذي تفوح منه رائحة العفونة ٠٠ ؟ » وهكذا شرع في نضو ملابسه حتى أصبح عاريا تماما كالشمس ٠٠ ! امتطى الهواء وركز ناظريه على البحر الكبير الصافي ٠٠ كانت الشمس تجنح للمغيب ، وود من أعماقه لو يستطيع حمل قطعة صغيرة من البحر ليرمي بهـا عند أقدام شجيرات الزيتون المستشزرة ٠٠ كان فرحا جـدا لانـه سيصل المدينة المسحورة مع بزوغ القمر ، ولانـه سيدخل مباشرة في الجو الماردي لدى وصوله ٠

وفجأة راح يتنسم رائحـة البخور المتصاعدة من الهياكل القديمة ، وألفى نفسـه يطير فوق شعفة برج ضخم فهبط على الارض الغريبة وراح يفتش عن بيت الشاعر ناسيا عريه ٠ لم يحفل الناس من منظره ٠ وبينما هو يجوس الشـوارع الحصوية تفريه الحيرة تقدمت منه فتاة صغيرة عيناها أسطورتان من براءة وسألته : عمن تبحث أيها الغريب ؟ قال لها : انني أبحث عن بيت شاعر مدينتكم ٠ فأجابته : منذ لحظة مر بي متوجها بصحبة جنية الى الهيكل الكبير ٠٠ وأشارت بيدها التي تشبه غصن زيتون في بدء تزغيفه الى الدرب ٠ ولما هم بالمسير فاجأته بقولها : أخشى أن لا يستطيع استقبالك الآن لانه كما يقولون في المدينة مشغول بكتابة قصيدة رائعة تتحدث

عن الرفض والصليب .. عن الجيل الذي سيأخذ على عاتقه عبء البحث عن الحقيقة الكبرى حتى يكتشفها بواسطة تدمير كل الحقائق المتوارثة حسب تسلسل الازمنة المهترئة ..!

تنهد من أعماقه ثم شرع يصعد في الدرب الغبراء نحو الهيكل الكبير في الوقت الذي كانت الفتاة تصرخ ملء شدقيها : مسكين أيها الغريب .. مسكين .. مسكين ..!

انقضت لحظات قليلة ووطأ الرسام عتبة الهيكل .. بخور يتصاعد من جنباته .. همسات ضبابية تحك الصخور الملساء .. آهات عميقة تتجاوب أصداؤها في الامداء العارية التي يحدها الصمت الاخرس من جميع الحدود الوهمية . تغلغل قليلا وعيناه مفتوحتان .. أذناه ترصدان الهمسات ، وفجأة ارتطمت قدمه بحجر كبيرة فصاح صوت من الداخل : من هناك ؟ فأجابه : أنا الرسام يا شاعر .. انني أبحث عنك ياصديقي .. أين أنت ؟ في أي ركن تقيم ؟ فصاح الشاعر بصوت أبح : تقدم أربعين خطوة الى اليمين باتجاه القمر .. خطا الرسام أربعين خطوة منتظمة فوجد نفسه وجها لوجه أمام الشاعر وقد أسند دفتره على فخذ الجنية السمراء المتشحة بغلالة فضية شزراء من شعاع القمر .. تتوسد وسادة حمراء بالقرب من موقد البخور .. قال الشاعر : اجلس أيها الصديق واسمع هذه القصيدة التي انتهت منذ لحظات ، ثم أخرج كمشة من بخور وألقى بها في الموقد وأخذ يتلو أبيات قصيدته في جو من التهويم الأفيوني .. كانت الجنية مغمضة العينين لا تصدر عنها أية حركة تنم عن يقظتها أو اتصالها بالجو الآني .. لقد ابتلعها البخور وألقى بها في عالم آخر .. وتلا الشاعر قصيدته الكبيرة وعند كل نهاية مقطع كان يرفع كفه ليمسح العرق عن جبينه أو ليرمي بكمشة من البخور في الموقد .. مع نهاية القصيدة أخذ صليب أسود يتأرجح في فضاء المعبد ومن وراء الصليب كانت عين كبيرة تطل على المعبد .. عين ليست غريبة عن الشاعر فهي ربيبته ، ولا عن الرسام فهي التي الهمته أقوى لوحاته ، وهي التي يبصر بها أثناء عمله ..!

أيقظ الشاعر جنيته وأمرها بالانصراف وقد هدمتها لهجته الآمرة وزرعت في وجهها المرهق كآبة وحشية لا توصف .. ثم مال على صديقه وهمس في أذنه : اننا مدعوون في هذه الليلة لحضور مهرجان للصبايا العازبات وباستطاعة كل شاب أن يختار عروسه في اللحظة المناسبة ، أما المكان فهو في ساحة البرج الكبير الذي شيده أخي ، بمعونة الاعرج « ايليا » منذ آلاف السنين ..!؟؟

وصل الشاعر وضيفه الرسام ساحة البرج في الوقت الذي بدأت به صبايا المدينة المسحورة ينحدرن من مختلف الدروب ويتجمعن في الساحة تمهيدا للاستعراض .. كن شبه عاريات .. رؤوسهن محجبة بشيء سخيف يحجب الجوهر عن الانظار ..! وعلى أصوات الموسيقى الهمجية تدحرج التنين من بيته واتخذ مكانه في وسط الساحة على منصة عالية بينما التف الشباب على شكل حلقة حول الصبايا الملتهبات .. كانت جميع الانظار متجهة صوب الشاعر والرسام وقد تركزت بشكل عجيب على الضيف الغريب ..

كان الرسام يفكر وهو يتطلع الى الاجساد المنضدة على شكل أرصفة العقيق : « حبذا لو أستطيع قطف جسد من هذه الاجساد لاغرسه في قلب مدينتي .. » وسمع وهو مبحر في تفكيره صوت الشاعر قائلا له : « لا تكترث لهن .. كل واحدة منهن تحب شابا يقف وراءها الآن .. من النادر جدا أن تجد في مدينتنا المسحورة فتاة لم تحب بعد .. » في هذه الاثناء انحدرت فتاة رائعة من درب ضبابي واتخذت مكانها أمام الرسام .. قال الشاعر : « انها تختلف عن الاخريات .. انها أسطورة من براءة ، باستطاعتك أن تنال يدها ، انها لا تغادر صومعتها الا نادرا ولذلك فقلبها لم يعرف الحب حتى

الآن •• » تهلل وجه الرسام بالفرح والبشر وراح يسكب في أذنها أعذب الكلمات •• لقد ازداد عريه ولم يترك قناعا واحدا يفصله عن جوهره •• استدارت على عقبيها وتطلعت بعمق في عينيه وابتسامتها تلوب على شفتيها العقيقيتين ووضعت يدها الناعمة على كتفه في شبه استسلام • قالت له : « لقد أحببتني الآن وفتحت أنا قلبي المغلق لك ، ولكن اياك ان تداخله قبل موافقة التنين ••!

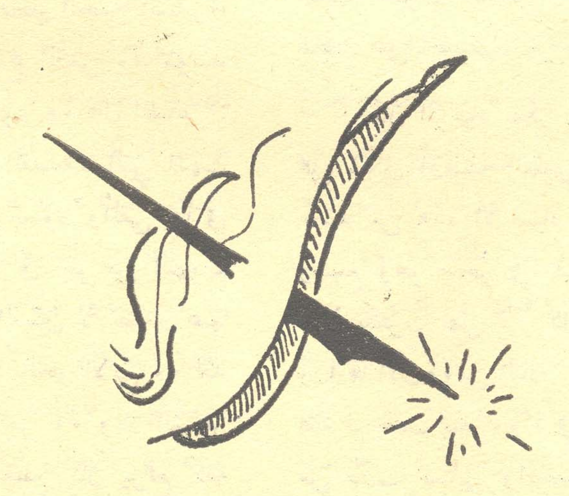
أخذها من يدها وسارا باتجاه التنين الغاضب •• قال الرسام موجها كلامه للتنين : « لقد أحببت هذه الفتاة وأريد أن توافق على زواجي منها •• » فصاح التنين غاضبا : « انها مجرمة لان أختها عصت أوامري وتمردت على العرف والعادة في مدينتنا •• » فأجابه الرسام : « يجب ألا ندين أحدا بجريمة ارتكبها أخوه •• » وهنا هدر التنين بنزق شديد وقال : « اذهب وتحمل المسئولية وتصرف بملء حريتك واختيارك ، لكنك ستنهزم ••! »

كانت كلمات التنين تنقض كالصاعقة على قلب الفتاة فترتجف بشدة وتتشبث بالرسام الكئيب لهول ما سمع •• لكن السحر الأخضر المتفجر من العينين كينابيع فيروز بكر ، أعاد اليه اطمئنانه فاحتضنها وسار بها على طريق العودة •

في تلك اللحظة صدحت الموسيقى وابتدأ الرقص الثعباني حتى اغتسلت أرصفة العقيق بالعرق الساخن وانهكت الصنوج وانطفأ العباد في أحضان رباتهن ••!

في صباح اليوم التالي طار بها الى مدينته الحزينة ، وغزا بها الاسواق غزو الفاتحين •• وجرت الحوادث بسرعة وفي كل حادثة كان يتذكر قول التنين ويحاول أن يقهره •• أن ينتصر عليه •• وهكذا انقضت أيام أسبوع كامل ذاق خلالها شتى الوان المرارات ••

في صباح اليوم الثامن هربت الى مدينتها تاركة اياه للصلب من جديد •• لثعبانة أخرى تحمل على ظهرها كيسا مثقوبا لا تقف الحوادث فيه أبدا •• وأدرك بعد فوات الوقت أن خطأه الوحيد يكمن في ذهابه عاريا الى مدينة الزيتون •• وأن الحياة الزائفة الراهنة تحتاج الى كثير من الرياء والدجل ••!!



الشعر يكرم القضاء

رائعة الاستاذ سليمان العيسى في وداع القاضي الكبير الاستاذ بدر الدين علوش أثر نقله من حلب الى دمشق



الاستاذ بدر الدين علوش

جاري العزيز (١) يريدها عصماء
بجناحها تتلمس الجوزاء !

ويقول : هات . وما حملت جوانحي
الا لاحرقها هوى ووفاء

الاكرمان : الحب ملء ضلوعنا
واخوة تسع الوجود صفاء

جاري ، وتعرف فاضلا انشودة
بين الرفاق ، وبسمة زهراء

يدعو الى وتري شوارد لحنه
من بعدما فجرته انواء

لا تلمس القيثار ، بدر في دمي
نبض يعيش عقيدة واخاء

خلفت أعصاري على وهج الضحى
وحملت ما ترك الهجير مساء

انا لا أخاف الليل ، لي من اخوتي
ما يملأ الحلك الرهيب ضياء

لو تقفر الدنيا ، وتسلم نبتة
منهم رددنا الجنة الخضراء

املأ سأشربها تحية ماذن
وابيه تعتصر النجوم غناء

املأ ، ابا حسن (٢) ستبقى ريشة
في النسر تخلق للفضاء فضاء

ان ينحطم دون النجوم جناحنا
سنشيد من نتف الجناح سماء

ما كرمتك مدينتي ، بل كرمت
معنى الرجولة صافيا وضاء

اني لاعرفها ، مدينة عبقر
والخلد ، اني اعرف الشهباء

نحتت من الصخر المنيع رجولة
وعقيدة ، لا قلعة ، وبناء

اسمع أبا حسن ، رفيق قصائدي
باق هنا ، لا يستطيع جفاء

هيهات ، يحمله الجميع بصدرهم
نبضا ، ودعه يبتعد ما شاء

لو زقزقت بين المجالس بسمة
ذكروا اباها الابلج الوضاء

لو اطبقت فوق الجوانح عتمة
لتفقدوا بدرا ، ولا ظلماء !

ياملهم القيثار أعذب لحنه
ياسيرة تسقي الصباح نقاء !

انا هنا .. هيهات يفصل بيننا
شيء ، سنبقى الكأس والندماء

عمر ، زرعنا بالعبير طريقنا
فيه ، وارضينا الجباه اباء

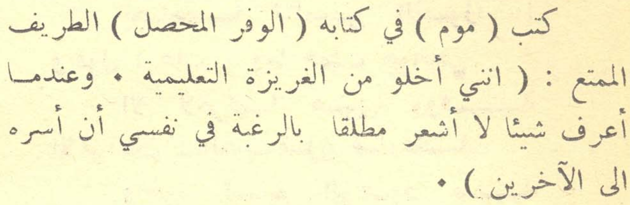
سليمان العيسى

(١) المقصود المحامي الاستاذ فاضل طلس

(٢) المحامي الاستاذ ضياء ابراهيم باشا صاحب الدعوة .

سومرست موم

تعريب : محمد سعيد الكيلاني



كتب (موم) في كتابه (الوفر المحصل) الطريف الممتع : (انني أخلو من الغريزة التعليمية . وعندما أعرف شيئا لا أشعر مطلقا بالرغبة في نفسي أن أسره الى الآخرين) .

ان الرغبة في التعليم والوعظ والدعم الاخلاقي ، احدى الصفات الملحوظة في أدب القرن العشرين في انكلترا . ولقد كان موم كما قال عن نفسه (بأن كتابته لم تحصل على شعبية تتفق مع شعبية معاصريه بسبب تحرره من الباعث التبشيري) . فقد كان في كتابته دوما : هادئا مفكرا لا تهزه العواطف . واستفاد فائدة جلى من خبرته الواسعة في الحياة ، في اماكن تكاد تكون مختلفة بقدر ما هي متباعدة مثل : لامبيث . ريفيرا . جزء البحر الجنوبي .

ولعل مما يصبح أكثر احتمالا ، أنه عندما شغلت المسائل العلمية عقول بعض الكتاب ، ثم خمد أوارها . وعندما انتهى عصر التجارب الصناعية المحموم ، فان كتابة موم في المسرحية والقصة تعتبر احدى المآثر الرئيسية في العصر الحاضر .

ولد (موم) ١٨٧٤ . وبعد ان قضى أيام صباه في باريز ، حيث كان والده ملحقا بالمفوضية البريطانية ، أرسل الى مدرسة تحضيرية . وأخيرا الى (مدرسة الملك) و (كانتربري) . ويظهر انه كان سعيدا هناك ، كما يكون الاولاد الاذكياء ذوو المشاعر الحساسة في المدارس التحضيرية والعامة .

لقد اغترب ١٨٩٠ فدرس في جامعة (هايدل بورغ) الالمانية التي عاد منها الى انكلترا ١٨٩٢ ليصبح تلميذا في الطب بمستشفى (القديس تومس) بلندن .



ولقد قال عن هذه الفترة من حياته : (كل هذا كان تجربة على جانب من الفائدة . انني لا أعرف تمرينا أحسن للكاتب من أن يقضي بعض سنوات في مهنة الطب) .

كتب اولى قصصه مستفيدا من معرفته التي ربحها في مستشفى تومس ، عن اماكن الطبقة العاملة جنوب لندن ، ونشرها ١٨٩٧ . ومنذ ذلك الوقت ، وبالرغم من انه أصبح أهلا ليكون طبيبا ، فقد فضل أن يخصص جهوده بالادب .

وحالما نشر قصته الاولى ، سافر الى اسبانيا ، ومنذئذ جال في نواحي العالم . ولقد كتب ٢٤ مسرحية و ١٩ قصة وعددا كبيرا من القصص القصيرة . بالاضافة الى كتابه عن الاسفار والتراجم الحياتية . ان أحدث

كتبه (حد الموسى) يقارن مع أحسن ما كتبه في القصة .

وتجب الملاحظة ان في حياته الخلاقة ثلاثة مظاهر :

ففي الطور الاول اهتم كل الاهتمام بكتابة القصص والاقاصيص ، واستمر في ذلك ست سنوات تقريبا .

لقد كتب دراسات واقعية عن الحياة بين الفقراء في الازقة المغمورة بلندن . وفي مقاطعات (ليزا اوف لامبيث) في (البطل والسيدة كراندوك) . ولا يوجد ما هو جدير بالذكر حول هذه القصة الاولى (انها كتبت باخلاص كبير . بيد أنها غير ناضجة الاداء غالبا) .

ولا يوجد أيضا شيء جدير بالملاحظة عن تجربة الكاتب الاولى في كتابته في قصة (الساحر) . وفي ١٩٠٨ اطرح القصة وهيأ نفسه - لسنوات سبع - لما نعتبره المظهر الثاني له ، ليكون كاتبا مسرحيا شعبيا ، لغاية كبيرة وتأثير كبير .

ولقد حددت مسرحياته الاولى ذوق العصر . ف (الرجل الشريف) و (الرجل العاشر) تشع بالقوة المسرحية التي تظهر المعنى الحقيقي للمسرح . ان مأثرته الهزلية الحقيقية الاولى (الدائرة) لم تظهر على المسرح حتى عام ١٩٢١ ، انها هجاء غريب للحياة الاجتماعية . فمعالجتها الصحيحة للوضع ، وعنصر الذكاء الجلي فيها ، يذكرنا بأحسن تقاليد فترة عودة الملكية وملهاة القرن الثامن عشر .

وبعد سنة ظهرت مسرحية (زوجة القيصر) ، وهي قطعة مسرحية أخرى تأثيرية . الا أن جهود الكاتب الحسنى قد ادخرت لمسرحية (أحسن فضائلنا) . وبعد سنوات سبع ظهرت هذه الجهود الطيبة للقطعة الصغيرة من الملهاة الاهلية (كاسب الخبز) . وفي هذه المسرحية اللامعة يرسم لنا الثورة الهادئة ضد طغيان التنشئة الاهلية القروية . كما أنها تمثل وضعا غير مألوف للغاية ، مثلته حتى نهايته الاخيرة غير العادية يد صناع .

وكانت شعبية هذا الكتاب - ولا تزال - تعزى الى حد كبير ، الى السهولة والسلاسة التي وصف بها (موم) مشكلة اجتماعية صميمة حديثة .

أما و اجبه ككاتب مأساة فقد انتهى ، كما اعلن عن قصده ١٩٣٣ مع ظهور (اشبي) . وهي تمثيلية ، وينتظر ان تكون رواية . انها محاولة لكتابة مسرحية جدية ولكن تركيبها غير قويم ، وسمتها التي لا تقنع جعلتها أقل مسرحياته أهمية . وربما تلقن الكاتب منها درسا جيدا .

فمنذ ظهورها ، كرس كل طاقته الخلاقة الكبيرة الى الشكل الفني الذي أنجز فيه منذ ١٩١٥ بعض النتائج الملحوظة .

والوجه الثالث من أعمال (موم) يمكن ان يقال انه بدأ ١٩١٥ عندما نشر قصة اسمها (في عبودية البشر)، القصة التي يجب ان تحتل مكانها بين قصص الادب الانكليزي الطويلة والهامة في طولها ونوعها العمالي .

بدأت هذه القصة قبل خمسة عشر عاما من ظهورها ، طرحها آنا ، ثم عاد اليها . اذ كانت نوعا من القصة التي يجب لها ان تكتب ، وكان الموضوع على غاية من البساطة . قصة متساوقة عن الطفولة والشباب والرجولة الاولى ، لفيليب كاري .

ان قسما كبيرا من الكتاب أقيم وأوحي من تجارب الكاتب الخاصة . ولكن من غير النصيحة ان ينظر الى الكتاب من هذه الزاوية فحسب .

ان فيليب كاري قد يشارك (موم) في بعض الصفات . ولكنه يشارك أيضا . (دافيد كوبر فيلد) و (هاملت) و (فان) .

لقد ولد في (كلب فوت) ولم يعرف اباه أبدا . غير أنه عرف أمه لفترة وجيزة . عاش في بيت عمه قس القرية في (الاسطبل الاسود) . وهناك خلق لنفسه عادة هي أشهى ما يكون في العالم ، بصورة غير شعورية ، هي عادة القراءة .

ولم يكن يدري أنه بعمله هذا كان يعصم نفسه من مآسي الحياة . ولم يكن يدري أنه خلق لنفسه عالما غير حقيقي ، سيجعل العالم الحقيقي ، وكل يوم فيه ، خيبة مرة . أما باقي الكتاب فتفصيل واقعي حول الموضوع .

فلا أجمل من أن يهدي قلبه المليء بالمحبة .. انني أشعر الآن بدوامة من الاعياء . معدتي فارغة تماما وأحس بجوع شديد .. صورتك الحبيبة تؤكد لي بأنني جائع للفرح ..! منتصف الليل يقترب ، وأنا أقترب من هاوية النعاس . غدا سأرسل اليك هذه الرسالة .. وداعا .. واسلمي لي نجمة تهدي شراعي في طريق عودته الى مرفأ الصحو ..

« عاصم »

* * *

٢٧-١٠-١٩٥٩

عزيزي عاصم ..

آه لو تدري مدى الفراغ الذي أحدثه سفرك .. أسبوع تقضى لا لون له . وقد أكبرت فيك هذه العاطفة التي حدت بك لان تمر بالبيت يوم سفرك لتودعني .. وأنا أعلم كثرة الصعوبات التي تحول دون ذلك . ليتك لم تمر فأنا أكره مواقف الوداع لانها تذكرني بالموت .. أنا لم أشك بأن أول رسالة ستكتبها هي الي .. فقد أطلعت بعد سفرك على حمى الجو الذي كنت تعيش فيه وأنت تتأهب للسفر . أرجوك أن تبتعد عن الصمت المطلق لانه يؤدي الى الحزن ، والاحزان المستمرة تدمر النفس ، وتخمد الجذوة المتقدة في الاعماق .. أنا لم أختر لك هذه المهنة عبثا ، فليس ثمة أجمل من أن يعلم الانسان الآخرين ويفني شبابه في محراب المعرفة.. ألم يقولوا للناصري : « يامعلم » أن لوقع هذه الكلمة في نفسي سحرا يفوق كل وصف .. انني أطالع تلك الكتب التي أهديتني اياها بمناسبة نجاحك ، وأنا معجبة جدا ب « آلام فرتر » ولكن النهاية أحزنتني كثيرا ولم ترق لي . أحب من الادب الذي يحمل الي النهايات السعيدة والفرحة الكاملة .. يكفينا ما في حياتنا اليومية من مآسي وأحزان صفراء .. اليوم فتحت المدرسة أبوابها وعدت الى صغاري الذين استقبلوني بزقزقات العصافير وهي تستقبل أمهاتها . الليل الذي كنا تتسامر في ساعاته القصيرة تحت شجرة الزيتون ، اضحى المعبد الوحيد الذي أرفع في أمدائه صلواتي كلها من أجلك ياصديقي البعيد .. وأستعيد وسط رفيف أوراقه وهمس نجومه المسمرة على صليب العذاب ، أحاديثك عن رامبو وبودلير .. وأتلو على مسامع الليل ذات القصائد التي وضعت حول عناوينها اشارة من قلمك . وأنا أبتدع هذه الوسيلة للقاء بك بين أحضان هذا الليل الكبير .. ثم هناك قصة « الباب الضيق » قرأتها بشغف وقد أرعبني هذا التحول في طبيعة « أليسا » . ولكنني لا أخفي عليك مقدار التعاطف الوجداني الذي شعرت به نحوها .. ولقد ذرفت نهرا من الدموع وأنا أقرأ مذكراتها .. ربما تتساءل عن مدى ادماني للمطالعة ، فأجيبك بأنها خير سلوة لي على بعادك .. انها العالم الوحيد الخاص الذي الجأ اليه للتخلص من تفاهات الحياة اليومية .. وستساعدني على تخفيف آلام الفراق ، وقد تحتم علي منذ اليوم أن أختار الكتب التي سأطالعها . ولكن ثق بأنني لن أختارها بدون مشورتك ، فأنت - وهذا اعتراف جديد - تعرف أي الكتب يجب أن تقرأ . لقد عكفت منذ أسبوع على تدوين مذكراتي وسأسعى جهدي كي لا تكون تافهة .. ان التفاهة هي الموت ..! عثرت منذ يومين على كتاب أشعار ل « ادغار آلن بو » يرجع تاريخ اهدائه الى خمس سنين خلت ، بدء تاريخ حبنا الذي سنرعاه كطفل صغير لنا .. الفجر يقترب . أشعر بمزيد من الرغبة بمواصلة الكتابة لاجعل من رسالتي سفرا من الاسفار ولحنا من نشيد الانشاد .. بعد قليل ستستيقظ أمي وأخاف أن ترى الضوء يشع من غرفتي .. استودعك المحبة .. لك كل حبي .. وداعا ..

« سوسن »

* * *

ليلة ٢٥-١٢-١٩٥٩

حبيبتي سوسن ..

اسمحي لي أن أتجاسر وأناديك بهذا الاسم الحبيب المقدس .. أنا لم أستطع قول ذلك لولا اقترابي

ولكن حين (خمدت المعركة) أصبح من الممكن أن يرى الكتاب قطعة بديعة من الملاحظة الباردة والوصف الواضح .

وهو بصورة مباشرة ، صورة للروائي العظيم (ادوارد) الذي استغلت زوجته الثانية مهرته واسمه . وهو بصورة غير مباشرة ، كشف عن التناقضات البشرية. وفي نفس الوقت صورة بارزة لزوجه (دريفيلد) الاولى .

وهي فتاة مشرب سابقة تدعى (روزي) .

والاقتراب من الحل بارد وموضوعي .. وتحت ضوء الهجاء الواضح تنشأ الشخصيات بالتدريج وبصورة مرضية .

وهو لا يعرف أحدا من هذه الشخصيات ، ولا (روزي) نفسها ، التي هي ابهج دراسات موم في الفضيلة السهلة . وفيها شرف واستقامة تساعدان (موم) والقارىء على مسامحتها .

وزوجة (دريفيلد) الثانية ، الذين يهجون بغير شفقة .

ولا ترينا (حافة الموسى) ١٩٤٤ – آخر روايات موم – أي دليل على تناقص في قوته كروائي . لقد هجر طريقة الظهور بشخصه في الروايات – نصف مختف – كما في (اشندن) ، ويظهر نفسه الآن بجرأة .

والشخصية الرئيسية رجل كثير الغرابة هو : (دارل) . يشعر (موم) بأنه مضطر لان يعطي بيانا عن حياته وسلوكه الغريبين . انه رجل بعد ان وجد القيم العرفية غير مرضية ، بحث عن طريقة جديدة في الحياة تشتمل على التسليم التدريجي بالحب والاصدقاء والطرق العادية في السلوك .

انه ينشد معرفة الحقيقة النهائية . وهي شعور بالوجود في المطلق خلال النظام الفلسفي المعروف : الزفانا .

وموضوع كهذا يعرض بجرأة ، لا يبدو أنه مناسب كثيرا لروايته .

ولكن معالجة (موم) لهذا الموضوع نصر فني ، و (دارل) تأتي الى الحياة لا في كلماته وسلوكه فحسب ، بل في ردة فعله تجاه الآخرين : تجاه ايزابيل .. سوزان .. موم .. وغيرهم .

والشخصيات الاخرى تعيش أيضا وبصورة ملحوظة (اليوت توميلتون) ، وهي مدعية ضخمة لا تخجل .. تشبه (كير) المدعية أيضا ..

وتتحرك القصة بسهولة خلال اوضاع مختلفة ، تصف ببراعة ايطاليا ولندن وريفيرا ومونت بارناس ..

وهي غنية ايضا في لحظات القوة المسرحية . كالليلة في القهوة في شارع دولاب ، واعتراف (ايزابيل) في الدور الذي لعبته في جلب الموت لصوفيا .

كما نجده في تقرير (لاري) الواضح عن تجاربه المملوءة بالاسرار في الهند . (الوفر المجمع) التي نشرت ١٩٣٩ أحسن دليل لفهم انتاج (موم) . انها مكتوبة كبقية انتاجه ، بتلك الصراحة والبساطة والانسجام الموسيقي ، والتي يعتبرها (موم) مثلا أعلى له في الكتابة .

وهي تعالج تجاربه التي تبحث في طبيعة الانسان التي قادته الى الاعتقاد : بأن هناك انسجاما حقيقيا في تناقضات البشر . وان الشيء الطبيعي في الحقيقة هو الشيء غير الطبيعي .

وموم قادر على ان يدفع عن نفسه تهمة التشاؤم ، على أساس أنه ملاحظ للجنس البشري غير متحزب ، ولا بقاص ولا اخلاقي .

ويتحتم علينا في هذه العلاقة ، وبعد مراعاة الوضوح الهادىء في اسلوبه أن نربط اسمه بامثال (درايدن) (تشوسر) .

والكلمات المشهورة التي تنطبق على تشوسر (بئر صافي للغة الانكليزية) تنطبق بقوة مساوية على (درايدن) و (موم) .

ويشعر الانسان ان تشوسر ودرايدن أيضا قد يرددان تعريف (ليونيز) للعمل الحق الذي يقبله (موم) كفلسفة في الحياة :

(ان جمال الحياة ليس الا هذا : أن كل واحد يجب أن يعيش بتلاؤم مع طبيعته وعمله) .

الالتزام واللاالتزام في الأدب العربي الحديث

بقلم : بدر شاكر السياب

ـ ١ ـ الادب عامة

ليس موضوع الالتزام واللاالتزام في الادب بصورة عامة وفي الشعر بصورة خاصة بالموضوع الجديد . لقد عرفه القدماء وان عرفوه تحت اسمين آخرين غير الالتزام واللاالتزام ، وبحدة أخف من الحدة التي أخذتها الدعوة الى الالتزام . ولا نعدو الحق اذا قلنا أن نصيب « الالتزام » القديم من الانسانية والشمول أكثر من نصيب الالتزام الذي نعرفه اليوم . كان الشعر ـ وبالتالي الادب بكل فنونه ـ ينقسم الى أدب موضوعي ـ وهو ما يقابل الادب الملتزم ـ والى أدب ذاتي ـ وهو ما يقابل الادب غير الملتزم .

والحق أن كبار الشعراء ظلوا ـ حتى أواخر القرن السابع عشر ـ أدباء ملتزمين أي موضوعيين وفي وسعنا أن نعدد من الاسماء ما يثبت ذلك ابتداء بهوميروس وصوفوكليس واسخيلوس من الاغريق فمروا بشكسبير وبن جونسون وراسين وكورني وامرىء القيس وطرفة بن العبد والمتنبي وكثير من الآخرين . أما الشعر العربي فلم يعرف الدعوة الى الالتزام او التملص منه الا في فترة متأخرة . كان النقاد العرب القدامى يقسمون الشعر الى أبواب أو « فنون » كالغزل والحماسة والمديح والهجاء والرثاء وسواها . ولم يكونوا ليفضلون أي « فن » من هذه الفنون على سواه . ان الشاعر العربي نشأ أول ما نشأ ـ ملتزما دون أن يدعوه أحد الى ذلك . واذا كان الشعر الجاهلي أول ما وصلنا من الشعر العربي القديم فقد كان الشاعر الجاهلي لسان القبيلة ، تغضب فيعبر عن غضبها ، وتحزن فيصور حزنها ، وتتقاعس اذ يعتدى عليها فيثير الحماس في نفوس أبنائها ويدعوهم الى الثأر والدفاع عن كرامتهم . على أنه لم يكن كهفا أصم يردد ما يتناهى اليه من أصوات ، وان كانت عواطفه مشدودة الى عواطف قبيلته . كان يحكم عقله ووجدانه فيما يعرض له من أمور ، فحين شبت الحرب الطاحنة بين عبس وذبيان وغطت قعقعة السلاح على صوت العقل فما يسمع ، ارتفع صوت الشاعر زهير بن أبي سلمى يشجب الحرب ويبارك السلام الذي كان قد حل لتوه :

وما الحرب الا ما علمتم وذقتمو
وما هو عنها بالحديث المرجم

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
وتضر اذا ضريتموها فتضرم

فتعرككم عرك الرحى بثفالها
وتلقح عشارا ثم تنجب فتتئم

وحين جاء الاسلام فرض الدين الجديد الالتزام على شعرائه فرضا وان لم يأمر بذلك صراحة . فقدأصبح الشاعر المسلم ـ والدين في أول جدته ـ يرى حرجا في التغزل بأخته المسلمة أو في هجو أخيه المسلم أو فيالتعالي بنسبة على أنسابه الآخرين . فصار لزاما عليه أن يسخر فنه الى الدعوة الجديدة ، يمدح الرسول ويصف حروبه ويهجو أعاديه . لذلك أصاب الشعر في صدر الاسلام ذلك الركود الذي أصاب الادب الروسي بعد الثورة البلشفية ، حين فرضت الدولة على الادباء مواضيع بذاتها بل ووضعت لهم مخططات أدبية وطلبت اليهم أن يبعثوا الحياة فيها .. وبعثوا فيها لا حياة وانما ما يمكن أن تبعثه الآلة في الدمية الميكانيكية من حركة . غير أن حدة الوازع الديني ما لبثت أن خفت ، وأصحاب أبناء المدن رغدا من الحياة ونعيما في العيش فانطلقوا يفسقون ويمجنون ، واذا شعراء كعمر بن أبي ربيعة وغزله المتهتك وكالاخطل وخمرياته وكجرير والفرزدق وما دار بينهما من هجاء مقذع يظهرون في المدن العربيةالجديدة ، وأصيب سكان البوادي بخيبة أمل شديدة وحرمان من نعمالحياة .. فاذا هم متقشفون زاهدون ، واذا شعراؤهم يعبرون عن حرمانهم من المناصب والنعم والثروات عن طريق الغزل العذري الذي ما فيه غير التوجع والتشكي وسكب الدموع . غير ان الشعر العربي لم يعدو شعراء يؤيدون هذا الفريق السياسي أو ذاك : الامويين أو الهاشميين ، ويعبرون عن ميولهم السياسية بشعر يستحق

أن يوضع في المرتبة الاولى من مراتب الشعر السياسي ٠

ورغم ما قد يبدو لاول وهلة من استقلال شخصية الشاعر العربي في العصر العباسي وانصرافه الى التعبير عن شؤونه الخاصة ، لم يكن أبوا نواس ولا العباس بن الاحنف ولا مسلم بن الوليد كل الشعراء العباسيين ٠ والحق ان هؤلاء الشعراء خرجوا عن خط الشعر العربي، أي عن موضوعيته والتزامه ، لانهم كانوا كلهم أو جلهم على الاقل من الاقطاب الفكريين للحركة الشعوبية التي تقمصت صورا شتى : فهي المنادية بانصاف الفقير والغاء الفروق بينه وبين من هم أحسن منه حالا ٠ وباباحة النساء بين رجال المجتمع دون تفريق ، تارة ، والمنادية تارة أخرى بأن: « لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى » أو بأن الفرس كانوا أصحاب حضارة ومدنية ولم يكن العرب الا بدوا أرباب شويهة وبعير ٠ وقد امتدت هذه الحركة الشعوبية ــ بكل وجوهها : السياسية والفكرية والدينية ــ الى العصر الحاضر ٠ فقام شاعر يدعي أنه شاعر « التقدمية » في العراق يخاطب القوميين من أبناء العراق مفتخرا عليهم بسلمان الفارسي ٠٠ ويقول :

سلمان أشرف من أبيكم كعبة
وعصام ما عرف الجدود عصام

لقد ظل الشاعر العربي في العصر العباسي يسلك ذات النهج الذي سلكه الشعراء العرب من قبله غير خاص عواطفه الذاتية الا بالنزر اليسير ، ومفتعلا التعبير عنها في أغلب الاحايين ٠ أبو تمام والمتنبي والمعري هم خير من يمثلون هذا التجاه الموضوعي للشعر العربي في العصر العباسي ٠

وفي عصر الانحطاط الفكري ، أصبح هم الشاعر العربي أن يأتي بالجناس او الطباق المستظرف ، وأن يكتب قصائد ذات قواف مستعصية ليثبت براعته اللفظية لا أكثر ٠ هذه الفترة من تاريخ الشعر العربي تشبه الى حد ما الفترة التي مر بها الشعر الانكليزي في أواخر القرن السابع عشر الى أواخر القرن الثامن عشر حيث ظهرت تباشير الحركة الرومانتيكية على يد توماس غراي وكوبر وسواهما ٠ وما لبث الشعر العربي أن شق عنه قشور البذرة التي كانت تخبئه دفينا تحت الارض ٠ ولاح في سمائه شعراء كالبارودي وحفني ناصف ، لم يختلفوا في وجهتهم الشعرية عن الاتجاه العام للشعر العربي ، كانوا شعراء « ملتزمين » الى أقصى حدود الالتزام التي كان يمكن أن توجد في تلك الحقبة التاريخية ٠

واستعاد الشعر العربي على يد أحمد شوقي كامل رونقه السابق واتجاهه الموضوعي ٠ ما كانت لتمر من مناسبة قومية أو تقام من حفلة وطنية الا وارتفع صوت شوقي وصوت حافظ وصوت خليل مطران مجلجلا فيها٠

قد يعترض معترض فيقول : أترى في تحول الشعر العربي الى شعر مناسبات استعادة لاتجاهه الموضوعي ٠ ولرد هذا الاعتراض يجدر بنا أن ندرس تلك الحقبة التأريخية وندرس اتجاهاتها السياسية والاجتماعية ٠ ولا يتسع مجال هذه المحاضرة الى أكثر من اشارة عابرة الى بعض تلك الظروف ٠ لم يكن الشعر ولا حتى السياسة قد نزلت الى الصعيد الشعبي بعد واذا صح ما يقال من أن الشاعر الملتزم قد شد أعصابه الجماهير فراحت حركة طفيفة من هذه تثير رجات عنيفة في أعصاب الشاعر، فما كانت أعصاب الجماهير لتتحرك ان لم تحركها هزة من الطبقات العليا أو الطبقة الوسطى بتعبير أصح ٠ ولم يكن في وسع الشاعر أن ينتظر رجة الوحي من انتفاض للجماهير وحركة لها ٠ كان الشاعر هو الذي يحرك الجماهير وما كانت الجماهير لتحرك الشاعر ٠ وكانت الاحتفالات التي تقام في المناسبات الوطنية تهيء للشاعر الفرصة المناسبة ل « امتياح » المشاعر من أعماق نفسه ، كما يمتاح الزارع الماء من بئر ارتوازية تحفر له ٠ كان عليه أن يمتاحه فلم يكن ليتدفق كما يتدفق من نبع غزير ٠

وفي أواخر أيام شوقي ظهرت في عالم الشعر العربي حركة جديدة ، لقد تأثر شعراء تلك الحركة بما قرأوه من الشعر الرومانتيكي الانكليزي والفرنسي : الغرامي منه وشعر الطبيعة والشعر الذي يعبر عن خوالج نفس الشاعر من حزن وفرح وشك أو ايمان ويأس أو أمل ٠ لعل اولئك الشعراء (ونستطيع تسميتهم شعراء مجلة أبولو) لم يطلعوا ــ أو لم يعجبهم على الاقل ــ من شعر شللي الا على القبرة والسيرنادا الهندية ودعوة ولم يطلعوا على آثاره الاخرى الاكثر أهمية أو لم تعجبهم على الاقل ، من بروميثوس طليقا الى ثورة الاسلام كما لم يقرأوا ــ أو لم تعجبهم ــ قصائد بايرون التي غنى فيها كفاح شعوب أوروبا الثائرة من أجل حريتها ٠ أما الموضوعية التي عرفوها فهي موضوعية الشاعر أحمد زكي أبي شادي رائد تلك الحركة وابيها التي سماها « بالشعر التصويري » حيث كان يؤلف قصيدة عن كل لوحة أو صورة مرسومة تعجبه ٠ غير أن شعر بعض من أولئك الشعراء لم يخل من بعض المشاعر الوطنية والقومية والشعبية ٠ ولم تستطع تلك الحركة الشعرية الاستمرار في عزلتها عن الاحداث السياسية والوطنية التي كانت تجري من حولهم في الوطن العربي ٠ فما لبث مجلة ابولو أن احتجبت وما لبث شعراؤها أن تفرقوا ٠ ورغم النجاح

الذي صادفه بعضهم ـ من حيث الشهرة أو الخطوة عند النساء ـ فقد طمحوا في أواخر أيامهم الى أن يحلوا محل شوقي ، شاعر المنابر والحفلات والمناسبات الوطنية ٠ حتى أن الشاعر المصري علي محمود طه أصدر ديوانا جمع فيه قصائد تختلف عن بقية شعره ، من حيث المواضيع والاتجاهات هو (شرق وغرب) الذي صور فيه بعض البطولات العربية والاسلامية ٠ وأصدر محمود حسن اسماعيل ديوانا سماه « الملك » قصره على مدح فاروق ملك مصر السابق ٠

وحين قويت الحركة الشيوعية في الوطن العربي في أعقاب الحرب العالمية الثانية وصار في وسع الشيوعيين أن يصدروا مجلاتهم في عدد من العواصم العربية : كمجلة الفجر الجديد التي كانت تصدر في القاهرة ومجلة أم درمان التي كانت تصدر في الخرطوم ومجلة الطريق التي كانت تصدر في بيروت وبعض المجلات والصحف العراقية التي لم تكن احداها لتعمر طويلا ٠٠ في ذلك الحين ظهرت نغمة جديدة كان الشيوعيون عازفيها ، تلك النغمة : هي الفن للفن أو الفن للمجتمع ٠ وأصبح في وسع الشيوعيين بجماهيرهم الواسعة المهيئة أكفها للتصفيق وصحافتهم التي كانت تمولها مصادر مجهولة ـ أو معلولة بالحري ـ أن يرفعوا أي شعرور أو متأدب ينضوي تحت لوائهم أو يجاريهم على الاقل الى مرتبة ما كان ليصلها حتى نهاية حياته ، لو لم يرفعوه اليها ٠ بل أن بعض الشعراء المبدعين بحق ، لم يستطيعوا الصمود أمام ذلك الاغراء الشيوعي فانحرفوا مع التيار الاحمر ، مضحين بفنهم وانسانيتهم وبكل ما يحرص الاديب عليه ٠ من أولئك الشعراء الشاعر اللبناني المبدع المرحوم الياس أبو شبكة والشاعر العربي المصري آنذاك ـ عبد القادر القطر ـ والشاعر الفلسطيني أبو سلمى وآخرون وآخرون ٠

لقد بسط الشيوعيون مسألة الالتزام وعدمه او مسألة الفن للفن ـ بما في ذلك الادب ـ والفن للمجتمع تبسيطا أخفى جوهر القضية بل ومسخ معنى الادب الملتزم أو الادب للمجتمع أو الادب الواقعي ٠

في عام ١٩٤٥ وكنت عضوا في الحزب الشيوعي العراقي دفع الى الحزب بكتاب مؤلف باللغة الانكليزية عنوانه « الماركسية والفن » ، لقد طرح مولف الكتاب مسألة الفن للفن أو الفن للمجتمع ، بالشكل الآتي :

كتب المؤلف الشيوعي :

« يقول دعاة الفن للفن : اذا رسمت بيضة أو بيضات في عش ، ثم نجحت في تلوين ما رسمت ٠٠ فذلك يكفي ٠ المهم أن تنجح في رسم ما تريد رسمه وفي تلوينه » ٠

ويرد المؤلف الشيوعي على ما زعم من حجة دعاة الفن للفن : أننا نقول لهؤلاء : اذا كان المهم هو أن تنجح في رسم ما تريد رسمه وفي تلوينه فلماذا لا ترسم ، بدلا من العش والبيضة ، عائلة كادحة يبكي أطفالها من الجوع ، وتنجح في رسمها وفي تلوينها ؟

ولما كان موضوع المحاضرة هو الالتزام واللاالتزام في الشعر وليس في الفن بصورة عامة ، أرى من الافضل أن أتكلم عن الموقف الشيوعي من الشعر الملتزم أو الشعر الجماهيري أو النضالي كما يسمونه ٠

تعتمد الشيوعية ان ليس هناك من فلسفة صحيحة غير الفلسفة المادية الدايلكتيكية وأن ليس هناك من حلول صحيحة ، لاية مشكلة ، غير الحلول الشيوعية ٠ وعلى هذا الاساس يحرم على الشاعر الشيوعي ـ أو أي شاعر يريد أن يرضى الشيوعيون عنه ـ الاتيان بأية فكرة غير مستمدة من الفلسفة الشيوعية ، أو الاتيان بأي حل غير الحلول الشيوعية التي تقررها كتب ماركس وانكلز ولينين وستالين بصورة عامة وتقرر تفاصيلها وجزئياتها منشورات الحزب الشيوعي في بلد معين ٠

اليكم أبياتا من قصيدة كتبها شاعر شيوعي عراقي عن القضية الفلسطينية ، قبل أن يتخذ الاتحاد السوفياتي موقفه المعلوم منها :

فلسطين لك المجد
وللمجد فلسطين
من الشرق الى الغرب
تحييك الملايين
على مهلك يا شيخ الولايات على مهلك
ذر الذرة واستعمل لنا الذرة من عقلك

الى آخر هذا النظام الركيك الذي لم يستطع أن يرتفع حتى الى مستوى الشعر الرديء ٠ وللشاعر ذاته بيت حظي بدوي من التصفيق والهتاف قل أن يحظى به بيت شعر ٠ يقول من قصيدة له ألقاها بمناسبة ذكرى الوثبة ـ وهو الاسم الذي أطلقه الشيوعيون العراقيون وتبناه بقية أبناء الشعب على مظاهرات الشعب العراقي التي أحبطت معاهدة بور تسموت واسقطت حكومة صالح جبر عام ١٩٤٧ :

فالعراق الحر في وثبته
يحسن الوثبة صيفا وشتاء

ولم يقتصر الشيوعيون العرب في تطبيق مقاييسهم الماركسية على الشعر العربي المعاصر ، بل تعدى بهم

الامر ذلك الى الرجوع الى الشعر والادب العربيين القديمين وتطبيق مقاييس الواقعية الماركسية والادب النضالي عليهما ٠

كنا ذات مرة مجتمعين في حلقة شيوعية أدبية ، حين أخذ أديب شيوعي يهاجم شكسبير ويصفه بـ « شاعر الرجعية والاقطاع » المتحدث عن الملوك والامراء والقواد لا عن العمال والفلاحين ٠ وحين احتججت بأن شكسبير مات حتى قبل أن يولد كارل ماركس ، أجابني بأن هناك الكثيرين من الشعراء والادباء « التقدميين » الذين جاؤوا قبل ماركس ٠ ولماذا نأخذ على هذا الشيوعي العراقي موقفه هذا وقد وقفت صحيفة الديلي ووركر — جريدة الحزب الشيوعي البريطاني ، هذا الموقف ذاته من شكسبير ، وهاجمته لانه لم يعبر عن مصالح البروليتاريا وأمانيها ٠

وحين رفع الشيوعيون شعار السلام العالمي راح الادباء والمتأدبون منهم ينقبون في الادب العربي القديم عما قيل في شجب الحرب والدعوة الى السلام ٠ وكتب أديب شيوعي عراقي ، يسمونه أديبا كبيرا ، مقالا عن المتنبي وقصيدته في شعب بوان ، جاعلا نقطة انطلاق بيت المتنبي :

يقول بشعب بوان حصاني
امن هذا يسار الى الطعان

وخلص من هذا الى القول الى أن المتنبي كان مروج حرب بينما كان حصانه نصيرا للسلام ٠ ورغم أنني كنت شيوعيا آنذاك فقد علقت على مقالة قائلا بأن حصان المتنبي قد وقع على نداء استوكهولم بحافره ٠

ازاء هذه الحملة الشيوعية العنيفة ، لم يستطع أغلب الشعراء العرب صمودا فراحوا يكتبون شعرا نضاليا على نمط ما يكتب الشيوعيون وأصبح الفرق الوحيد بين الشعراء الشيوعيين وبين أغلب الشعراء الملتزمين من غير الشيوعيين هو اختلافهم في بعض الكلمات التي يستعملونها ٠ فبينما يردد الشاعر الشيوعي كلمات « السلام » و « الكادحين » و « الراية الحمراء » ، يردد الشاعر غير الشيوعي كلمات « العروبة » و «الجهاد» و «المجاهدين» ٠
على ان كلمة « التزام » لم تستعمل في النقد العربي بمفهومها الحالي ، الا بعد ان استعملها جان بول سارتر ٠ وجاءت دعوة سارتر هذه الحجة لغير الشيوعيين بأن الادب الواقعي والادب الملتزم ليسا وقفا على الشيوعيين ٠ وكان الشيوعيون قد قطعوا السبيل على النقاد غير الشيوعيين حين ادعوا بكل شاعر أو أديب مكافح ، غنى الحرية والعدالة وتحدث عن البؤس والفقر ٠ فادعوا مثلا بالشاعر الاسباني لوركا بل وأوشكوا أن يدعوا بالشاعر الانكليزي كولردج ٠

ان الدعوة السارترية والنكبات التي أطبت العرب من النكبة الفلسطينية حتى الحرب الجزائرية الراهنة أزالت الفروق بين نوعين من الادب الملتزم بصورة عامة والشعر الملتزم بصورة خاصة : الشيوعي وغير الشيوعي ٠ ان قيام الاحزاب في البلدان العربية وما يؤدي اليه قيامها من اجتماعات ومهرجانات ومظاهرات قد شجع الشعر المنبري ، شعر المناسبات ٠

ولعل استفحال خطر الشعر المنبري كان من جملة العوامل التي أدت الى ميلاد حركة الشعر الحر واشتدادها ٠ لكن الشعر لم يسلم من استغلال الشيوعية والاتجاهات الحزبية الاخرى له ٠ بل انه سهل الطريق على كثير من المتشاعرين الذين راحوا يرصفون كلمات معينة مما يحويه قاموس الشيوعية السياسي والاقتصادي ، ويلتقطون الشعارات التي يهتف بها المتظاهرون أو التي ينقشونها على شعاراتهم ثم يؤلفون من كل ذلك شيئا يسمونه شعرا نضاليا ، وما هو بالشعر ولا بالنضالي ، بأية حال من الاحوال ٠

وفي وسع من يريد الشواهد على ذلك الرجوع الى دواوين الشعر الشيوعية التي صدرت في الفترة الاخيرة ولعل ديوان عبد الوهاب البياتي المسمى « كلمات لا تموت » آخر ما صدر من تلك الدواوين ٠

ولا بد لنا ، في هذا المجال ، من الاشارة الى ما كان للشاعر الانكليزي الكبير ت٠س اليوت وخاصة في قصيدته « الارض الخراب » من أثر كبير على الشعر الملتزم في الادب العربي الحديث ، الشيوعي منه وغير الشيوعي ، والرديء منه والجيد على السواء ٠

لعلي لا أغالي اذا قلت أن المدنية الاوروبية الحديثة لم تهج هجاء أعنف ولا أعمق من الهجاء الذي وجهه ت٠س اليوت اليها في قصيدته « الارض الخراب » على كثرة ما هجا الادباء والشعراء الشيوعيون الجانب الرأسمالي من المدنية الاوروبية المعاصرة ٠ وقد لقيت «الارض الخراب» من اهتمام النقاد ودراساتهم ما لم تلقه أية قصيدة أخرى ٠ ان الشيوعيين يعتبرون كل شاعر يهجو المدنية الحديثة لاسباب غير أسبابهم ، ومنطلقا من وجهة نظر غير وجهة نظرهم ، عدوا تجب محاربته ، ولم يأل الشيوعيون جهدا في محاربته ٠ بل ان مجلة « ساينس اند سوسيتي » الشيوعية الاميركية نشرت مقالا عن ت٠س اليوت ٠ نفت فيه عنه حتى صفة الناظم المجيد في نظمه ٠
غير أن الشيوعيين مصابون ، وخاصة في الناحية

الثقافية ، بعقدة الشعور بالنقص ، وان شعراءهم — ليشعرون في قرارة أنفسهم — بالتضاؤل أمام جبروت الشعر الاليوتي • وقالوا لانفسهم : ان تكتيك اليوت هو العظيم ، أما أفكاره فرجعية ، استعمارية • وعلى هذا أخذوا يقلدون تكتيك ت٠س أليوت مبدلين محتواه بمحتوى « تقدمي » كما يسمونه •

لست أدري اذا كان الشعراء الشيوعيون في الغرب قد نجحوا في تقليد اليوت او لم ينجحوا • أما الشعراء الشيوعيون العرب ، فقد قرأوا أليوت دون أن يفهموه • كل ما عرفوه عنه أنه يضمن قصائده أبياتا لشعراء آخرين فرنسيين أو ألمان أو انكليز •

أما ما الذي يختفي وراء ذلك التضمين من عمق ، وما في ورود ذلك التضمين في موضع معين من تناقض يقصده الشاعر مع النص السابق له أو اللاحق • فذلك ما لم يفهموه • عرفوا عنه أنه يضمن شعره أبياتا لشعراء آخرين وانه يستعمل اللهجة الشعبية أحيانا • وأنه قد يلتقط حديثا سمعه في مقهى ، أو حوارا سمعه في الشارع ، فقلدوه في ذلك • فأصبحت قصائدهم كأنها جلباب متسول مرقع برقع مختلفة الالوان • هنا بيت يتحدث عن الربيع والخضرة وبعده مقطع من أغنية شعبية عن موت الكلاب من الجوع وبعده هتاف التقطه الشاعر من مظاهرة الى آخر هذا الخلط العجيب •

لكن هناك فئة أخرى من الشعراء العرب الشباب قرأت أليوت وفهمته وتأثرت بروحه وتكتيكه على السواء• لقد رأى هؤلاء الشعراء في « الارض الخراب » أعنف هجاء للمجتمع الرأسمالي يتضاءل ازاءه كل ما هجاه به الشعراء الشيوعيون رغم ما في هجائهم من اقذاع وحقد ، ورأوا فيها ، من جهة أخرى ، هجاءه للمجتمعات التي تخلت عن القيم الانسانية الحقة ، القيم الدينية الرفيعة وهو هجاء ينطبق لا على المجتمع الرأسمالي وحده وانما ينطبق على المجتمع الاشتراكي — في الدول الشيوعية — أيضا • بل وينطبق الى حد ما على المجتمعات المريضة المتخلفة ومنها المجتمع العربي • لقد رأوا كيف استطاع شاعر غربي أن يفيد من رموزهم ، كرمز تموز واوزيريس فنبههم الى أمر كانوا عنه غافلين •

وساعدت الظروف السياسية التي كانت البلدان العربية تمر بها ، حيث الارهاب الفكري وانعدام الحرية الى اللجوء الى الرمز ، يعبرون بواسطته عن تذمرهم من أوضاع بلادهم السياسية والاجتماعية على السواء وعن أملهم في انبعاث جديد ينتشلها من موتها • هؤلاء الشعراء ملتزمون أيضا لكنهم يختلفون عن الشعراء الشيوعيين — وكلهم ملتزمون طبعا — في أن الالتزام الشيوعي مفروض على الشاعر من الخارج ، اما التزام هؤلاء الشعراء فنابع من داخلهم • وهم لا يتخلون عن الفن ولا يهبطون بشعرهم عن أعلى مستوى يستطيع كل شاعر منهم بلوغه ، في سبيل أن يفهمهم المناضل شخنوب أو الرفيق حسن الركاع أو عجرش الزبال •

وتعرضت هذه الفئة من الشعراء الملتزمين التزاما حقا ، الى هجوم من اليمين واليسار على السواء فهي في نظر اليسار فئة تخدم مصالح البرجوازية والامبريالية ولا تفكر بالجماهير • وهي في نظر اليمين المتطرف ، فئة تاحول تحطيم الشعر العربي بالخروج عن أوزانه وطائق نظمه المتوارثة مدفوعة الى ذلك بدوافع شتى أعظمها ما يغدقه عليها الاستعمار من مال ، وأملها ضعف أدواتهم الشعرية وقلة حصيلتهم من الالمام بالادب العربي القديم•

انه لامر مؤسف حقا الا يبلغ الشعر العربي المعاصر مستوى الواقعية كما عرفها الشاعر الانكليزي الكبير والناقد المبدع الموهوب ستيفن سبندر في محاضرة له عنوانها « الواقعية والفن » • وخلاصة تعريفه ذاك هو ان الواقعية الحقة هي تلك التي تمكن الشاعر أو الفنان من تحليل مجتمعه تحليلا يحوى أكبر قدر ممكن من الحقائق • ولا يهم ، بعد ذاك ، من أية وجهة نظر انطلق• ولكن الحد الذي بلغه الشعراء التموزيون — في الشعر العربي الحديث ، كان يبشر بمستقبل لامع لهم أو للشعراء الذين سيسيرون على آثارهم على الاقل •

لكن يبدو أن الشعراء التموزيون أصيبوا بخيبة أمل • فأقلعوا عن الالتزام كأنهم اتفقوا على ذلك ، وان لم يتفقوا • يبدو هذا الاقلاع عن الالتزام والانصراف الى المشاكل الذاتية والشخصية بل وحتى افتعالها ، في الآثار الاخيرة لاولئك الشعراء • يتضح لنا ذلك في ديوان يوسف الخال الاخير « قصائد في الاربعين » ، وفي قصائد صلاح عبد الصبور الاخيرة ، وفي الديوان المخطوط الذي يضم آخر ما كتبه أدونيس وأرى ذلك في نفسي أنا شخصيا ، فكأنني تخمت من الالتزام فانا أتفلت منه •

ولا أغالي اذا قلت ان نهاية الالتزام الحق في الشعر العربي المعاصر ستكون حين ينتهي هؤلاء الشعراء منه •

أما من هو المسؤول عما أصابهم أهي مجتمعاتهم أم حكوماتهم أم الاوساط الإدبية المختلفة فذلك ما نتركه للمؤرخين الذين سيكون لديهم الكثير مما يقولون •

ولعل ما يعاب به الادب العربي ، غلبة الشعر على فنون الادب الاخرى • ما زال الشاعر يحظى بالمكانة الاولى بين أدباء العرب •• وما زال كل أديب عربي سواء أكان

كاتب قصة أم مقالة أم كان ناقدا ، يطمح أن يصبح شاعرا أو يتمنى ذلك في قرارة قلبه على الاقل . وعلى هذا الاساس فان المقاييس السائدة في الشعر فرضت نفسها على فنون الادب الاخرى . ما جدوى كتابة قصة او رواية عن عواطف النفوس من حب وبغض وحسد في حين يكتب شوقي وحافظ والرصافي قصائدهم عن دنشواي ، وعن الدستور .

لهذا كله كان الاتجاه الواقعي في القصة أول ما عرفه الادب العربي منذ أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

في تلك الفترة كان لا بد من ظهور رواية (زينب) للدكتور محمد حسين هيكل التي استمد وقائعها من المجتمع الفلاحي . ولم يكن بد من أن يصدر طه حسين « الايام » مدونا فيه ذكريات طفولته في الريف المصري ومجتمع الفلاحين ، ثم « دعاء الكروان » ..

حتى حركة الترجمة تأثرت بالذوق الادبي الذي كان سائدا آنذاك . لقد وجد حافظ ابراهيم أنه يؤدي واجبا شبيها بالواجب الذي يؤديه حين يكتب الشعر ، اذا هو ترجم رواية فكتور هوغو (البؤساء) فاضطلع بترجمتها بالرغم من عدم تضلعه باللغة الفرنسية . أما محمود تيمور وهو من رواد القصة القصيرة في الادب العربي الحديث ، فهو تلميذ أمين للكاتب الفرنسي غي دي موباسان ، وبلغ محمود تيمور ذروة التمسك بالواقع والالتزام في روايته (كليوباطرة) في خان الخليلي التي انحدر الحوار فيها الى مستوى التعليقات السياسية على الوضع العالمي والصراع بين الدول الديموقراطية والمحور . لكنه لم ينج من التأثر بالاتجاه الرومانتيكي كما يفهمه أكثر الادباء العرب في كثير من آثاره . ان الرومانتيكية تعني لدى أغلبية الادباء العرب وقرائهم التحدث عن الحب والجمال والطبيعة ولا شيء أكثر .

يقول رئيف خوري في كتابه (الفكر العربي الحديث) متحدثا عن تلك الواقعية المبكرة « ان ادباء العرب ومفكريهم وجدوا أنفسهم أمام قيم ومثل ومعقولات جديدة شاعت على الالسنة والاقلام ابان الثورة الفرنسية وتناقلتها الافواه والقراطيس في الشرق العربي ، فقد طفق الناس يتحدثون عن الوطن والوطنية والامة والقومية والحرية والمساواة والحقوق الوطنية كنتيجة لتشبع أعلام الفكر العربي بمبادىء الثورة الفرنسية أمثال أمين الريحاني وأديب اسحاق حيث وجدوا في تلك المبادىء ضالتهم وعرفوا فيها الدواء الناجع لادواء الشرق المزمنة . »

لكن الاتجاه الواقعي في القصة سرعان ما اندحر أمام الاتجاه الرومانتيكي الذي يمكننا القول بأن مصطفى لطفي المنفلوطي كان رائده الاول أو من اوائل رواده على الاقل .

وظل الاتجاهان الواقعي والرومانتيكي في القصة متعايشين دون أن يظهر من أي الاتجاهين أثر شامخ حتى طلع نجيب محفوظ بروايته الرائعة (خان الخليلي) التي كانت فاتحة عهد في القصة الواقعية الرائعة .

وفي خلال تلك الفترة لم تخل المكتبات العربية ولا الصحف من قصص واقعية على الطريقة الشيوعية أمثال قصص ذنون أيوب وروايته ، أو من ترجمات للقصص والروايات الشيوعية كرواية « الام » لمكسيم غوركي التي تعاون على ترجمتها عدد من شيوعيي العراق عام ١٩٣٤ ، وحوالي ذلك .

لقد سمى أديب شيوعي آخر ذنون أيوب ب(المقاص) مشتقا الكلمة من المزج بين المقالة والقصة . ورغم أن مقاييس الادب الشيوعي ترى في القصة والرواية أرقى الفنون الادبية ، متحمسة لها أكثر حماسها للقصيدة أو المسرحية لسهولة نشر الافكار الشيوعية عن طريقهما لم يستطع ذلك المفهوم أن يلقى رواجا في المجتمعات العربية . ذلك ان الطبقة الكادحة وهي العمود الفقري لكل حركة شيوعية أشد طبقات المجتمعات العربية جهلا . ان تسعة وتسعين بالمائة من الفلاحين والعمال العرب أميون ، ولا يمكن أن يقرأوا قصة أو رواية فتتسرب المفاهيم الشيوعية الى أنفسهم عن طريقها . كما ان من الصعب على المنظم الحزبي أو رئيس الخلية الشيوعية أن يقرأ رواية « الأم » لمكسيم غوركي مثلا ، على أعضاء خليته .

أما الشعر فأمره أيسر . في وسع الشاعر الشيوعي أن يلقي قصيدته في الخلات والاجتماعات ، وفي وسع المنظم الحزبي أو رئيس الخلية الشيوعية أن يتلو قصيدة « جماهيرية » على رفاقه في اجتماع حزبي أو جلسة حزبية .

واذا خضع كثير من الشعراء الشيوعيين لمقاييس النقد الشيوعي فان اشباح دستويفسكي وجيمس جويس وفولكنر ظلت هي المسيطرة على نفس القصاص الشيوعي وهو يكتب أقصوصته أو روايته . نجد ذلك واضحا للغاية في انتاج القصاص العراقي عبد الملك نوري ، المحسوب على الشيوعيين . انه يؤكد ، أغلب الاحيان ، على أهمية المونولوج الداخلي وتهاويل اللاوعي . ولعل هذا من بين الاسباب التي أدت الى عدم صعود نجمه في فلك الادباء الشيوعيين العرب .

وحين ارتقى مد الحركات الشيوعية في البلاد

نحت

الدكتور بديع حقي

تعب الازميل وانهد الحجر
وذوى المرمر واعتلت صور
وشكت من غلمة الطين الفكر
فعلى صلصاله رفت ذكر
وارتمى الوجد على جرح نغر
علق اللهفة بالوهم الخطر
فاذا الدمية هيمى بالقمر
تسكب الظل وتومي للدرر
فلك النهد أبيا وانحسر
يفغم الجو بأعراف الزهر
وهوى الازميل ، سمحا ، وانحدر
سلسل الساق طروبا ثم فر
فغوى في ظله المغناج سر
أي ازميل تراءى واستتر

ينحت الحلم ويغتال القدر
ينفر الخصر فتبدو في الاثر
خفقة المنقار في طيب الثمر
طيفه في رعشة الصلصال مر
يسفح القبلة في لمع الشرر
وينادي شفة لا تستقر
شفة جاذبها حلو السمر
فاذا ما هاج في الثغر الوطر
ناسمت خدا وهمت تنتظر
وطوت خلجتها كل الفكر
واذا ما جازها بوح عطر
هرق الازميل كونا وابتكر
وبكى التمثال وانهد الحجر

بديع حقي

العربية ، في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، عمت جو الادب العربي موجة من القصص الواقعي أو « الملتزم » . واذا ما تذكرنا الطريقة الشيوعية في كتابة القصة القصيرة أو الرواية ، أدركنا أي نوع من القصص والروايات هو الذي عم وساد . لعل أنجح ما صدر من تلك القصص والروايات ذات الطابع اليساري ، بل هو أنجح بالفعل ، كتاب « المعذبون في الارض » للدكتور طه حسين والقصص التي نشرها مارون عبود في مجلة الطريق الشيوعية في لبنان .

وما لبث جان بول سارتر أن أطلق دعوته الى الالتزام فوجدت تلك الدعوة صدى لا في أوساط الادب الشيوعي — الذي هو مبتزم منذ البدء — وحسب وانما في أوساط الادب القومي أيضا . فكثرة القصص التي تتحدث عن النكبة الفلسطينية وعن كفاح الجزائر . ان أحسن ما كتب في هذا الموضوع دون منازع هو قصتان قصيرتان كتبتهما السيدة سميرة عزام ، الاديبة الفلسطينية ونشرتا في مجموعتها « .. وقصص أخرى » وتليهما في الجودة بعض القصص التي كتبها الدكتور عبد السلام العجيلي ، حول موضوع فلسطين ذاته .

أما الروايات التقدمية الملتزمة فلعل « قصر الشوق » للكاتب العربي الكبير الاستاذ نجيب محفوظ أحسن ما صدر منها . وقرأت ، وسمعت كثيرا من الثناء على رواية الفها الاستاذ مطاع صفدي من أدباء الجمهورية العربية السورية وسماها « جيل القدر » لكنني لم أقرأ الرواية ذاتها غير أني سمعته من ناحية أخرى يهاجم على تلك الرواية من قبل بعض الفئات الحزبية .

هذا عن القصة . أما عن المقالة فلم يرتفع الى مستوى الادب الا القليل من المقالات الملتزمة . ولعل مقالات عمر فاخوري — وهو شيوعي — من أحسنها . ويجب أن لا ننسى بعض المقالات التي كتبها الدكتور طه حسين وعالج فيها كثيرا من الامور السياسية والاجتماعية .

ولم يعرف المسرحية الملتزمة التي ترتفع الى مرتبة الادب . لقد ألف الشيوعيون كثيرا من المسرحيات « الملتزمة » حسب مفهومهم للالتزام — لكنهم كتبوها باللغة العامية .

هذا هو الادب العربي الحديث في التزامه وعدم التزامه . يحتل الشعر مكان الصدارة منه وتقف المسرحية في المؤخرة . فيه نوعان من الالتزام : الالتزام الشيوعي وكلكم تعرفون ما هو « الالتزام » عند الشيوعيين . أولى بهم أن يسموه « الزاما » والالتزام القومي الحزبي وهو لا يختلف عن الالتزام الشيوعي الا في بعض التفاصيل . ثم الالتزام اللاشيوعي اللاحزبي، النابع من نفوس الادباء لقد قدم أدباء هذه الفئة نماذج رائعة من الادب الملتزم لكنهم اندحروا في المجتمع الذي يسيطر عليه التعصب الحزبي الى حد الجنون .

الأديب العربي في العالم الحديث

بقلم : يوسف الخال

فاجأنا العالم الحديث في أعقاب الحرب الكونية الاولى . كان قد بدأ يتسرب الينا منذ أواخر القرن الثامن عشر : حملة نابليون على مصر ، قيام محمد علي ، نشاط الارساليات التبشيرية والتربوية في لبنان وفلسطين على الخصوص ، استمرار الصلات المذهبية بروسيا وفرنسا والفاتيكان . على ان العالم الحديث لم يصبح عالمنا بالفعل الا بزوال السلطنة العثمانية عن ربوعنا .

ولكن ، ان يصبح العالم الحديث عالمنا ، أي أن لا يقوم بيننا وبينه حاجز ، لا يعني اننا أصبحنا تماما فيه ، أي أننا تبنينا جميع معطياته ومفاهيمه ـ الصالح منها والطالح ـ في حياتنا . فلو كان الامر كذلك لما كانت القضية المصيرية التي تجابه العرب اليوم ، على اختلاف بيئاتهم ، هي : كيف ننشىء مجتمعا حديثا في عالم حديث .

هذا التناقض بين كوننا شكلا في العالم الحديث وكوننا جوهرا خارجه ، يضطرنا ـ نحن الادباء العرب ـ الى معاناة قضايا مجتمع قديم في عالم حديث ، ومعاناة قضايا عالم حديث في مجتمع قديم . في التعبير عن معاناتنا الاولى نعرض أنفسنا لانتاج أدب يجده القارىء الحديث بعيداً عن قضاياه ومشكلاته ، وفي التعبير عن معاناتنا الثانية نعرض أنفسنا ، من جهة أخرى ، لانتاج أدب يجده القارىء العربي مستوردا غربيا .

كنا نستطيع ، قليلا او اكثيرا ، أن نتخطى هذه الصعوبة،فنكتب أدبا يعكس حياتنا ويعالج قضايانا الخاصة على نحو يهم القارىء في كل مكان ، لو لم نكن في عملنا الادبي مكبلين بصعوبات أخرى هي أيضا ، في أساسها ، قائمة أو لا تزال قائمة ، لفقدان « الحداثة » في عالمنا العربي .

اولى هذه الصعوبات اللغة . هل تعلمون اننا نفكر بلغة ، ونتكلم بلغة ، ونكتب بلغة ؟ أنكون أننا اذن في رأي البعض ، كالدكتور ليفيز ، لا نكتب أدبا قط ، لاننا لا نكتب بلغة الشعب ، بلغة الحياة ؟ الم يبدأ الادب الانكليزي مثلا بتشوسر ، والايطالي بدانتي ؟

هذا الحرص الذي يبديه العرب على تجميد اللغة في قواعدها القديمة المتوارثة دليل واحد على أن العقل العربي ليس حديثا بعد ـ أي ليس ، بهذا الصدد ، علميا واحد على ان العقل العربي ليس حديثا بعد ـ أي ليس ، بهذا الصدد ، علميا ولا علمانيا . فهو ما يزال يخضع الحقائق الموضوعية للرغائب الذاتية . فمن الحقائق الموضوعية ، مثلا ، ان اللغة تتطور مع الزمن ، وانها انما تتطور على السنة المتكلمين بها . على ان رغبتنا الذاتية في ان نرى أنفسنا أمة عربية موحدة ، تحملنا على التمسك بلغة عربية موحدة خرجت من الافواه الى بطون الكتب ، كنا نعتبرها لغة الوحي ، فمعناها من ان تتطور التطور الطبيعي الذي جرت على سننه جميع اللغات . واليوم ، اذ ضعفت الاعتبارات الدينية في نفوسنا ، أقمنا في وجهها عائقا من نوع جديد ، حين أخذنا نعتبرها لغة القومية العربية .

فالسؤال الآن هو : كيف نوفق بين رغبتنا الذاتية هذه ، وبين ان يكون لنا أدب حي بلغة الحياة ؟

ـ ١ ـ

الواقع أننا استنفذنا ، أو كدنا نستنفذ ، منذ ابي

النظر الاسبانية ، وشرح أهمية دخول اسبانيا الحرب : احتلال جبل طارق وطرد بريطانيا من البحر المتوسط ، الامر الذي يحقق للمحور الظفر الاكيد في الجبهة الليبية المصرية حتى وصول قواته الى قناة السويس ، كما ان دخول اسبانيا الحرب يبعد نهائيا خطر دوغول عن شمالي افريقيا ويحمي مؤخرة المحور في ليبيا ، وتم القرار على طلب قواعد عسكرية في جزر البالياراالاسبانية، وتحديد اعلان اسبانيا الحرب على انكلترا في خلال أربعة أسابيع •

وهكذا عاد فون ريبنتروب ، وأبلغ (سيرانو سونيير) مقررات المحور هذه •

ولكن فرانكو أجاب في ٢٢ أيلول ١٩٤٠ بالرفض المطلق للقواعد المطلوبة في البليار ، وشرح بصراحة عجز اسبانيا عن صد أي غزو قد تقوم به بريطانيا على جزر كناري الاسبانية ، أو على الاقل ، عدم امكان امداد هذه الجزر بالمؤن الكافية ، وبذلك ابتعد الامل في دخول اسبانيا المعركة •

وتتابعت الحوادث ، فتم توقيع الاتفاق الثلاثي في ٢٨ أيلول ١٩٤٠ بين دولتي المحور واليابان ، واغتنم هتلر فرصة وجود شيانو ليطلب عقد اجتماع مع موسوليني في (بريز) تبحث فيه مسائل البحر المتوسط وموقف اسبانيا ، فأسرع (سيرانو سونيير) وزير الخارجية الاسبانية ، الى الاجتماع بموسوليني في الواحد من تشرين الاول ، ليعرض المطاليب الاسبانية نفسها ، فأصغى اليها الزعيم الايطالي ، وناقشها ، ثم غادر مقره للاجتماع بالفوهرر الذي أكد له أن الحرب يجب ان تعتبر في حكم المنتهية في صالح المحور ، وانه يجب تجنب أية التزامات جديدة لا تعود بالنفع العميم على كل من المانيا وايطاليا على السواء ، واقترح الدوتشي عندئذ اخبار فرانكو ، تجنبا لاستيائه وظفر العناصر المناوئة له ، ان المحور على استعداد لبحث أية مسألة تتعلق بتعديل الممتلكات الاسبانية في الشمال الافريقي ، بعد عقد السلم، وأن ايطاليا والمانيا ستقدمان ما تستطيعانه من المساعدات الاقتصادية والعسكرية خلال ذلك ، كما اقترح عقد اجتماع مع فرانكو يحدد موعده فيما بعد • وقد وافق هتلر على هذه الاقتراحات ، وعاد موسوليني من (بريز) في اليوم التالي (٥-١٠-١٩٤٠) لابلاغ (سونيير) الوزير الاسباني نتيجة اجتماعه بالزعيم النازي •

ولم تكن الحوادث بعد ذلك مشجعة لاسبانيا ، فقد أعلنت برلين في (١٢) تشرين الاول ارسال بعثة عسكرية المانية الى بخارست والتعهد بالحماية الجوية لآبار البترول في رومانيا ، الامر الذي كان من شأنه ان يسيء الى العلاقات الالمانية الروسية • وقد دفعت هذه الخطوة التي اتخذها الالمان دون استشارة موسوليني ، دفعت الطليان الى مهاجمة اليونان ، ولم يكن فرانكو يعلم شيئا عن نوايا الحكومة الايطالية نحو اليابان ، ولكنه كان يتوقع أحداثا خطيرة في البحر المتوسط ، وكان يعلم ان المحور بحاجة ماسة الى موقع اسبانيا الجغرافي ، وقد أثار الحاح الالمان بعض شكوكه ، وهم الذين كانوا يعلنون في كل مناسبة انهم ربحوا الحرب ، ولكنهم يحاولون بكل الوسائل الضغط على اسبانيا للاشتراك معهم فيها ، حتى بلغ الامر بهتلر الى ان يتجاوز عن بعض كبريائه ، ويذهب لمقابلة فرانكو في (هندايا) على الحدود الفرنسية الاسبانية في ٢٣ تشرين الاول ١٩٤٠) حيث تم توقيع بروتوكول غير واضح ، ذي صفة سرية ، تعهدت مدريد بموجبه أن تدخل في الاتفاق الثلاثي (ايطاليا - المانيا - اليابان) وان تشترك بعد ذلك في الحرب ، اعترفت المانيا بدورها ، بتعابير مبهمة ، بمطالب اسبانيا المتعلقة بالممتلكات من حيث المبدأ ، وقد استطاع فرانكو في الواقع أن يتهرب مرة أخرى من دخول الحرب دون اغضاب الفوهرر ، وحمله على اتخاذ أي تدبير خطير بالنسبة لاسبانيا •

وعاد هتلر بخفي حنين ليقابل الدوتشي مرة أخرى في فلورنسا (٢٨ تشرين الاول) بعد ساعات قليلة من بدء الهجوم الايطالي على اليونان ، عاد يروي لموسوليني قصة لقائه مع فرانكو قائلا عنه (انه رجل باسل ، ولكنه

غبر عصور مديدة من التقطع التاريخي .

هذا التقطع التاريخي هو صعوبة أساسية أخرى أمام نمو أدبنا العربي وازدهاره .

- ٣ -

وهنالك صعوبة ثالثة هي أشد الصعوبات التي ذكرنا عنادا وأبعدها أثرا فيما نعانيه ونكابده في هذا العالم الحديث ، أعني بها انغلاقنا على أنفسنا وانفصالنا عن جهد الانسان الحضاري المتواصل المتصل . هذا الانغلاق أو الانفصال تم نهائيا بانهيار سلطاننا في الاندلس ، عندئذ خيم الانحطاط وعم الظلام . وعاش فلاسفتنا هناك في الغرب ، وماتوا هنا عندنا في الشرق . كان ذلك نتيجة منطقية متوقعة لعملية الخنق المستمر التي بدأت ، في تاريخنا الاسلامي ، بزوال عهد المأمون . فسحق المعتزلة وسحل الحلاج . وكانت آخر السلسلة ظهور الغزالي ، في السنوات الالف ، واختفاء العقل من ديارنا في الالف الاخيرة .

نحن اليوم ندرك ما حل بنا . ومنا من يدرك لماذا . هؤلاء يقولون : حضارة الانسان واحدة لا تتجزأ . كل انفصال عنها ، وانغلاق دونها ، موت . فاذا أردنا ان نحيا ، علينا ان نتصل وان ننفتح . واذا كان شيء في تراثنا يحول دون هذا الاتصال والانفتاح ، فبئس هذا الشيء ، كنا فيما مضى شركاء عاملين في حضارة الانسان ، ويجب ان نظل كذلك اليوم . أعطيناها حين امكننا العطاء ، فلا عار علينا اذا أخذنا منها اليوم . بل العار في ان لا نأخذ اليوم ، لكي نستطيع العطاء غدا .

هؤلاء هم الثوريون الحقيقيون في عالمنا العربي . عنوان ثورتهم : كل ما يقف عائقا أمام اشتراكنا في تجارب الانسانية كلها ، أمام وحدتنا مع الحياة الانسانية، أمام دخولنا التاريخ الانساني ، أمام مواكبتنا سائر الشعوب في العلم والادب والفن ، أمام جهادنا الانساني المشترك في سبيل تحقيق حياة أفضل - كل ما يعيقنا عن الصيرورة واحدا مع العالم ، هو ليس من تراثنا الحقيقي الاصيل في شيء .

قد يكون في عرض هذه الصعوبة على هذا النحو شيء من المبالغة بل من التشاؤم . فنحن اليوم نتصل بالفعل وننفتح . المكتبة العربية تزداد مع الايام تضخما بالكتب المترجمة . الاخذ والعطاء قائم بيننا وبين سائر العالم . الانظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في عالمناالعربيمستمدة من خبرة الانسان عامة وحاجتنا نحن على وجه الخصوص . العلم والتكتيك يغزوان حكوماتنا معاهدنا ، بل عقولنا . من ينزل في عالمنا العربي ، يدهشه التقدم الحضاري الذي أحرزناه في مدى سنوات .

صحيح انما النقل شيء والخلق شيء آخر . ما لم ينبع الماء من أعماق أرضنا ، عبثا نأمن ويلات القحط والجوع . علينا ان نفض السر بعقولنا لا بعقول سوانا . علينا ان نتواضع وان نتضع لكي نتعلم ونعرف . علينا أن نكون لكي يتاح لنا ، في نهاية الامر ان نصير .

من شرفة التراث الحضاري كله ، منذ قلقامش وهوميروس وطاليس وسوفوكليس حتى فولكنر وسان جون بيرس وهيديجر ، يجب ان نصنع أدبا . ومن شرفته يجب ان يطالعنا القارىء العربي ويقيمنا الناقد العربي . شكسبير ، كأبي نواس ، لنا ومنا ، بقدر ما هو للانكليز ومنهم ، بقدر ما هو للفرنسيين ومنهم ، بقدر ما هو ، حملة ، للتراث الانساني وفنه . في ذلك نحن شركاء لا فضل لواحدنا على الآخر الا بالعطاء المبدع الخلاق .

- ٤ -

بقي ان أذكر صعوبة آنية ، وان لم تكن جديدة ، تعيقنا ، نحن الادباء العرب ، عن اداء رسالتنا على الوجه الاكمل . هذه الصعوبة هي الطغيان السياسي في بعض مجتمعاتنا العربية .

أعود الى تعشقنا الافكار الكبيرة . من أجل هذا العشق ، يسهل علينا التضحية بكل شيء ، حتى بحريتنا ، بانسانيتنا . الفكرة الكبيرة التي تستحوذ علينا

اليوم هي فكرة القومية وما تعده من بناء مجتمع واحد كبير تسود فيه العدالة وتتوفر عناصر القوة والكرامة والتقدم • لا بأس ، الفكرة جميلة ، وعسى ان تتحقق • انما كيف ، وعلى حساب ماذا ؟

هذا هو السؤال الاول والاخير الذي يجابهه الادباء العرب الحقيقيون اليوم • انه شبيه بالسؤال الذي جابهه ويجابهه جميع أدباء المجتمعات الساعية الى النهوض السريع بتطبيق فكرة مثالية تحولت الى عقيدة شاملة مغلقة لا تقبل الجدل والنقاش •

كيف ، وعلى حساب ماذا ؟

بالضبط والارهاب ؟ كلا ، بسلب الحريات الشخصية ؟ كلا • بخنق حرية الفكر ؟ كلا ، والف لا •

اننا نرفض أي عذر أو مبرر ، نرفض ان نسجن نحن اليوم وعلى أمل ان يطلق سراح أولادنا غدا • حياتنا أعطيت لنا نحن ، ونريد ان نحياها نحن ، لا ان يحياها أولادنا عنا • وكما ان لا أحدا يموت عن أحد ، كذلك لا يحيا أحد عن أحد • لكل حياته وموته • ولكل جزاؤه عن نفسه هو لا عن سواه ، عند ربه في اليوم الاخير •

الطغيان السياسي ، من أجل تحقيق غاية مثلى ، وسيلة عتيقة حان لها ان تبلى ، الانسان الحر وحده يحقق كل غاية ، بعبوديته لا يتحقق شيء • الانسان ، في كمال حريته وكرامته هو قبل أي غاية ، من له أذنان للسمع فليسمع •

اذا كان ما نهدف الى بلوغه حق ، ونؤمن انه حق ، لا حاجة بنا قط الى ان نتوسل الى بلوغه غير وسيلة عتيقة حان لها ان تبلى • الانسان الحر وحده يحقق في النفوس ، وبما يقيم من موازين الفكر والسلوك ، ليس بالوسية الحق • الوسيلة الحق هي احترام حرية الرأي ، وافساح المجال للنقد والجدل والنقاش ، واعتبار ان لا شيء ، مهما يكن ، محرم على العقل •

- ٥ -

بمثل هذه الصعوبات نقف نحن الادباء العرب في العالم الحديث • وهي صعوبات لا يحسدنا عليها أحد • لكننا سنقهرها مع الايام • فلنا من مآثرنا في التاريخ الانساني ما يشدد عزمنا ويجدد فينا الايمان بقدرة الاجيال الادبية العربية الصاعدة على اداء قسطها نحو أدبها ونحو أدب الانسان •

اموت فلا تبكي علي قصيدة
ولا عابر في الدرب يسأل عن قبري

تعاليت عن دهري وقومي سجية
كما شمخت شم الجبال وما تدري

وصفي قرنفلي

البحتري

شعر: معلّى الصارم

لا تسلني .. أمجاد قومي وشعبي فوق ما تطمح النفوس لكسب
لا تسلني .. غاياتنا معجزات الد هر لانت بكف مئناف صعب
البطولات : همة واعتزاما ويمينا تطغى بقائم عضب
ولسانا بيانه متع السحر تمشى بكل سمع ولب -
صرخة يملأ الوجود صداها ضمت الخافقين شرقا لغرب
كلما مر للعروبة ركب يتمادى تلته أعلام ركب
سائر . رنة الحديد مزيج بصهيل المطهمات القب
نغمات توحي له المعجز الاكبر بالفتح يوم طعن وضرب
تلك أمجاد أمتي وأسأل الدهر فيعطي عنها البيان وينبي
فاتح حوط الثغور وألقى في قلوب الاعداء أمواج رعب
طاف من فوق سابح عربي يتخطى المدى بقفز ووثب
أشرقت في جبينه غرة كالنجم توحي بأي نصر وغلب

خل هذا .. فالسيف والفارس المعلم صنوان . يؤخذان بغضب
وتحدث عن شاعر تنقل الايا م أنباء وحيه في الكتب
مر في منبج لنسأل عنه يرشد العطر للمكان الخصب
دفنته الاقدار كنزا كريما وكنوز الدنيا دفائن ترب
وأصخ تسمع الزمان حديثا مستفيضا يتلى بلحن عذب
بأبي يا أباعبادة عهد كنت من مجده مكان القطب
عنفوان الشباب ، روض من اللذا ت يندى بأمنيات وحب
وهوى يرتمي على مرشف عذ ب تروق اللمى عليه وتصبي
رخت تبغيه في متاهات آما لك هما وحرقة في القلب
يوم قامت تهز قلبك للحب فتاة تهفو لضحك ولعب
فتململت .. والحياة بعيني عاشق بسمة ورفة هدب

غادة من ظباء (بطياس) ضلت نسبا لايمتها مجهولا
قلدت جفنها صوارم للفتك لتحمي في ثغرها السلسبيلا
ومشت ، والدلال يهصر منها أهيفا جائل الوشاح نحيلا
نزلت من أبي عبادة عقلا واستقرت منه فؤادا نبيلا
لا يضير الحسان غبن انتساب خلق الظبي في الفلاة كحيلا
لا يضير الحسان أن أباها لم تعود يمينه التقبيلا
فالجمال الفريد أنى تجلى أوجد المنتمي له والقبيلا

ربما زور الجمال نساء   ونساء تعطي الجمال أصيلا
خدع الحسن ربة الحسن حتى   عز أن تصطفي (الوليد) خليلا
وتجنت على فؤاد كبير   وسع الكائنات عرضا وطولا
تلك عاداتهن ، وعدا واخلا   فا ٠ طباعا ألفنها وميولا
كم فتى في رحابهن تقضى   وفتى عاش عمره مخذولا
ما على (علوة) الجمال اذا ما   منحت نائلا فداوت عليلا ؟!

علو بعض الدلال ٠٠ ان فتى قحطا   ن يبغي الى الخلود سبيلا
من (حبيب) العلى استقى علل الابد   اع واستصحب البيان الجليلا
ومشى في الرحاب ينشد آما   لا كبارا بها ٠٠ وظلا ظليلا
فعلى كل تربة مر ٠٠ فيها   ينبت الورد مشرأبا خضيلا
سوف تمضي الدهور عهدا فعهدا   وتمر الحياة جيلا فجيلا
وعلى قمة الخلود (وليد)   يتحدى الزمان ألا يزولا
ما له غير منطق أوسع الاشيا   ء وصفا ودقة وشمولا
لم تزل (بركة الخليفة) في الاذها   ن تنساب صورة وهيولى
صاغها البحتري أعظم اتقا   نا وأضفى على البناء ذيولا
حسبه سؤددا بتاركه الدنيا   وأصلا ومنبتا ومقيلا

ما على البحتري أن يتباهى   بصريح يسمو لاعظم جد
غرس النبعة الكريمة واستبقى بأفيائها أشعة رشد
يمني الديار ٠٠ تطلعه منبج في المكرمات كوكب سعد
شاعر تعلق النفوس قوافيه كما تعلق القلوب بوجد
فنسيب يكاد من رقة الر   وح اذا لامس الخواطر يعدي
كلما هزه الخيال لوصف   جاء يهوي من القوافي بجند
يتزاحمن ٠٠ أي هفهافة يو   لي شذاها ؟ وأي نجلاء يبدي
لا يزال (الايوان) أغنية الاجيال   عبر التاريخ في كل عهد
روضة جاءها النعيم بماء الخلد   تفتر عن أقاح وورد
هي أفكار شاعر عربي   عاش عهدي حضارة وتبدي
واستبدت به الخطوب فأدمت   كبرياء الفتى يد المستبد
فهو حلف الاسفار يخطفه الغو   ر ليلقيه في مشارف نجد
يستحث الركاب في طلب الرز   ق ليحظى ببلغة من رفد

يالجور الايام أن تحمل البيداء   في صدرها بناة المجد
وتضم القصور غربان شؤم   أنزلوا الحر في مكان العبد
يتحدون - يا لذل الليالي -   أعبيد زعانف وتحدي ؟!
هتف الدهر أن للمجد قوما   يتهادون تحت أشرف بند
يالجور الايام أن يظمأ الشا   عر يوما ودجلة خير ورد
طيء تزدري فتاها وتبقي   للحثالات كل عيش رغد
انما المهرجان مضمار سبق   والمجلي مقحام اشقر نهد
ما وراء الاجيال الا لامثا   ل (وليد) مكانة في الخلد

الرواية والقصة القصيرة والمسرحية ودورها في المجتمع العربي

بقلم : جبرا ابراهيم جبرا

لم يعرف العالم العربي يوما مثل هذا العدد الكبير من الكتاب ، وان يكن الكثيرون منهم كتابا لا وجه لهم • وأغلب الظن ان ما يكتب اليوم من شعر ونثر يزيد عما كان يكتب في أي فترة من فترات التاريخ العربي • ولئن يكن المستوى في بعض الحالات رفيعا ، خليقا بأمة ناهضة ، فانه يكاد يكون معدوما في معظم الحالات • فبين قطب البلاغة الكلاسيكية التي ما زالت عزيزة على المتمسكين بالاسلوب « القديم » ، وقطب الهذر السقيم الذي لا يخلو منه أي عصر ، نجد الجزء الاكبر مما يكتب بالعربية اليوم ، مراهقا ، تافها ، لا عضل له ولا عصب • ولئن تتواتر أحيانا أسماء الروائيين ، فان المتمعن في مطولاتهم ليدهش حين يراهم ينتسبون خيالا وهدفا الى كل ما هو سوقي ومبتذل في مطولات المجلات القصصية المصورة في الغرب ، حيث يتقاسم الابطال الفضيلة والرذيلة على السواء ، وينتهجون الطريق الى الاولى عن طريق الثانية • لقد ظهرت في السنوات على السواء ، وينتهجون الطريق الى الاولى عن طريق الثانية • لقد ظهرت في السنوات الاخيرة روايات كثيرة يبدو أن مؤلفيها يبتدعونها بسرعة وتداعي احلام النهار • ففي رد الفعل الهائل الذي طرأ على الصحافة بعد شيخوخة الرعيل الاول من كبار الكتاب او موتهم ، تمثلت الرغبة في مجاراة روح العصر في الاف الصفحات التي راحت المطابع تقذفها حاملة أدب التسلية ، أدب التمويه على الحياة ودواخل النفس ، ارضاء لجماهير القراء من انصاف الاميين الذين تعاظم عددهم في الاقطار العربية بانتشار التعليم • ولست أريد أن أعدد اسماء مثل هؤلاء « الروائيين » : فهم يقرأون على نطاق واسع ، ولهم ، بين النساء على الاخص ، معجبون يلتهمون حلوياتهم السخية • ولكنني لا أتردد في القول بأن هذه الروايات عديدة ، طويلة ، مخدرة ، لها من صلابة الفكر والخيال ما للسلام من صلابة ، ولها من العلاقة بالمجتمع ما للمريخ به من علاقة •

قبل ثلاث سنوات كتبت آنسة لبنانية ، هي ليلى البعلبكي ، رواية طويلة ، متقطعة ، متناثرة الاجزاء ، عنوانها « انا احيا » • وقد لاقت هذه الرواية رواجا كبيرا ، ووضعت مؤلفتها الشابة تحت أضواء ساطعة من الصحافة واستطلاع الجماهير : ذلك لان بطلة الرواية الصبية لها من الجرأة أن تقول بصراحة انها تريد أن تحيا وأن تحب في عالم ينهشه الحقد وتقطع أوصاله السياسة • كانت المؤلفة في التاسعة عشرة من عمرها عندما كتبت قصتها هذه سرا ، مخفية الامر عن والديها • وجاءت القصة غضة ، عفوية ، فيها غنائية لفظية رائعة تدنيها من غنائية الشعر ، وتعوض عن التجزؤ الظاهر في حركة الرواية وخطتها • ولو اختصرتها المؤلفة الى نصفها او ثلثيها لقلت انها حققت ، بضربة واحدة ، ما لم تحققه معظم اقلام الذين سبقوها الى الفن الروائي في لبنان • غير ان المهم هو انها استطاعت ان تتخطى الحذلقة ، وتتخطى المواقف المفتعلة ، وتتخطى الخوف من اللغة او عليها ، وان تكتب رواية اشد نضجا ـ تقنية ومحتوى ـ من روايات « الدكاترة » و « الاساتذة » • لقد استطاعت ان تفلح عن حاجة حقيقية ببراءة لم يفسدها التهويل وادعاء التفلسف •

في هذا كله أرى حقيقة رمزية ، تتضح في ما فعلته الآنسة ليلى بعلبكي في روايتها الثانية «الآلهة الممسوخة» . لقد قامت قائمة البعض على رواية تكتبها فتاة فتوقف النفس دهشة في حلوق القراء ، فلما صدرت « الآلهة الممسوخة » جاؤها بقسوة وفظاظة . وهذه الرواية من حيث الشكل أفضل من سابقتها بكثير : فان لها مخططا صارما ، والفعل فيها مسير ببراعة وتيقظ . غير أنها أقل نضارة وغنى وحيوية عن سابقتها ، وتوترها العاطفي الذي تحققه المؤلفة باستخدام لغة مشحونة وكنايات ممركزة اليمة ، انما هو توتر مضطرب . والغريب ان النقاد المغضبين هاجموا ما هو في رأيي أجمل ما في الكتاب : لغته وأسلوبه . في حين ان خطا التكوين فيه هو في الاساس منه : الموضوع . فالفتاة التي يأخذها أستاذ متزوج الى احدى علب الليل المعتمة قد تعد هذا حادثا أشبه بطامات التاريخ الكبرى او وقائعه الحاسمة غير ان القارىء لن يرى فيه ، مهما تهيأ للتعاطف مع الصبية المسكينة ، حادثا يتحمل لغة الطامات والوقائع . وهنا منشأ اضطراب القصة وخيبتنا فيها .

هنا اذن النقص الاكبر في الرواية العربية المعاصرة: خلوها من « الموضوع الكبير » . والموضوع الكبير ، في كل فن متكامل ، هو في النهاية موضوع ما ساوى . انه الموضوع المنبثق عن حس الانسان مأساوي بالحياة . لعل آداب الغرب ، من مآسي ايسخلس الى روايات وليم فوكنر ، هي التي توحي لنا بمثل هذا الرأي . ولكن ، هل تستطيع الرواية العربية الا ان تكون استمرارا للرواية الاوروبية ؟ بل ان الفن الروائي الذي نعرفه اليوم هو فن اوروبي . قد تكون له جذور في « الف ليلة وليلة » ، كما قد تكون له جذور في التوراة والاناجيل ، ولكن تطوره من روايات الرومانس ، (ولهذه ايضا جذور في القصة العربية القديمة ، ولا ريب) الى روايات دوستويفسكي وجيمز جويس وفوكنر انما هو تطور في خط واحد هو خط المأساة . والمأساة هنا هي المأساة التي عرفها ارسطو : انها تصوير للفرد وهو يجابه القوى الكبرى ، مهما لبست هذه القوى من أقنعة . انها تصوير للشخصية الانسانية ضمن اطار الحدث . والحدث وسيلة لتحديد معنى المجابهة والسمو الانساني والموت عن اختيار ، لا عن صدفة . في روايات الرومانس ، يخرج الفارس الى متاهات الحياة ليحارب الشر دفاعا عن الفضيلة . وخروجه هذا انما هو بحث ومخاطرة ومجابهة ، تعين في النهاية شخصيته . وحين تطورت الرواية ، أصبح البحث لا في الغابات والجبال والاصقاع النائية ، بل في متاهات المجتمع ، متاهات المدنية . وفي عصرنا هذا تحول البحث الى متاهة هي رمز للمتاهات الاخرى : متاهة النفس والدماغ والوعي واللاوعي . وفي هذا البحث دائما مجابهة تتحقق على شفا المأساة .

من هذا كله لا أرى أثرا يذكر في روايتنا العربية المعاصرة . فالرواية لدينا ما زالت لا تؤخذ مأخذ الجد من الروائي ، وما زال طابعها الاوضح طابع اللعبة والتسلية . وكثيرا ما يعتبر القاص لدينا « ناجحا » اذا استطاع تحقيق هذه التسلية على نحو اولي يتجنب تعقيد التقنية التي هي العامل الكبير في بناء الرواية المثلى .

وهنا ايضا نجد ان الرواية الاوروبية تنمو وتتجدد بنمو وتجدد المحاولات الاسلوبية . ففي كل رواية عظيمة يتناول الفنان اللغة كمادة رخصة حية ويسعى في تطويعها لادراكه الحياة وحسه بها . الالفاظ ، الجمل ، زاوية النظر ، الحوار ، المونولوغ الداخلي ، كلها وسائل تقنية لتحقيق الاسلوب الذي يدرك الروائي به هدفه . ومن هذا كله لا أرى في روايتنا الا القليل النادر . ولعل « زقاق المدق » لنجيب محفوظ ، و « يوميات نائب في الارياف » لتوفيق الحكيم هما الروايتان الوحيدتان اللتان تدلان على وعي بعض هذه الامور : مما يجعلهما من أفضل ما انتج الادب الروائي العربي المعاصر .

ان فترتنا الراهنة ، في العالم العربي ، فترة دينامية . لم يتململ ويتطلع العرب منذ حوالي الف

سنة كما يتململون الآن ويتطلعون • وقد انتقلوا في ربع قرن من الزمان من سكونية سادرة الى حركة نشيطة هادرة • غير اننا يجب ان نعترف أيضا ان هذه الفترة ، روحيا ، فترة مقلقة ، مضطربة التوازن • ولعل المفكر في كل عصر من عصور النمو الاقتصادي ، غريب صعب الاندماج • وحيثما ينتعش التاجر ورب العمل ، قد ينتعش صاحب الفندق ومغني الملهى ، ولكن قد لا ينتعش المفكر بالضرورة • وفترتنا هذه ، من الناحية السياسية ، فترة دينامية قلقة أيضا • تكاثر وتوالد في الاحزاب ، سرا وجهرا ، دون ان يتمتع أي منها بقوة او سلطة • والسلطة أصبحت أميل الى ان تكون ميزة الافراد لا ميزة المؤسسات المنظمة • وبقدر ما تستثني الاحزاب بعضهما بعضا ، هكذا يستثني الافراد بعضهم بعضا ، ويتهم بعضهم بعضا • والتهم عنيفة ، لا هوادة فيها ولا تسامح ، ولا تقل عن أقصى ما يمكن لانسان ان يتهم به أخاه وابن عمه • والمنتهيات التي يتشبث بها الافراد والمنظمات ، هي آفة الفكر : انها محاولة الكبت ومنع الرؤية وفرض الصمت • والجماهير قد تتأرجح بفعل هذه العملية يمنة ويسرة ، ولكن اذا انغمر الكتاب والفنانون المبدعون في هذه الكتلة المتأرجحة ، فقد تنازلوا عن حقهم في الرأي وواجبهم تجاه المجتمع ، وأصبح « ابداعهم » ترديدا ودعوة ، لا فتحا للرؤى وانطلاقا نحو الاسمى من غايات الانسان •

غير ان الرواية العربية حتى الآن لم تتأثر بهذه الدينامية ، وهذا التأرجح والفوران ، فهي لا تعطينا رؤية خاصة لوضع اجتماعي خصب كان يجب أن يثير القاص ويلهمه • فهي اذن ، كما أراها ، قد قصرت على الصعيد الفردي كما قصرت على الصعيد الجماعي • لست أعرف رواية تتصل جذورا وفروعا ، رمزا وتجسيدا ، بالتجربة الكيانية الضخمة التي نمر بها اليوم • لقد حاول أحد الروائيين الشباب ذلك في رواية صدرت في العام الماضي (هي « جيل القدر ») ، فاراد أن يقيم فيها جسرا بين خضم من الافكار السياسية المسبقة المعروفة وبين حياة اشخاص يحاولون التوفيق بين النضال السياسي والحرية الجنسية والوجودية – غير ان الاخيرة كانت أقرب بمفهومها الى مفهوم هوليود المموه المفصول عن جذور الامكان والواقع • وكانت النتيجة ركاما غير متماسك يعتمد المبالغات الملودرامية والنص المباشر ، فلم يفلح في عكس حياة العنف والتوق والخوف والتغير التي نحياها الآن • الا أن محاولة المؤلف كانت في مكانها ، ولاريب• وان أخفق ثانيا او ثالثا •

اذا كان للرواية ان تنبثق عن تجربة الفرد والجماعة ، من ناحية ، وان تفعل فعلا ديناميا في حياة الفرد والجماعة من ناحية أخرى ، فلا بد لها ، فيما أرى ، ان تنشط كعمل فني على مستويين اثنين هما :

أولا ، مستوى الواقع (الفن « مرآة المجتمع » ، الخ) •

ثانيا ، مستوى الاسطورة •

والمستوى الثاني في غاية الخطورة ، ولا يتحقق بيسر • بل ان المستوى الاول ، حيث يحاول الروائي اعادة خلق الواقع في شكل متنام متكامل ، لا يتحقق بنجاح نفسيا ، وثقافيا ، وحضاريا ، الا بتحقيق المستوى الاسطوري • والمشكلة هي ان المستوى لا يمكن ايجاده لمجرد القصد والتصميم • وميزة الفنان الكبير هي ان هذا المستوى يتحقق بين يديه على نحو يقارب العفوي ، وهذا المستوى الاسطوري يعطي الرواية نفاذها وقدرتها على الفعل الدائم في النفس وفي المجتمع •

وهذا يؤدي بنا الى القصة القصيرة في الادب العربي المعاصر • فالظاهرة التي لا مرية فيها هي ان كتاب القصة القصيرة كانوا حتى الآن اكثر توفيقا في تصوير الفرد والمجتمع على أكثر من مستوى واحد ، كما كانوا أشد فعلا في تطوير الاساليب الادبية – وفي ذلك دليل على ما تركوه من أثر في المخيلة العربية ، جنبا الى جنب مع الشعراء • فاذا استثنينا أساتذة النقد الجامعيين الذين ينصب جل همهم على جلاء غوامض الادب الكلاسيكي ونشره بين الاجيال الطالعة أحياء

للتراث واغناء للغة الحديثة (وقد كان أثرهم في المجتمع العربي عميقا حتى عام ١٩٤٨ ، أي حتى نكبة العرب بفلسطين)، فان الذين تسحرهم امكانيات اللغة والأسلوب والتقنية املا في تطوير الادب وتوثيق الصلة بينه وبين النفس العربية الحديثة ، هم كتاب القصة القصيرة • ويخيل الي ان العرب الذين عرف عنهم عشق القصيدة منذ أقدم الازمان ، يجدون ان العبور عن القصيدة ، بطولها المحدود وموضوعها الواحد ، الى القصة القصيرة ، لمحدوديتها كذلك طولا وموضوعا ، أمر يسير قريب الى النفس • ليس يعني هذا ، بالطبع ، ان القصة القصيرة سهلة التأليف ، أو أن كل من حاول كتابتها أتى بشيء جديد او جميل • غير ان البارعين من كتاب القصة القصيرة اكثر عددا ، وأبعد نفوذا ، من الروائيين• ولئن يعد كتاب قصص التسلية بالعشرات - وهذا أمر لا بد منه كلما كثرت المجلات - فان بعض القصاصين يأخذون منهم مأخذ الجد والحرص ، ويدخلون عليه التجارب الاسلوبية ، ويحاولون به التغلغل الى الدواخل وخلق الشخصيات والاجواء •

وفي العراق كانت القصة اليسارية من أهم أشكال الادب وأعمقها فعلا في أنفس الشباب لسنين طويلة • وحسبنا ان نذكر قصص ذو النون ايوب ، التي رغم تخلخلها فنيا كانت مدرسة لجيل كامل من أدباء العراق المحدثين • وحين يقارن المرء بين قصصه وبين القصص التي كان يكتبها في الوقت نفسه قاص مصري مشهور كابراهيم المازني ، نجد التفارق الكبير بين اسلوبين اثنين : فابراهيم المازني غني بالالفاظ الجميلة والمواضعات الطريفة بينما ادار ذو النون ايوب ظهره الى مثل هذه الالفاظ والمواضعات ، واستوخى لغةبسيطةمباشرة الاداء ، ومواضعات اليمة تمتد جذورها في تجربة أهل العراق • وكانت النتيجة بعد فترة ما ، ان الذين تتلمذوا على المازني كانوا في الاغلب كتاب الصحافة والادب العابر ، بينما الذين تتلمذوا على ذو النون ايوب وجدوا قصة قوية الشكل عنيفة الصلة بالمجتمع ، فكان لهم اثرهم في الشباب من قصاصي مصر ولبنان وسوريا •

ولكن لا بد من القول هنا ان هذا الضرب الجديد من القصص ، الذي قد يصفه اليساريون بالواقعية الاجتماعية ، يعاني علة اساسية أخذت تتضخم مع اشتداد الحركات اليسارية في العالم العربي ، لا سيما لدى الشيوعيين منهم • فعلتها الكبرى هي انها تمثل تبسيطا مغاليا لقضايانا الحياتية • وهي تتوخى في معظم الاحيان ما اسميه الرؤية الى الاسفل من الاعلى • فابطالها « البلوريتاريون » يتكررون الى ما لا نهاية ، لا وجه لهم ولا فردية ، يعرضون علينا وجهةنظر كتاب«بورجوازيين» يعيشون البورجوازية ولكنهم مصممون على تسليط خيالهم على أبناء الريف وفقراء المدن ، وكأنهم يقاسون من مركب الجرم تجاههم • ولذا فان الذين يحاولون تقليد أقاصيص عبد الملك هورى الجميلة في العراق لا يأتون اليوم الا بشخصيات مكرورة ، مسطحة ، غير مقنعة ، هي في النهاية شخصيات تافهة • وكذلك الحال في قصص يوسف ادريس الموفقة ، في القطر المصري لقد استنفذت امثال هذه القصص قواها واجمل ما فيها ، ومن العسير ان نرى لها أثرا في كتابة ابداعية او رؤية خلاقة جديدة •

في لبنان حاول بعض القصاصين كسعيد تقي الدين وحليم بركات شيئا لعله أبعد عمقا وأعقد شكلا • ففي أقاصيص تقي الدين خيال دائم الاتقاد توجهه نظرة هي في صعود وهبوط مستمر بين مطاوي المجتمع العربي ، تتسم بحب جارف للحياة لا يستنكف عن السخرية لشدة ما فيه من عطف • اما بركات ففي اشخاصه من قلق الشباب العربي وشكه وتمرده اللاهادف ما يستطيع ان يعدونا بمشكلاتهم • وهناك قاص لبناني لم يعرف بعد على نطاق واسع ، هو توما الخوري ، نراه يقتحم حيوات الافراد - ولكن دون عنوة - ليرينا اياها من الداخل دونما استعلاء ، وضمن اشكال تعني بالجمالية كماتتشحن

بالسخرية والشفقة • وفي دمشق قصاص فذ ، هو ذكريا تامر ، يلعب بالتجربة لعبا سحريا ، ويحولها باسلوب قريب من السريالية الى ما يشبه الشعر المغنى - مع الكثير من الغضب والحزن • بينما نرى في القصص الاخيرة لسميرة عزام ، وهي فلسطينية تقيم في لبنان ، دنوها من منابع المأساة ، وتصويرها لبعض نواحي النكبة الفلسطينية تصويرا بارعا يتجنب التضخيم الكاذب ويحقق الحس بالالم •

غير أن أفقر انتاجنا المعاصر هو ، ولا ريب ، المسرحية • لقد كان في البلاد العربية في أواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن حركة مسرحية تعتمد في معظمها الترجمة والاقتباس • غير أن السينما قضت عليها قضاء مريعا ، لانها فيما يبدو ، لم تتغلغل في حياة المجتمع تغلغل الحاجة والغريزة ، كما هو الحال في الغرب • وانه لمما يبكي ان بلادنا ، فيما عدا القطر المصري ، تكاد تخلو من المسرح • ولكن حتى في مصر ، رغم استمرار الفرق التمثيلية من القرن الماضي ، ورغم توفر المسارح ، ورغم مساعدات الدولة - وان لم تكن حتى الآونة الاخيرة الا في مقادير زهيدة - لم ينشط الانتاج المسرحي على نحو يجعله جزءا هاما من الحركة الادبية المعاصرة • فمسرحيات أحمد شوقي وعزيز أباظة الشعرية ، على جمالها ، أقرب الى القصيدة الغنائية منها الى مسرحية الحركة والشخصية • والكثير من مسرحيات توفيق الحكيم ، على براعة حوارها ، لا يصلح للتمثيل باستثناء « أهل الكهف » و « شهر زاد » • والعديد من المسرحيات التي كتبت بوجه أخص في مصر ولبنان يفتقر الى موضوع الصراع المأساوي الذي قد يخلق فيها ابطالا يتذكرهم المجتمع فيريد رؤيتهم أكثر من مرة • والملودرامة التي تزعمها يوسف وهبي سنين طويلة باتت تجد لها منفذا في الافلام التي هي أصلح لها من خشبة المسرح •

وواقع الامر ان العراق ليس فيه حتى اليوم مسرح خاص بالتمثيل ، رغم وجود معهد للفنون الجميلة يدرس التمثيل • وكذلك الامر في الاردن ولبنان وفي سورية • انما تستأجر المسارح العامة - وهي قاعات تستخدم للاجتماعات الكبرى - لبضع ليال هنا وهناك لعرض بعض المسرحيات المترجمة او المسرحيات الموضوعة التي هي أقرب الى المهازل منها الى الكوميديا الحقيقية • والغريب ان هناك فرقا تمثيلية كثيرة ، تتألف من هواة يعشقون المسرح ، ولكن انعدام المخرجين البارعين ، عدا انعدام قاعات التمثيل المزودة بالاجهزة الحديثة ، يثبط الهمم ، وبالتالي لا يقبل المؤلفون على تأليف المسرحية الا فيما نـدر •

غير ان هناك بوادر تشير الى ان هذا الوضع في سبيله الى التصحيح • فقد انعش وجود التلفزيون في بغداد مثلا فرق التمثيل من جديد ، وجعل الكتاب يؤلفون بالعامية مسرحيات تتصل بحياة الشعب • وأخذت الحكومات العربية تولي هذا الامر اهتماما متزايدا ، فجعلنا نسمع عن مشاريع ثقافية تستهدف بناء المسارح وتخصيص المبالغ لفرق التمثيل • ولعلنا نرى في العشرين سنة القادمة مسرحا عربيا يحتل مكانا مرموقا من حياتنا الثقافية • وبقدر ما يسرت المجلات انتاجنا القصصي فزادت منه ، سييسر المسرح الانتاج المسرحي ، ويزيد منه ، ولذلك يجمل بنا ان نتمسك عن اعطاء الحكم على نوع هذا الانتاج حتى ذلك الحين •

بغداد - جبرا ابراهيم جبرا

فستان حرير ..



شعر

أحمد علي حسن



موجي .. فقد ضحك الحرير غداة جللك الحرير
هذا المطرز واسمه الفستان ، معشوق اثير
برز القوام به رشيق القد وانتشر العبير
وبدت به الامواج من زهر ومن عبق تمور
يلتف منسكبا عليك وحول ساقك يستدير
واذا خطوت يضج من طرب ويأخذه الغرور
قد كثفوه على الخصور لتستدق به الخصور
وبدت ثناياه منسقة ، تثير وتستثير
وعلى الجوانب من ثناياه تفتحت الزهور
هذا الحريري الصناعة كيف تعشقه البدور
من ذا رآك به ، وكلك فيه اشعاع ونور
موجي به ، فجميع هذا الحسن وهاج مثير
حسن تشع به الفتوة ، والشباب به يفور
ووراءه يتواثب الالهام ، او يثب الشعور
هو والحرير على النعومة ، قلت ايهما الحرير
طلي علي به ، فأنت .. أحب غانية وأحلى
وتخيري الغالي لاهيفك الممتع ، فهو أغلى
أنا ما دعا غزلي هواك الى القريض ، وقال : كلا
في وجهك الريان ، لا في افقه قمري تجلى
واذا الحرير على القوام انداح او شففا تدلى
وبما تصب به الانوثة قد تفرد واستقلا
سكر القريض ، فقال : يا مرحى بموحيتي واهلا
ورنا اليك فتى القريض يسابق النظرات عجلى
وكانما توحى هنالك عبقريته ، وتملى
دنيا الحرير ترف ضاحكة على شفتيك جذلى
وعلى مدى عينيك سلم خافقي هلعا وصلى
بحر غرقت به ، فهلا ضاق بالاشلاء هلا
من غير لابسة الحرير لتاجه ستكون أهلا
من غيرها اندى ومن أحلى به ، واخف ظلا
قل ياحرير ، اصادق انا في حديث هواك ، أم لا

آخر النداء

قصة بقلم : منور فوال



في كل مرة كان الحظ يخونه ، والخيبة تؤازره ..
اذن لم يسرع خطاه الى ساحة (باب السلام) ويبقى فيها وقوفا الساعات الطوال بانتظار من يسأله .. أأنت فاعل .. ؟

لقد وقف كثيرا بتلك الساحة لم يسأله عابر هذا السؤال .. لم ياترى .. أهو حشرة صغيرة لم تره العيون .. ؟

وتمهل في سيره ، وما لبث أن جثا الى الارض يلم باهتمام أعقاب السجاير المبعثرة في حواشي الطريق ، ثم اتخذ لنفسه مكانا بجوار (بركة) كريهة الرائحة غاصة بالاقذار ، وراح يفرط الاعقاب ، ويخلطها في علبة صغيرة كانت داخل سترته الممزقة ، ثم أخذ يلف على يده لفافة رفيعة اشعلها (فيما بعد) وراح ينفث دخانها الرمادي الى الفضاء .. وجلس .. جلس يسبح في متاهة مطلقة عكرت صفاء نفسه ، واحتشدت ذكرياته في فكره حتى كادت تحبس أنفاسه في صدره .. فضاق منها ، وأخذ يميل على الجنبين كمن يلتمس شيئا يطرد به تخيلاته .. اذ مل الخيال ، وكفر بالذكريات ، فقد عاش طوال شبابه فريسة هذا الجو الظالم .. واذا ما تذكر الآن شيئا فماذا يذكر غير أيامه السوداء التي الفتها حياته .. والمناديل الكثيرة التي ارتوت بدموعه .. والنجوم الساهرة التي راقبت كل مآسيه ، أكذا كل البشر .. ؟ لا يشربون الا من سيل الدموع ، ولا يقتاتون الا بكسرات خبز سمراء .. استغفر الله .. انها سوداء ..

وهاجت أفكاره .. وتنازعته المراحل الزمنية التي اجتازها في أيامه ، وحصى الليالي التي آوى بها الى فراشه ، والجوع ينهش بظلم أغوار جسده . ولمعت ذكرياته في رأسه ، ونفذت الى أرض واقعة كأنها تعيش حاضره بمثابة وقائع الساعة ، وهو ضعيف . ضعيف لا يملك ثمة قوة تبدد شعاع نوائبه . وراح يسائل ذاته . أمرارة الحياة (زعاف) يتذوقه المرء الصبور الى أن تحمله خشبة الموت الى قبره . أهو الموت على أقساط ككل شيء في هذه الحياة ..؟ وضرب بقدميه أحجار الرصيف ونهض ينقل خطواته الكليلة كالدجاجة المعلولة قاصدا دكان (رزوق) بائع أقراص « الفلافل » المبهرة التي تدور في المقلاة كالسمك في بحيرة . اذ أحس بالجوع ينقر جدران معدته الكافرة التي لا تبرر له الاعذار ان قصر في حقها ، فهي كالبئر عميقة ، عميقة لا تشبع ، تنقصها لذائذ المأكولات ، ولذا بدت (كعادتها) تصارع الجوع ، وتشتبك معه بمعركة حامية لا يفصلها الا الرغيف الاسمر وقرص الفلافل المبهر الذي كاد أن يفسد . ودنا الى الدكان وفي نفسه تعتمل أقذر الشتائم لهذا الكون الكبير الحقير ، ولهذا البشر الاعمى الذي

لا يرى • والاصم الذي لا يسمع أنات مريض فينقذه • ولا جائع فيطعمه بما أنزله الله من خيرات الى الدنيا ، أكل البشر يأكلون على حسابه ومن حقه ، وهو يأكل كسواه من الفقراء من حزنه ، ويشرب من دمه •• والجوع •• وتنهد بضيق ، الجوع كافر كفر الانسان بالقيم •

وقارب دكان (رزوق) فاستقبلته رائحة الفلافل الناضجة والسمسم المحروق فانتعشت معدته • وفاضت الرائحة الشهية في خياشيمه فسر • وبدت عروقه تشتد بعد تراخ ، ودلف كالسارق المتخفي الى الداخل ، وجلس فوق المقعد الطويل أمام المنضدة القذرة التي تبعثرت فوق صفحتها أذناب الفجل وقشور البصل ، ولتوه فض (صرة) كانت تحت أبطه وسحب قطعة خبز كان قد أخذها (صدقة) عن روح متوف جديد ، وما أن هم بقضم لقمة حتى جاءه (رزوق) بوجهه المجعد الذي بدا كمساحة أرض عفرة ركلتها أقدام المارة ، وحولت ظاهرها باطنها • وباطنها ظاهرها •• كانت كل اماراته لا تبشر بالخير ، اذ دلت تقاسيمه المكفهرة على أشياء ترهب « الناظر » اليها • عبوس مخيف • ودمدمة شبه مكبوتة • وشعره منبوش ، ودنا منه ويده تمتد بحدة الى (جيب) سرواله المهلهل القذر ، كانت كل حركاته غريبة لم يألفها (منصور) فيما قبل وهذا ما ادخل الذعر الى فرائصه ، فارتجف كشاة عصفت بجوانحها ريح البادية فاسلمت موازينها الى الهواء الطلق يعبث بها •• في حين أطرق (منصور) برأسه الى الارض كمن يخشى هبوط صاعقة ، وراح يقضم طرف الرغيف بشراهة ، وهو يختلس النظر الى رواد الدكان بطرف شبه مسبل • وما أن حدق بنظره جيدا ، حتى تراءى له (رزوق) بهامته (الماردية) يقف الى جانبه فنهض يرد تحيته ، بيد أن نبرات (رزوق) الجهورية كمدخنة القاطرة أقعدته • وردته عما يريد •

ـ وينك يا قليل الذوق • أنا بدي حسابي •

وغارت الدنيا (بمنصور) ومات جوابه على شفتيه ثم همهم بذل وخضوع •

ـ معك الحق يارزوق • كلها يومين وبعدين بدفعلك حسابك •

قال هذا ولم (صرته) وهم بالذهاب ، وما زال يلتهم الرغيف ، ويدفعه الى جوفه لقمة اثر أخرى •

خرج ، وعاد يتابع المسير • ويلف الشوارع كالطريد ، ودار في كل بقعة في المدنية ، ساحة السنانية ، سوق الخجا ، السنجقدار ، الزرابلية •• الى أن رماه الطواف في شارع الحجاز حيث جلس مسند الرأس الى جدار فندق (الشرق) وكان مكور الظهر ، دائب التعب ، يلهث أنفاسه كالمريض المتوجع •

كانت نظراته تتيه في الفضاء • وأخرى تذوب في أجسام المارة ، هذا لامع الحذاء ، وذاك أنيق الهندام ، وهو ؟ • ويروح يشتم الدنيا ، والناس ، والجماد ، وكاد لسانه يندلع بالكفر لولا أن صوتا ناداه من بعيد •

ـ وين ، يا أخ منصور ••؟

والتفت الى ورائه ، وبلع لعابه ، وأخذ يحملق في الشارع الطويل باحثا عن المنادي • وعن كثب بدا له (حمدي) صديقه يقبل عليه ضاحكا يسأله •

ـ أهلين يابو الفوارس شلون حالك أخي •

وعاند احساسه ، وضحك بفتور مرير قائلا :

ـ على أتعس الاحوال ياحمود (وهذا اسم الدلع)•

ـ خيرا • خيرا يا منصور •

وأطرق والحزن يهصر ابتسامته ثم انشأ متسائلا •

ـ وين الخير يا حمود والناس ما بترحم مغلوب ، سنة بكاملها لا شغلة ولا عملة ولا هم يحزنون •• سبعت الكارات كلها والله ياحمود •

وقاطعه (حمدي) مواسيا •

ـ ليش كلهاد مهموم ، تعال يا أخي واشتغل معنا (بالورشة) •

وسار الاثنان وهما يتابعان الحديث الى أن أفضى بهما المسير الى منعطف كان يقصده (حمدي) فوقف يودع (منصور) هامسا اليه •

- خلاص اتفقنا . بكره صباحا .

فأومأ (منصور) موافقا .

- على الله الاتكال ..

* * *

وصل (منصور) الى داره والفرحة على شدقية ، فذكرياته المؤلمة قد خبئت في صدره ، وخيل اليه انه ولد من جديد في دنيا فائضة بالاماني ، عامرة بالسعادة ، ألم تتبدد الآن ظلماته ، ألم تحن الساعة الحلوة التي تستقبله بها (عيوشة) توأم خياله ، حبيبته ، الخطيبة التي هجرته في محنته . سيعود الآن اليها ، رغم هجرها .. ويحمل اليها الحلويات ، والكلسات (النايلون) وزجاجة العطر التي وعدها بها ، وسيتزوجها مهما عارضت أمها .. لقد عذبته طويلا ، طويلا ، واليوم آن لها أن تنسيه أيام المحن .. الايام السوداء التي تكالبت عليه في حياته ظلما وعدوانا . وقطع مناجاته صوت جارته (أم عيوشة) يلعلع كالعواء تأمره أن يطفىء نور الكهرباء كيلا تسجل (الساعة) أرقاما خيالية تعجز أن تسد رسومها .

- شو هلسهر يا افندي ، معلوم ياروحي أنت بتشعل وأنا بدفع ..

وصاح ملء حنجرته كالمجنون .

- طولي بالك ياجارتنا ، فرجها الله .. فرجها الله .. بكره بدفعلك كل حسابك .

وقفز اليها .. الى حيث كانت تجلس في غرفتها ترقع ثيابا بالية ، وأخذ مكانه بجانبها ، واشعل لفافة تبغ ، وراح يسحب دخانها بلذة طروبة وكأنه بتلك السحب ينفث ما تبقى في أحشائه من لذع المرارة ، ثم أخذ رأسه بين راحتيه ، وغفى الهوينا في عالم كل ما فيه جميل .. جميل الى ما لا نهاية .. واستمر يعيش في عالمه الجديد ..

كان الصمت وحده هو الذي يسعده ، وسعادته أضحت متحفزة للوثوب الى أرضه ، تلك الارض الثملة التي نمت فيها كل مصائبه ، ولكم أراد أن ينتقل من حجرته الى أخرى تجلب له الحظ .. فان حجرته هذه ما ولجها مستأجر الا وكان بمتناول الفقر ، وهذا ما أسرته له أم عيوشة يوم عاد الى البيت والشؤم حليفه ، وأبواب العمل موصدة في وجهه . ترى ، أكانت تختلق هذا كي ينزح عن الغرفة (بسلام) بعد أن تراكمت عليه الاجرة ، أم أن هذا هو الواقع ..؟ تلك الوساوس المؤرقة ما كانت لتبرح ذهنه طوال الايام ، وكان صمودا أمامها ، يتصابر على أمره ، واليوم ما باله هكذا ؟ أليست الازمة قد ولت مع مآسيه ، ها ان السعادة تظهر في سمائه الساطعة . وشعر بالنوم يثقل أجفانه ، ويدب في أوصاله فنهض الى النافذة ، ورأى القمر يغيب وراء الضباب وكأنه ينذر الدنيا بالمطر فتأوه ، وتأوه بحسرة ، ثم التفت الى جارته العجوز وقال لها :

- لا تنسي يا جارتنا بكرة بدي أقوم بكير .

وضحكت العجوز .. ومصت شفتها السفلى كأنها تسأل نفسها ، - تيتي تيتي مثل ما رحت مثل ما جيت [1] كانت ضحكتها شبه ساخرة ، والا لم لم تجبه وتقول له (كالعادة) .

- سأدق الباب عليك .

ومرة أخرى قال لها :

- شو ياجارتي ما صدقت يللي قلتو

وأدارت العجوز يدها الى اليسار ، وتناولت(بكرة) الخيطان دون أن تنبث ببنت شفة ، في حين (منصور) ضاق منها ، وضاق جدا فلم يجد حيال أمرها ، الا أن يهمهم (تف - تف على هلبشر لو كنت غني كانوا صدقوني) ونهض عائدا الى حجرته ، وبينما كان يسير في (الدوار) لمح (عيوشة) تصعد السلم (وقبقابها) يحدث صوتا ، فتسمر مكانه ، وألقى عليها من الاعلى نظرات فرحة ، وخانه لسانه بالسكوت فانطلق من عقاله .

- مساء الخيرات والليرات يا عيوشة .

- . . . .

---

(١) مثل شعبي يردد بحالة الاخفاق في الهدف .

ـ ردي علي يا عيوشة •

والتفتت البنت الى الوراء فلم تر أمها تحدق بها ، انها منهمكة برقع الثياب ، فاطمئن قلبها ، وتزايد خفوقه وتثلجت أطرافها ، ثم همست وجلة :

ـ وأنت بخير يا منصور

ودلفت الى الغرفة ببطء كمن يجذبه جاذب الى الوراء •• وأحست بانشراح نفسها لتلك التحية المعسولة التي لم تسمعها منذ قالت لها أمها :

ـ النجوم أقربلك من منصور •

هكذا قالت أمها ، دفعة واحدة ، ودون أن تعدد بواعث الرفض كانت في نفسها لوعة كادت تقفز الى ثغرها ، وتلون شفتيها بخطوب أصفروهي تودع (منصور) في (الدوار) وهو يشد على يدها •

* * *

في صباح اليوم التالي كان الضباب الاسود يكسو جبين السماء والمطر يتهاطل ببطء ينذر بسيل من الغيث ، والشمس معتلة النور ، محتجبة وراء الضباب الكثيف ، هذا الذي عكر على (ام عيوشة) صباحها فراحت تكشر عن أنيابها بغيظ ، ثم اتجهت الى غرفة جارها (منصور) وأخذت تنقر بابها بيد غليظة ولسانها يرتفع بنداء اليقظة (الصباح رباح قوموا يا عباد الله ، الاعمال بركة ، والكسل نكبة) •

وتناهى الى (منصور) هذا الصوت الاجش ، فهب من رقاده كالزوبعة العاتية ، واسرع يغسل وجهه • ثم مشط شعره ، وخطف الارض كالثعبان الفارس رصاصة بندقية الى عمله •

وصل المكان المقصود ، ووقف أمام رهط كبير من الرجال الاقوياء وراح يحملق بهم بنظرات حادة ، هذا يحمل المعول ، وذلك ينحت الحجر ، وآخر يغربل الرمال بـ (منخل) كبير يفصل الرمل عن الحصى فسره ، هذا المنظر ، وافتر ثغره عن بسمة ذابلة ، ثم تقدم الى (حمدي) صديقه الذي دلف به الى (المكتب) حيث همس اليه :

ـ هذا أبسط أعمال البناء ، نحت الجدار الظاهر الى الشارع •

ثم أعطاه (ازميل) وأعقبه (بمطرقة) •

وصعد (منصور) الى أعلى « البناية » وأنفاسه تكاد تموت في صدره ، ثم وقف عن كثب يتساءل •• من أين أبدأ يا ترى ؟ أمن النافذة ، أم من الشرفة ، فهذا اللوح الخشبي العريض يتدلى بحبال الى منتصف الجدار والصعود اليه غير عسير ، لكن هذا وهم بالصعود •

وتساءل مرة أخرى • ـ ولكن ما هذا الضباب الاسود ••؟

وصعد بحذر الى الدف المعلق بالحبال الغليظة ، وحالماوقف جيدا تنفس بارتياح بالغ ، ثم تناول (الازميل) وبدأ عملية النحت ، هذه رؤوس الاحجار البارزة ، وتلك الحصاة متكتلة فوق بعضها بعضا •• وانهال بالمطرقة فوق رأس الازميل ، فاهتز الدف بقدميه • فذعر • ومالت نظراته المرتعشة الى الاسفل ، وتسلط عليه الخوف وهو الرجل القوي الذي صمد أمام كل عاصفة ـ أف ـ ما لهذه الحبال تنحل و • و •• وما كاد يجاذب نفسه الحديث ، حتى هوى الجدار الى الارض وكانت الفاجعة •

هرع العمال يصيحون عاليا ، وأخذ كل منهم يبحث عن الرفاق وأخيرا رفعوا الانقاض الهائلة التي ضمرت جسد (منصور) وهو يتوسد التراب ، بكى الجميع كارثتهم ، وحملوا الفقيد بأيدي الحنان والدموع تنسكب على الجثمان ، بحرقة ، وألف آهة تنطلق كالسهم الطائش الى عنان السماء الباكية التي أخذت تمطر بدموعها الغوالي ترثي شبابا نضيرا ، وزهرة غافية على أوراقها •

وسار الرجال الاقوياء وراء النعش الصغير الذي اخترق زحام المارة بصعوبة في طريقه الى المرقد الاخير مهد الابدية ••

ثمة شيء رآه الرجال خلف النعش •• فتاة شابة متشحة بالسواد •• كانت تبكي وتصيح بأعلى صوتها :

ـ لمن تركتني يا منصور •• لمن تركتني يا منصور ••؟

دمشق ـ منور فوال

النواسي الورع

قصة بقلم : سعيد قندقجي

ها أنا الآن أمام ديوان أبي نواس « الحسن بن هانيء » أقرأ فيه غزله وحبه وخمرته ومدحه وهجاءه وزهده وطروباته وما يحيط بذلك كله من ابداع في الوصف وخفة في الروح وشفافية في الطبع كأنه نسيج وحده بين الشعراء ممن سبقه أو لحقه ولست أدري لماذا أحببت أن أكتب عن أبي نواس وقد كتب عنه كثير ممن أدركتهم حرفة الادب وخاضوا غماره وألفوا في سيرته وتأريخ حياته وشعره كثيرامن الكتب والمؤلفات • والحقيقة أنني أحببت أبا نواس وكان وما زال شاعري المفضل أحفظ شعره وأردده في كثير من الاعجاب والتقدير لانه قريب الى النفس محبب يجد الانسان فيه متعة وطرافة ولذة ، ولا أقصد اللذة العابرة وانما أقصد اللذة الفنية والنشوة الجمالية التي يعيش في أجوائها كل من قرأ شعر هذا الانسان •

وآية الآمر أن أبا نواس كان صادقا في قوله مخلصا لفنه يعبر عما يجول في خاطره بصدق واخلاص لا يلف ولا يدور يحب الشراب ويعشق الجمال أيا كان في الغلام والفتاة ، في الكأس والزهر في الرياض والبساتين فيذكر لك هذا كله ، ويعبر بصراحة تامة عن هذا الحب وذلك العشق ولذلك تراه واقعيا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى يحدثك باسارير نفسه واختلاجات فؤاده وتمتمات شفاهه ولسان رغابه • دون خوف أو وجل ويسبغ على ذلك من روحه وعذوبة نفسه ودماثته ما يضيف الى واقعيته حيوية تبعث الدم في شعر وتجعله حياة تنطق وعالما يعج بالرؤى والاحاسيس والانفعال •

ومعنى ذلك أن أبا نواس تخلص من ازدواج الشخصية أو الذات الحرباء التي تتلون بتلون الظرف فهي أمام المجتمع نقية طاهرة ورعة بريئة كل البراءة وهي اذا خلت دنسة دنيئة تتهالك على اللذة وتنغمس في تعاطيها وتوغل في هذا التهالك والانغماس حتى تضيع الحدود وتختلط المعالم ويذهب الحابل بالنابل • نعم تخلص ابو نواس من هذه الذات المزدوجة وعاش صادقا في كل شيء في فنه وحياته وسكره وعربدته ومجونه وعبثه وانتقاده وزهده وتصوفه •

ولا ينكرن أحد علي قولي « زهده وتصوفه » لان أبا نواس كان حقا متصوفا في لذته وايمانه • وأقولها وأنا كاره لهذه الصورة ذات الوجه الواحد التي شاعت عن ابي نواس وانتشرت بين الناس واصبحت مجال تندر وابتسام صورة الانسان المهرج « الاراجوز » الذي يضحك الناس بفكاهاته والعابه وخفة يده ولسانه ، وأغلب الظن أن أسم أبي نواس أصبح على مر العصور رمز التهتك وعنوان الاباحية ولذلك كان يلحق به كل قول ماجن وكل شعر اباحي وكل فكاهة وهزل حتى وصل الينا مشوها ممسوخا ولعل القسط الاكبر من هذا التشويه والمسخ يعود الفضل فيه الى كتاب ألف ليلة وليلة الذي صوره أبشع تصوير وأقذعه •

ورجعة متطفلة الى ديوانه الحقيقي تضعنا أمام شخصية فريدة في نوعها شخصية تقيم للفن وزنا وللانطلاق والتمرد معنى يعبد الحرف والكلمة والايحاء والبوح ، ويعشق الحياة التي يصورها بكل ما فيها من تماوج وتقاذف وأخذ وعطاء واستجابة واباء وانغماس في اللذة واغراق في العبث والمجون ، وصحوة على تردد وتراجع وخوف من الله والعقاب وردع للنفس واعتكاف عن المعصية ووقوف في وجهها يصاولها ويطاولها حتى يقر قراره فاذا وصل الى هذا القدر من رحلته آب من حيث بدأ يجدد العهد ويعيد سيرته الاولى •

فاذا تركنا لـه غزلـه وخمرياته ومدحه وهجاءه ورثاءه وطردياته وكلها جديرة بالبحث حرية بالعنايـة وبـذل الجهد وصلنا الى زهـده ، وفي الديوان نفحات رائعة ونفثات جميلة تعبر عن القلق النفسي الذي يعيشه الشاعر والانفعال الروحي الذي يجعله فريسة التمرد العنيف أحيانـا والايمـان المطلق أحيانـا أخرى ، وهو في كـلا الحالتين صادق لانـه يعيش احساسـه وشعوره وينطلق من هذا الاحساس والشعور الى التمادي في اللذة والايغال في اسبابها حينا والى التفكير في عواقبها ونتائجها حينا آخر وهو متقلب حائر يصول مع صحبه ويجول ويقرع الكأس ويداعب ما تقع عليه عينه من غلام أو فتاة وقد تصرعه الشهوة فيأتي من الامر منكرا حتى اذا عاد الى نفسه ذكر الله والموت والعذاب فيستغفر الله ويتضرع اليه عسى أن يعفو عنه ويصفح عن اسائته ، وذاك يعمر الله ـ لحن البشرية الخالد الذي تضرب على وتره كل نفس وتتعمد بجرنه كل روح على الرغم من التفاوت بين النفوس والارواح والاختلاف في الحساسية والشفافية التي طبعت عليها جبلات البشر .

ولعل هذه الشفافية لا تصل الى ذروتها كما تصل في نفوس هؤلاء الشعراء الذين ترتعش في حدقاتهم مفاتن الحياة ومباهجها وصورها التي تحيك لهم عالما غير عالم الناس ودنيا غير دنياهم تتراقص فيها الرؤى وتتمايل في جنباتها الاحلام فاذا هم في جنة وارفة الظلال عرضها الكون وحدودها اللانهايـة يجدون في رحابهـا حقائق ذواتهم وهمسات وجودهم .

والذين يقرأون الخيام هذا الانسان الـذي عبد الخمرة واتخذها له تسبيحا وتلاوة يستطيعون أن يقضوا على هذا اللحن الصوفي الذي يتعلق بالخالق والغفران والعذاب والموت ، ويلمسوا تلك الدمدمة الروحية التي قد تعنف أحيانا فتهيمن على وجوده وتفكيره وتسيطر على شعوره واحساسه فاذا هو طفل بريء أمام القدرة القادرة والرهبة الآلهية يطلب الرحمة والعفو ويتضرع الى الله أن يهبه الغفران بل يجب أن يهبه الغفران لانه رب كبير وسعت رحمته كل شيء فاستمع اليه يقول :

اذا أنا لـم أذنب ولـم تك غافرا
فما الفرق مـا بيني وبينك يارب

وقد تلين أحيانا أخرى وترق حتى لا تظهر أمام الرغبة الجامحة ، والثورة العارمة فاذا هو متمرد لا يعترف الا بخمرته وكأسـه مذهبا ولا يقر بغير اللهو والعبث شرعة وسبيلا ، وهو أحيانا أخرى يتقلب بـين العنف واللين فتسير أيامه سيرا هينا رخاء .

فاذا أعدنا الى أبي نواس ، هذا الانسان الذي لم يدع منكرا الا أتاه ولا فجورا الا انغمس فيه ولا عبثا الا تعلق به ، رأيناه يقول :

ألـم ترني أبحت اللهـو نفسـي
ودينـي واعتكفت عـلى المعاصي
كأنـي لا أعـود الى معـاد
ولا أخشى هنالك مـن قصاص

فأين فجوره وأين عبثه ولهوه أمام هذه الاشراقة الروحية والنفثة الصادقة التي تمثل قلقه وخوفه ورهبته واستنكاره لما يأتيه وتمرده على واقعه الذي لا يجد سبيلا الى الخلاص منه الا بالاغراق فيه وتلك آيـة الضعف الارادي أمام الثورة الروحية والتوازن العقلي ، ومن هذه النقطة بالذات ينطلق الاحساس بالقلق وتبدأ معركة الانسان بينه وبين نفسه .

فاذا انتصرت عليه شهوته واجتمع صحبه وامتلأت الاقـداح وصفقت الكؤوس وغنى الوتـر ألفيته يتنكر ويتعالى ويحاول أن يبعد نفسـه عن كل سيطرة دينية وخوف وندم فيقول :

ما أبعد النسك من قلب تقسمه
قطـربل وقـرى بنى فكلواذا

وليس هذا القول في رأيي الا اغراقا في النسك لانـه كالصبي المراهق الـذي يحـاول أن يتخلص من سيطرة والده فيصرخ ويعربد ولكنه يعلم في قرارة ذاته

أنه غير موفق الى الخلاص ، ثم لماذا يحاول أن يبعد النسك عنه في كثير من قصائده لولا أنه يلح عليه ويمعن في تأنيبه وايقاظ ضميره ، ولذلك تراه في بعض قصائده يذعن لهذا الالحاح ، ويخفض جناحه ويستكين فاذا هو بعد ذلك محاسب نفسه نادم على ما فرط فانظر اليه يقص عليك قصة ليلة من لياليه وقد ذهب ورفاقه الى حانة من حانات المدينة يقضون فيها أمسيتهم فيقول :

وفتية كمصابيح الدجى غرر
شم الانوف من الصيد المصاليت

ثم يصف لك الحانة وروضتها وأزهارها وبلابلها وصاحبتها التي أخذت معهم في السؤال والجواب وخمرتها التي :

يديرها قمر في طيفه حور
كأنما اشتق منه سحر هاروت

حتى اذا نهلوا ما يستطيعون وشربوا ما يقدرون على شربه عاد صاحبنا الى ذاته ليقول :

فقد ندمت على ما كان من خطل
ومن اضاعة مكتوب المواقيت
أدعوك سبحانك اللهم فاعف كما
عفوت ياذا العلى عن صاحب الحوت

وهذا لعمري حصاد الحرب النفسية وحصيلة المعركة الداخلية التي يعانيها الشاعر في أعماقه ، وقد يود أن يجد حلا لهذه المشكلة ينجيه من عذاب أليم وألم مبرح فيفكر ويقدر ثم يفكر ويقدر وأخيرا يبدو له أنه وجد الحلقة المفقودة وعرف طريق النجاة فانظر اليه كيف يفلسف حله ويمنطق سبيل انقاذه اذ يقول :

وضع الزق جانبا
ومع الزق مصحفا
وأحس من ذا ثلاثة
واتل من ذاك أحرفا
خير هذا بشر ذا
فاذا الله قد عفا
فلقد فاز من محا
ذا بذا عنه واكتفى

أرأيت هذا السبيل الرقيق والحل الذي لا يصل اليه الا من ذاقت نفسه الهول والروع ولكنك اذا أعدت قراءة الابيات مرة ثانية تجد أنها مشوبة ببعض السخرية ولكنها سخرية مرة قد تعكس لك صورة من صور الحياة الاجتماعية والثقافية آنذاك صورة هذا الانسان الذي يعيش في دوامة النقاش والجدل وهينمة المعتزلة وفاعل الكبيرة والصغيرة وقصة الفوز والنجاة وحكاية العفو والمغفرة والحساب والعقاب كل ذلك كان يتفاعل في عقول الناس فبعضهم تأخذه الهداية فيتعظ وينقطع الى العبادة في زاوية من الزوايا وبعضهم الآخر يجد في الامر قيدا وسجنا وتحطيما لتفتح الانسان وانطلاقه واماتة للكائن في حياته فيخرج وهو كاره للدين منكر مبادئه ملحد بكل ما يمت اليه من قريب أو بعيد وفي بغداد وغير بغداد كل ما يحتاج اليه في خروجه من شراب ونساء وغلمان وغير ذلك من ضروب العبث واللهو واللذة ، وفريق ثالث يؤمن بالقيم السماوية ويعتصم بها ويشعر بقوتها في أعماقه ولكنه لا يريد أن يحرم نفسه مفاتن الدنيا ولذائذها بل لا يقوى على رد اغرائها فيتقلب بين هذا وذاك وفي تقلبه تجد الايمان العميق واللذة المفرطة ومن هذا الفريق شاعرنا أبو نواس الذي رأيت محاولته للنجاة من هذا التقلب والاضطراب .

ولعل هذه المعركة لا تظهر بوضوح كما تظهر في محاولته الحج ، هو يريد أن يحج البيت الحرام ، لان الحج فرض وهو في أعمق أغواره يقر بهذا الفرض ويعترف به ولكنه لا يريد أن يكون الحج قيدا يبعده عن صحبه ولهوه فيجد لهذا الحج سببا يبرر به ذهابه ويعلل به سفره فيقول :

حججت وقلت قد حجت جنان
فيجمعني واياها المسير

وجنان هذه محبوبته الوحيدة التي صفا لها قلبه

الحب والربيع

شعر : المحامي ابراهيم منصور

عطارة الحقل ، في أردانها عبق — أم ذاك طيبك ، والانسام ينطلق
قد صفق القلب لما استاف نفحتها — كما يصفق في حضن الصبا ورق
وخاصر الهدب طيف من مفاتنها — تأنق الطيف .. حتى قلت لا اثق ..
ورحت أمسح عن جفني خطوته — خوف الحنين الذي يخبو ويأتلق
قالوا : الغواية فيض في لواحظها — واستدركوا والهدى فيض وقد صدقوا
ياعينها ورؤى الفنان كم نصبت — سرادق السحر والاحلام تستبق
ناغيت أصداء روحي في محاجرها — فاحتار كيف يرى في أمرها السبق
هل في الربيع كجيد الغيد ناصعة — كيما أشبه .. فاسلم ايها العنق
الاقحوان ! ولكن بعضه صفر — وابيض الورد ! لكن شابه بهق
من ذا رأى العاج خجلانا يغلفه — جلد شفيف من الاضواء ينبثق
زوجان زينت الدنيا بسحرهما — فوها المدمى ، اخو النعمان ، والشفق
قد يذبل الثغر ان لم يرتشفه فمي — والورد يذبل ان لم يسقه ودق
أرجوحة الليل ، لا تغفو ذوائبها — وزورق الفجر ، ذاك الناهد النزق
مرحى لفيها ، لعينيها ، لخطوتها — فيها الربيع ، ومنها العطر والالق
شباب دنيا ، يرى لما أفارقها — كهل ، يسير الى اكفانه ، خرق

والمعروف عنه أنه لا يحب النساء كما يقول « وما حب الكواعب من أمري » ولكنه عندما يصل مكة ويعيش أجواءها ويهيم في عبق الهامها تجده يندفع بأعذب ترتيل سمعه الحجاج حتى يومنا هذا وما زال يرتل نغما مشرقا ولحنا صادقا ينهل من معينه أصفياء القلوب ويردده شفاه المؤمنين .

الهنا ما أعدلك
مليك كل من ملك
لبيك قد لبيت لك
لبيك ان الحمد لك
والملك لا شريك لك
ما خاب عبد سألك
انت له حيث سلك
لولاك يارب هلك

وتستمر هذه التلبية الخاشعة والمناجاة الرائعة حول الكعبة ويسير وراءه الحجاج يرددون ويهتفون وهو في غيبوبته الشعرية .

وما أظن بعد هذا أني بحاجة الى الاشادة بايمان ابي نواس فاذا أردت الافاضة ففي باب الزهد من ديوانه الكثير من هذا الشعر العذب وفي ثنايا قصائده اكثر واكثر فارجع اليه ، ويكفيك أبو العتاهية معاصره مؤونة الرجوع اذ يقول وقد ذكر زهد أبي نواس « وددت والله أن يكون شعري كله لابي نواس مقابل بيته :

فلو جرب الدنيا لبيب تكشفت
له عن عدو في ثياب صديق

وأبو العتاهية هو من هو في شعر الزهد وديوانه كعبة الزهاد والمتصوفين ، وأخيرا لا بد أن أذكر لك هذه النفثة اللاهبة والدفقة الروحية المشرقة في قوله :

يارب ان عظمت ذنوبي كثرة
فلقد علمت بأن عفوك أعظم
ان كان لا يرجوك الا محسن
فبمن يلوذ ويستجير المجرم
أدعوك رب كما أمرت تضرعا
فاذا رددت يدي فمن ذا يرحم
مالي اليك وسيلة الا الرجا
وجميل عفوك ثم اني مسلم

سعيد قندقجي

مهرجان البحتري

شعر : رشاد علي أديب

غن للمهرجان شعرا جديدا ... وصغ الدر حاليا ونضيدا
واتخذه قلائدا لتحلي ... شاعر الوصف والنسيب الوليدا
شاعر الحسن والطبيعة أسمى ... وأرق امرىء أجاد القصيدا
وأجد القوافي الغر سبكا ... كسموط ضمت جمانا فريدا
بخيال منمق وأنيق ... سامق للسماك يعلو صعودا
وبديباجة تشف وتزهو ... كشفوف الديباج راعت برودا
هي علق للبحتري نفيس ... قد تحلى به وحلى الوجودا
ما لديباجة تفنن فيها ... من مواز له يكون نديدا
شعره من سلاسل لامحات ... ذهبا صافيا يرف عقودا
رق لفظا وراق مبنى ومعنى ... وبأوزانه استقام عمودا
بذ فيه مهلهلا وجريرا ... وزيادا وجرولا ولبيدا
انه الشاعر الذي هز دنيا ... يعرب في الورى مدى وحدودا
وكساها مطارفا من قواف ... وحباها من الطريف المزيدا
وهو القائل المجود فيها ... خير بيتين يحليان نشيدا
نحن أبناء يعرب أعرب النا ... س لسانا وأنضر الناس عودا
وكأن الآله قال لنا في الـ ... حرب كونوا حجارة أو حديدا
انه الشاعر الذي فاض سحرا ... وبيانا مغردا تغريدا
قد تغنى بعلوة وهواها ... وأرق التشبيب والترديدا
وأذاع الاشعار فيها غناء ... خالبا للنهى بديعا جديدا
هو من منبج ومن قوم طي ... من شأوا نائلا وبأسا شديدا
وهي خود من الكواعب رود ... من مغاني الشهباء تحكي الورودا
أرشفته من الوصال كؤوسا ... وأرته في بعض حين صدودا
مليا نشوة الغرام مليا ... فاستحقا مدى الزمان الخلودا
غزل بارع يريك الغواني ... عارضات سوالفا وخدودا
ونحورا وضاءة وخصورا ... تتلوى بلينها وزنودا
يتبارين كالظباء رنوا ... والتفاتا وينثنين قدودا
ويرين الوجوه مثل بدور ... والصدور البيض الصغار نهودا
تتحلى منهن ما تشتهيه ... جسدا ناعما وثغرا برودا
وجفونا وطفا وطرفا وديعا ... وجبينا صلتا وجيدا مديدا
يا لشعر للبحتري جميل ... كان فيه محلقا ومجيدا
منه وصف مخلد يتجلى ... أبد الدهر بارعا ومجيدا
فيه تصوير بركة وقصور ... شامخات تزخرفت تشييدا
واطار زاه لايوان كسرى ... تجتليه العيون فخما مشيدا
وكأن الحياة تنبض فيه ... والتلاوين تزدهي تجديدا
وبحسن الطبيعة الفذ يبدو ... وصفه رائعا طريفا تليدا

زد نزالا للفتح والليث يوما ... ولقاء للذئب ليلا وحيدا
ان للوصف فتنة وجمالا ... بهما تسكر النفوس أبيدا
يا لشعر للبحتري بديع ... مفرح للقلوب يطوي البيدا
من مديح يحبو الملوك اعتلاء ... وازدهاء وينشر التمجيدا
ورثاء يستنزف العين دمعا ... ويثير الاسى ويدمي الكبودا
وعتاب حلو لطيف ظريف ... يعصر الخمر دانيا عنقودا
وافتخار يسمو ويعلو الثريا ... ويعز العرب الاباة الصيدا
فاق أستاذه حبيبا بشعر ... جيد السبك جانب التعقيدا
محكم النسج بالغ الاسر صاف ... وبليغ لم يحتذ التقليدا
قيل عنه قبلا وعن صاحبيه ... قول صدق وصادف التأييدا
ألحكيمان أحمد وحبيب ... وهو الشاعر المجيد قصيدا
قد زها مهرجان كل منهم ... في دمشق وخلدوا تخليدا
أيها الشاعر العظيم المجلي ... عشت عيشا منعما ورغيدا
وعشيرا لقادة وملوك ... وسراة أرضوك بذلا وجودا
وأفاضوا ودقا عليك العطايا ... وأضافوا اليك جاها عتيدا
وتبوأت في العراق مكانا ... لائقا اذ بلغت شأوا بعيدا
وتلقيت من كبار بني العب ... ـاس اعجابهم وحظا سعيدا
جعفر كان في البداية عونا ... لك أعظم به هماما حميدا
قصره الجعفري ضمك زهوا ... فتغنيت فيه شعرا سديدا
وخلعت الثناء أفواف وشي ... وحبير على المليك بديدا
ونثت أنمل الخليفة نعمى ... من لدنه فاضت عليك سعودا
وأجدت الرثاء فيه وفاء ... حين أودى قتلا وراح شهيدا
ولقد كنت حاضرا في رداه ... لم تطق عنه بالشبا أن تذودا
أيها الشاعر الكبير سلام ... لك منا يضوع ندا وعودا
هذه جلق العظيمة زفت ... مهرجانا اليك ماج حشودا
وفد الملهمون من كل قطر ... ليوفوك نعتك المحمودا
وليطروك ما استطاعوا سبيلا ... ألف أهلا بمن أتوك وفودا
ان تكريمك الحبيب لامر ... واجب تستطيبه الضاد عيدا
وجميل تكريم كل أديب ... عبقري يفوه درا نضيدا
غير بدع ان كرمتك دمشق ... وأقامت لك احتفالا فريدا
فهي في موطن العروبة قلب ... نابض يحفظ الفخار العهيدا
وهي في الارض جنة وظلال ... يتجلى بهاؤها مشهودا
كرمت نفسها دمشق بحق ... حين أدت تكريمك المنشودا
أيها المحتفون والعرب طرا ... بادروا للعلى وهبوا أسودا
واذكروا في الجزائر اليوم أهلا ... هم يعانون من فرنسا القيودا
فادعموهم وعاضدوهم عليها ... لينالوا من المنى المقصودا
ويحوزوا استقلالهم ويفوزوا ... بعد أن جاهدوا وجدوا جهودا
واذكروا أرضكم فلسطين واجلوا ... عن حماها المستعمرين اليهودا
انهم بؤرة الرذيلة فيها ... لم يبالوا التوراة والتلمودا
فاسحقوهم بشدة وامحقوهم ... واقذفوهم قذفا عنيفا مبيدا
وابلغوا الثأر منهم وأعيدوا ... لفلسطين أهلها والجنودا
واستعيدوا أمجاد قحطان قدما ... والفخار المؤثل المعهودا
واجعلوا الوحدة العظيمة رمزا ... لقواكم وابنوا النظام وطيدا

العبرة موجودة في الماضي فمن ارادها فهي له

بقلم : علي هاني مجبور

ـ ما كنت لاسرد أخبار أيام أغرقت في القدم ، وحوادث فنيت رمم أصحابها ، الا بقصد تقديم البرهان الدامغ ، والدليل القاطع ، للقاريء الذي يقارن معي بين الماضي والحاضر ، لنستخلص معا حقائق ثابتة ، ندفع بها مزاعم وأكاذيب المفترين ..

ـ واذا كان الهرم شيئا أثريا عظيما فهو في نفس الوقت رمز اكيد لتسلط حكام مصر الفرديين واستبدادهم المخيف . واذا كانت كنوز الفراعنة المعروضة في متاحف العالم تدل على الثراء الفاحش والبذخ المتناهي ، فما هي في الحقيقة الا مرآة تعكس خيرات الشعوب المنهوبة ، والتي شاء لها قدرها القاسي أن تعيش تحت رحمة حكام مصر الفرديين (وخصوصا شعبا مصر وسوريا) اللذين عانا من سوء هذا الحكم فترة استطالت على النفوس حتى جف رواؤها ، كابدت خلالها التسلط والاستبداد والظلم ، مجاهدة دفعه بكل الوسائل التي استطاعتها ، يدفعها الى ذلك حب الحرية ، ونور الامل بالخلاص يتراءى لها على حدود الافق ، بعيدا تارة وقريبا تارة أخرى .

ـ تعال معي أخي العربي نعود معا عبر العصور الغابرة نحييها ، ونحيا معها فترة في بطون ما تركته لنا من تاريخها وشواهدها وحوادث أيامها ، نشبع رغبة المعرفة وحب الاستطلاع في نفسينا ، ولعلنا نجد ما يهدينا الى تفسير صادق ، وحكم عادل ، لما نريد ، ولما يرد الينا الطمأنينة والامل ، ويحفظ لنا مثلنا القومية والوطنية ..

ـ ولندع النقوش والآثار المصرية والسورية وكتب التاريخ على اختلاف مذاهبها ، تروي لنا قصة العلاقات بين حكام مصر الفرديين والشعب السوري منذ بداية الالف الثالثة ق.م . نعم لنسمعها تقص علينا أخبارها . ولنكن على الحياد ، ولنكبت العواطف وندع الحكم للعقل وللعقل وحده .

ـ فمن أقدم النقوش التي يعود تاريخها الى اوائل الالف الثالثة ق.م أي في زمن السلالة الفرعونية السادسة ، والتي تشير الى علاقات حكام مصر مع الشعب السوري ، فقد جاء فيها ما يلي (« أوني » قائد الفرعون بيبي الاول الذي عاد بجيشه بسلام بعد أن حارب ساكني الرمال الآسيوية ـ ويقصد بها فلسطين وشمال سوريا ـ قد تقدم الى الشمال وقطع الكرم والتين وهدم الحصون) .. هذا نموذج يدلنا على مطامع حكام مصر الفرديين وهو من أقدم النماذج التي كشفت عنها الحفريات الأثرية .

وقد جاء في نقش ثان يعود تاريخه الى زمن الملكية الفرعونية المتوسطة ما بين ٢٠٠٠ ـ ١٧٥٠ ق.م وقد أشار الى انه كان لحكام مصر هؤلاء سيادة بصورة محدودة على فلسطين وقسم من سوريا بما فيها قطنه قرب حمص بالاضافة الى الساحل السوري . وهذا يدلنا على أن أقدم حكام مصر كانوا يوجهون حملاتهم العسكرية بقصد النهب والتدمير والحصول على كل ما يمكن الحصول عليه من ذهب وفضة وخيرات . ثم تطورت الغاية من هذه الحملات فأصبحت تبغي فرض نوع من الحماية والتسلط والسيادة . ومن بعد طرد الهكسوس من مصر وفي نهاية حكم الفرعون (احموس) بعد ١٧٥٠ ق.م . تبدأ سلسلة من الحملات العسكرية الفرعونية بقصد احتلال سوريا واستعمارها ، يقابلها

سلسلة من الثورات قام بها شعب سوريا وأمراؤها لدفع هذا الاحتلال وطرد المستعمر الدخيل دامت حتى عام ١١٠٠ ق٠م ٠ كان خلالها الصراع بين قوى الاستبداد وقوى الحرية على أشده ٠ ولم يستطع السوريون التخلص من كابوس فراعنة مصر الفرديين الا بعد ان قدموا سيلا من الضحايا والشهداء يتناسب مع حبهم وتعلقهم بالحرية والاستقلال ٠ واليك بعضا من مشاهد هذا النضال على سبيل الدليل التاريخي وصدق الحقيقة التي نرويها ٠٠

ففي عهد الفرعون تحوتمس الاول قام السوريون بثورة لاهبة للتخلص من السيطرة الفردية المصرية ولكن فرعون مصر جهز حملة عسكرية وعبر فلسطين وسوريا وتمكن من القضاء على ثورة السوريين وذبحهم وسماهم (العصاة) وفرض الجزية عليهم ٠ ثم أقام نصبا على الفرات لتمجيد انتصاراته ٠ ولكنه اضطر هو وخلفاؤه من بعده لتجديد الحملات على السوريين لتمرد هؤلاء على الذل ، ورفضهم دفع الجزية ، ودفع الاستبداد اللاحق بهم ٠

وفي أواخر القرن (١٦) ق٠م عمت ثورة السوريين كل بلادهم حتى وصلت حدود مصر فسار الفرعون تحوتمس الثاني بحملة الى سوريا لاجبار أهلها على الخضوع لبطشه وتعسفه ، ولكن التاريخ لم يذكر تفاصيل هذه الحملة ونتائجها ٠٠

– ولما تولى الوهية مصر وحكمها الفرعون تحوتمس الثالث ، اتحد امراء سوريا مع ملك قادش (مدينة على العاصي قرب حماة – حمص) ورفضوا الخضوع للفرعون الجديد ٠ فاضطر هذا ان يقوم بـ (١٧) حملة عسكرية لاخضاعهم لسلطته ، واجبارهم على تقديم فروض الولاء والعبادة لشخصه (باعتباره الها) ودفع الاموال الطائلة له في كل عام وكل مناسبة ٠٠ وليضمن استمرار حكمه على سوريا عين عددا من كبار ضباطه في المراكز الهامة ، وأنشأ قواعد بحرية أقام فيها الحاميات من فرقه وجنوده (فكان استعمارا للسوريين غليظا قاسيا مميتا) ٠ وتوج أعماله باقامة نصب تذكاري على الفرات قرب نصب سلفه ، تمجيدا لانتصاراته او بالاحرى مذابحه ٠٠

– وفي عهد الفرعون امنحوتب الثاني ، جدد السوريون نضالهم آملين الخلاص من نير استبداد حكام مصر الفرديين ، فحصلت معارك طاحنة بينهم وبين هذا الفرعون في (شمس أدوم) فلسطين) ثم على ضفاف العاصي وفي ضواحي حلب ٠ وقد اشتركت سوريا جيشا وامراء وشعبا في هذه الحرب حتى القبائل البدوية شاركت في قتال الجيش الفرعوني ، ولكن امنحوتب استطاع قمع الثورة اللاهبة بمنتهى الشدة والبطش كما هو معروف عن كل حاكم فرد متسلط ٠ وقد عاد الى مصر ومعه (٧) من كبار الامراء السوريين ضحاهم قرابينا للاله آمون في مدينة طيبه عاصمة ملكه شنقا أمام اسوارها ٠ وكذلك أجبر بقية الامراء الثائرين على حمل الجزية على ظهورهم وجرهم وراء مركباته الحربية مربوطين بالسلاسل حتى مدينة طيبه ٠ وقد رسمهم فنانو الطاغية على هذا الوضع كما رسموهم يزحفون وجباههم على الارض تحت أقدام فرعون الجبار ٠

– وفي عام ١٣٢٠ ق٠م تحالف امراء سوريا من جديد للتخلص من استبداد الفرعون سيتي الاول الذي استطاع ايضا ان يخمد ثورة الحرية ويتغلب عليها بجيوشه المتفوقة عددا وعدة ٠ وقد وجدت قطعة من نصب بين دمشق وحوران تمثل سيتي الاول يقدم البخور للآله آمون شكرا على انتصاره ٠

– ولما تولى الحكم رعمسيس الثاني ١٢٩٨ – ١٢٣٢ ق٠م ٠ تحالف أمراء سوريا مع امراء من الاناضول وبحر ايجه ٠ وحصلت معركة هائلة على ضفة العاصي قرب مدينة قادش فلم يستطع الفرعون في هذه المرة أن يحقق انتصارا كاملا وكاد في بدء المعركة ان يسحق تحت أقدام السوريين لولا أنجده أحد قواده بجيش جديد ٠ ولكنه على كل حال انسحب شبه مدحور فلم يستطع دخول مدينة قادش ولا الوصول الى الفرات

كاسلافه . فأتى بعده رعمسيس الثالث الذي جدد الهجوم على سوريا وتدل نقوشه على انه استطاع الوصول الى الفرات بعد جهود مضنية استنفذت كل قواه المادية والعسكرية ولكن نصره هذا كان بداية النهاية . رغم أنه أمر بضم القسم الجنوبي من فلسطين (غزة وتوابعها) والساحل السوري .. فقد قامت في مصر نفسها مؤامرات ومحاولات لاغتياله ، وهاجم الفلسطينيون الساحل واستخلصوه لانفسهم . لذلك ضعفت سلطة فرعون المستبدة وأخذ الانحلال يدب الى نظام الحكم الفرعوني الفردي البغيض ، وبدأ الامراء المصريون أنفسهم يثورون على هذا النظام ويعلنون استقلال مقاطعاتهم عن القصر الفرعوني . وفي نهاية حكم هذا الفرعون استطاعت سوريا المجاهدة ان تتخلص من كل نفوذ استبدادي لحكام مصر الطغاة .

ومن عام ١١٠٠ ق.م يوجد نقش يروي لنا القصة التالية :

حضر الى ميناء جبيل قائد مصري يدعى (ون آمون) ليأخذ خشبا منها ، ولكن أمير جبيل عامله معاملة خشنة وبعد استبقائه (١٩) يوما في الميناء سمح له بمقابلته وقال له « اني لست خادمك ولا خادم من أرسلك اذهب من مينائي » ولكن (ون آمون) خشي من نتيجة فشله بالحصول على الخشب فقدم للامير كثيرا من الذهب والمال وأهداه مغنية مصرية لتسليته ، فرضي هذا ان يعطيه خشبا لقاء ذلك » . بعد ان كان حكام مصر يستولون عليه بالقوة .

وهذه القصة تروي لنا بوضوح كيف تغيرت الحال وكيف استرد امراء سوريا وشعبها كرامتهم وحريتهم بعد نضال طويل مرير لم يبخلوا فيه بالاموال والارواح جيلا بعد جيل ..

هذا موجز سريع يصور الخطوط العريضة للعلاقات التي كانت قائمة بين حكام مصر والسوريين والاسس التي كانت تقوم عليها هذه العلاقات . ومن الجدير بالذكر أن حكام مصر الفرديين حتى في هذه الحقبة الموغلة في القدم كانوا يبررون حملاتهم العسكرية المتتابعة على سوريا بشعارات يطلقونها وأسباب مبررة يعلنونها ، وان كانت لم تخف على السوريين الغايات الاستعمارية الحقيقية وراءها . واليك بعض هذه الشعارات والاسباب على سبيل المثال .

ففي بادىء حملاتهم ادعوا ان البدو في سيناء وجنوب فلسطين يشنون غارات على حدود مملكتهم وان غاية حملاتهم كانت لتأديب هؤلاء المعتدين . ولكنهم في الواقع استغلوا هذه الحملات لينهبوا خيرات سوريا ويعودوا محملين بكنوزها مما تصل اليه أيديهم . وكذلك ادعوا ان بعض امراء سوريا يمنعون سفنهم من اللجوء الى المرافىء السورية ويمنعون عنها الاخشاب أيضا ..

وفي الالف الثانية بعد ان قامت في بلاد ما بين النهرين والاناضول وشمال سوريا دول عديدة كبابل وآشور ، جددوا شعاراتهم بادعائهم انهم يبغون حماية سوريا وساحلها من مطامع هذه الدول ، وكم ادعوا أحيانا بوجوب نشر عبادة الهتهم . فبرروا بذلك قيام حملات مدمرة على سوريا ، نهبوا منها المال والمحاصيل واسترقوا البنين والبنات واستعبدوا الشباب والشيوخ ، وأحرقوا المدن والقرى وتركوا الديار السورية تبكي مصيبتها ، بينما سجلوا ذلك على نصبهم وآثارهم بفخر صلف وجبروت متسلطة وارادة بالتحكم تساندها السيوف تحز الرقاب والسهام تشك الافئدة والحبال على الاعناق تكتم الانفاس وقد لاقى الشعب المصري وأمراؤه الذين كانوا يتمردون على ارادة فرعون الآله الفرد ويمتنعون عن تنفيذ ما آربه ـ حفظا لكراماتهم وشرفهم ـ مثل ما لاقى السوريون شعبا وامراء

فارادة فرعون فوق الجميع . والويل لمن يحاول رفع رأسه مستقيمة ، فهو خائن كافر وعليه ان يلقى كل ما بامكان زبانية الآله من صنوف العذاب والقتل

والذبح والنار • كل هذا منقوش على الآثار المصرية والسورية شاهد عدل وصدق • في كل متحف وعلى متون الكتب التاريخية وهي في متناول الجميع برهان لا يقبل الشك على سوء نظام الحكم الفردي المستبد ••

ـ هؤلاء هم الفراعنة الذين أخذوا يدرسون تاريخهم محرفا لاطفالنا وشبابنا ـ في العهد الناصري ـ باعتبارهم أجدادنا وأبطالنا الميامين السابقين أبطال القومية العربية كما صوروهم في الكتب التاريخية المدرسية ، ألا فاشهد يا تاريخ على الكذب والبهتان ومحو الحقائق وتبديل الابيض بالاسود ، ويا لشر ما فعلوا وما بيتوا لهذا الجيل الطاهر المؤمن بعروبته وقوميته وكرامته ••

ـ واحب ان نمضي معا يا قارئي العزيز ننفض الغبار عن السنين وما تركته لنا من حقائق الاخبار وصدق الحوادث نستقرئها الحقيقة المطلقة راغبين بمعرفة ما حدث وليس للعاطفة علينا من سلطان ورائدنافي استطلاعنا حكم العقل النزيه • فاذا كنت قد اطلعت معي على فترة من تاريخنا القديم فاليك مثالا آخر من تاريخنا الحديث عن علاقات الشعب السوري مع حكام مصر الفرديين ••

ففي عام ١٨٠٦ م • لم يكد يستتب الامر لمحمد علي باشا في حكم مصر • حتى راودته الاحلام العريضة بالاستيلاء على سوريا لينهب خيراتها وخصوصا أخشابها وليجند أهلها في خدمة غاياته ومطامعه الشخصية ••

أراد محمد علي أن يجعل من الحلم حقيقة فمهد له أيضا باعلان الشعارات وتنظيم الدعايات • وكان له أكثر من بوق (كاحمد سعيد) • أخذوا يرددون بأن محمد علي (العربي) (وقد زوروا له نسبا عربيا يصله بآل البيت) يريد أن ينقذ سوريا من ظلم السلطان التركي الاجنبي المستبد ، ويريد ان يرفع من شأنها بتوحيدها مع مصر لتكون نواة لدولة عربية اسلامية ، ويريد طرد الاتراك الظالمين من كل الربوع العربية ليحقق لها استقلالا شريفا ويقيم في ربوعها العدالة الاجتماعية والسياسية ، ويضفي عليها الخير العميم بما سيقيمه فيها من مشاريع زراعية وصناعية ، تلد لسكانها السعادة فيلفهم الرفاه والطمأنينة الدائمة •

نادى محمد علي باشا بهذه الشعارات ورددتها أبواقه ومأجوروه • فتأمل السوريون خيرا ورجوا خلاصا وتمنوا وحدة عربية تعيد للعرب عزهم ومجدهم الغابرين ••

ـ فما ان اتجهت قوات محمد علي بقيادة ابنه ابراهيم باشا نحو سوريا حتى هب الشعب السوري يهلل للمنقذ ويضع كل امكانياته تحت تصرف ابراهيم باشا لضرب الاتراك وردهم عن ديار العرب المقدسة ، والآمال العريضة تحدو بالشعب السوري للبذل والتضحية والفداء لتحقيق الغاية الكبرى ، وجعل الشعارات حقيقة واقعة • فاستطاعت قوات ابراهيم باشا بما قدم لها السوريون من عون مادي ومعنوي وجهد حربي ملموس أن تجلي الاتراك عن سوريا الى الاناضول •

وأصبح ابراهيم باشا (مشيرا) في سوريا لابيه محمد علي المتربص في القاهرة فأخذ الاثنان باصدار القرارات الجائرة على السوريين •

ففرضا سلسلة من الضرائب الجديدة • حتى على ملح الطعام • وأجبرا السوريين على عمل السخرة (ولم يكن معروفا في سوريا) وأمرا بتطبيق نظام الخدمة الاجبارية • وصادرا أموال الناس بغير حق حتى ولامبرر سوى السلب ، وأخيرا توجا هذه القرارات بقرار ذهب بالبقية الباقية من صبر الشعب السوري الابي • وقد نص القرار المذكور على جمع الاسلحة من الرعايا السوريين فهب السوريون واشعلوها ثورات لا تخمد ضد المستعمر الدعي الجديد • الذي لم يكتف بالسلب والتسلط وفرض كل ما يسيء الى السوريين ، فأرادهم عزلا حتى يستطيع التمادي في غيه كيفما يشاء ، فرأى السوريون في ذلك ذلا لا تقبله النفوس وعارا لا يرضاه اباؤهم وعزتهم • لذا اشعلوها ثورات متتابعة لاهبة تحرق الوجوه السود التي خدعتهم ، ولا تبغي الا ذلهم

يا بـدر

القيت في وداع القاضي الكبير الاستاذ بدر الدين علوش

شعر : خليل هنداوي

يـا بـدر نورك لـن يغيب	وانت في كـل القلوب
حلب الحبيبة اطرقت	اسفا على نقل الحبيب
هـذي المحافل رجعت	ذكراك با لحمد الرطيب
في مشهد جرت النفو	س على هواك وفي مغيب
لـك سيرة محمودة	عبقت رؤاها بالطيوب
نفحات طيبك كلما	غابت نماها نفح طيب
من نحن الا الذكريات	الخافقات على الدروب
لا بد من يوم تؤوب به	بعيد او قريب
كالبدر تعلم انه	سؤوب من بعد الغروب
يا قاضيا فوق الظنون	وفوق أوهام المريب
اللمح في أحكامه	والعدل في الحكم المصيب
ما غاب من لهج الغريب	بحبه قبل القريب
قلب تألم للفراق	لانه قلب الاديب
لكن ، أدركت انك	كنت أكثر من حبيب

واستعمارهم باسم الاسلام والعروبة والوحدة • فلم تبق مدينة أو قرية أو طائفة في سوريا الا ورفعت السلاح في وجه الطامع المحتال • ترد كيده ، وتذب عن الحرية والكرامة والشرف • فامعن (المشير) ابراهيم باشا قتلا وحرقا وتدميرا حتى ضج الرأي العام العالمي ، فتدخلت الدول الاوروبية والسلطان العثماني في الامر ، واجبروا قوات ابراهيم باشا على الانسحاب من البلد الذي صبغه بالدم في سبيل تسلطه واستبداده الذي اذا قورن مع الاستعمار التركي آنذاك لكان الاخير رحمة وعدلا بالنسبة له ••

ـ واذا تقدم الزمن ووصلنا عام ١٩٥٨ م يشب عن الطوق حاكم مصري جديد ينادي من جديد بنفس الشعارات التي نادى بها أسلافه • فهو يريد انقاذ سوريا من تهديد الصهاينة ، يريد حمايتها والبلاد العربية من مطامع اسرائيل والاستعمار • يريد تحرير شعبها من الاحتكار وسيطرة رأس المال ، يريد ان يحرر البلاد العربية من كل نفوذ أجنبي ليوحدها من المحيط الى الخليج ليقودها الى النصر الى الحرية الى الحياة الافضل• وقامت اذاعاته وأبواقه تملأ مسامع العرب بكل هذه الاماني في كل ثانية • وصدق السوريون من جديد ادعاء حاكم مصر الفرد الجديد ، وظنوه النبي المنقذ ، ظنوه عناية السماء للامة العربية ، واعتقدوا انه هو وهو وحده محقق آمال العرب •• فسبقت سوريا كل الشعوب العربية لتفتح له أبوابها على أوسع مدى ولتقول هيا نكون النواة الاولى للوحدة العربية الكبرى المرتقبة • ولتقول هاك الزمام بيديك العربيتين وهيا بنا الى الامام صعودا نحو القمة ، ولكن يالهول ما وقعوا به من خطأ ، ويا لهول الصدمة • فاذا التفتوا الى وراء ونظروا الى أيام محمد علي فاذا هم بأشد منها ظلما واستبدادا وعبودية ، واذا تذكروا ما روته كتب التاريخ عن حكم الفراعنة ، فاذا هم يعيشونها اليوم فتبين لهم عندئذ وبعد هذه التجارب المريرة القاسية أن لا وحدة ، ولا عدالة ، ولا أمن ، ولا كرامة ولا طمأنينة حتى ولا رزق ، في ظل الحكم الفردي المنحرف المستبد ••

فلسطين

شعر : عزة بشور

لن تكوني سبية الاضطهاد … ومواضيك رعف الاحقاد
أنت أرض الميعاد موطن شعب … عربي منور الميلاد
حط زوارك الكرام هناء … ونصيب العدى فناء باد
أنت في السلم نفحة من وداد … أنت في الحرب وثبة من جهاد
لن تكوني سبية يا فلسطي … ن وأنت المنى لشعب الضاد
لن تكوني سبية ، عرب الار … ض فداء لمهد عيسى الفادي
والرسول العظيم يهدي خطاهم … أي هاد مثل الرسول الهادي ؟
كل تاريخهم كتاب موشى … بكريم الافعال والامجاد
لم تنل منهم العوادي مراما … أينال العلى مرام العوادي ؟
ينفحون الدنيا اباء ومجدا … واليهم ردوا زمام القياد
الفتوحات شاخصات اليهم … عجبا من شواسع الابعاد
دفقات من البطولات ماجت … ملء عين الزمان ملء المراد
وقف الدهر معجبا يتملى … وثبات الفوارس الرواد
وثبات أدمت جبين الليالي … للمثنى ، وخالد ، وزياد
أنت للعرب كعبة وملاذ … يا تراث الآباء والاجداد
الهتاف الرداد دوى دويا … في لسان العروبة الرداد
داعيا للجهاد شعبا أبيا … يتردى معاطف استشهاد
ما طوى بنده يفوفه الزهـ … و ، ـ فأعظم ببنده المتهادي
أي نكباء دمرت مدن القد … س ، وطاحت بشامخ الاطواد ؟
سلموها وهم اليها يحجو … ن ، خشوعا ببردة الزهاد
سلموها الى الاولى ما روى … التاريخ عنهم اسطورة من وداد
زعموا أنهم حماة سلام … وبلوناهم ذئاب بوادي
ليس ينسى التاريخ عار طغاة … ليس ينسى تآمر الاوغاد
يا دماء المصلوب زيدي انسكابا … واستفزي للثأر شعب الضاد
كم تفجرت رحمة وسلاما … ووئاما لامة وبلاد !
خشبات الصليب لم تك الا … للمضلين مشعل الارشاد
أتراها تداس بالارجل الرعناء … ـ من عصبة نواة فساد
ما ارعوت عن ضلالها وأباحت … هتك أستارها لكل مناد
خشبات الصليب كوني شفارا … لا شعارا للحب أو للتفادي
لو يعود المصلوب ما كان الا … في يديه الصليب سيف جهاد
أمة العرب وحدتها الاماني … فمشت تحت راية الاتحاد
أي شعب كشعبها في الرزايا … قد ايمانه من الاطواد ؟
أي شعب كشعبها حمل الشرق … ـ على كفه سراج رشاد ؟
هودج المجد موجته الحداءات … ـ وأبدع بالهودج المتهادي
يا فلسطين لا ترعك العوادي … نازلات في كل ساح وناد
فسيأتي النصر القريب وتمسي … الرزايا عرائس الاعياد

مفهوم الثورة بين الفلسفة والواقع

بقلم : وليد ابراهيم باشا

الثـورة مفهوم اخلاقي في الجوهر ، بل تحقيق للاصالة الاخلاقية في عمل ثوري ـ فكل ثورة تهدف الى خلق أنظمة جديدة ، وازالة أخرى عتيقة بالية ـ ليس الا تحقيقا لوجود الجوهر الاخلاقي في هذا النظام الجديد ، كي يغطي معنى أصالته في الدلالة والحياة .

فالثورة هي احساس عميق بقوى الحق التي يولد منها احساس متقابل بالواجب وكل حركة الى الخلف فهي شر يهدد قوى الخير في كوامن الفكر ، الذي يعتبر مقياس اتجاه الامة التي تنشد كرامتها في دروب التقدم والازدهار ، على صعيد المجموعات الانسانية ذات الخصائص المستقلة والصفات الخاصة بها .

ذهبت معظم المذاهب الفلسفية ـ والاخص منها أصحاب الفكر من أعلام القرن السابع عشر [1] وما بعده وكذلك من أيدهم من علماء الاجتماع ـ الى تبني النظرية القائلة بالتطور على أساس اخلاقي في مفهوم الامة : المجموعة بشرية ذات كيان وخصائص متمايزة في الحضارة والتاريخ .

لقد استقر شأن المفهوم الاخلاقي كأساس وطيد في الحفاظ على كينونة الامة . والمفهوم الاخلاقي يعني الخصائص الفعالة في الروح البناءة التي تتعاطف ـ في خط التاريخ ـ مع أسباب الارتقاء المادية والمعنوية . ولتأثير الروح الاخلاقية في حياة الامة يحتم عليها ان تعبر سبيل تقدمها وازدهارها بزاد اخلاقي .

ولطالما اهتزت المشاعر واضطربت الاحاسيس ، ذلك كلما حصل ان انحرفت الامة عن مقاييسها الاخلاقية ، وحجبت عن اصالتها ، مما يقضي عليها ان تواجه أحد هذين الطريقين :

أما ان تستمر في مسلك الجنوح وهي في غمرة من نشوة اخلاقية دخيلة عليها ، غريبة عن تاريخها ، تستلهمها في غفلة عندما تكون خاضعة لتأثير تيارات الفكر الغريب ، مما يشكل في حياتها المنعطف التاريخي الذي يؤذن باضمحلال الكينونة . وهذا اسلوب الاهداف الاستعمارية .

وأما أن تختار الطريق الاخرى ، فتدور نصف دورة حول نفسها لاستجماع معالمها التاريخية ، واستكمال عناصرها الحضارية ، والعودة مرة أخرى لاستئناف في طريق الاعتمال الفكري الذي يظهر دوره في هذه المرحلة ـ تارة ـ بالمنار الذي يهدي سفينة الحياة بقادتها الذاهبة في العاصفة ، بعد ان القى بها الاعصار أخشابا شبه متماسكة في بحر الانحلال السياسي والاجتماعي . وتارة أخرى يكون له دور المؤتمن على مآثر تاريخية أشبه ما تكون بصفحة الحقوق والواجبات عبر تاريخ انساني يؤرخ من ماضي الامة اسمى وأجل ما يخلق بالامة ان تستمد منه قوى الحاضر من الماضي .

ان للثورة اسبابا تنشأ بالواقع نتيجة للتفاعل الايديولوجي في تصارع بين المثل الحضارية الاصيلة من جهة ، والمفاسد التي تكبل الواقع وتجعله منحرفا عن خط الامة الحضاري الماثل . والتاريخ هنا يروي حوادث الثورات الفاشلة التي استعجلها المتوثبون قبل ان تكتمل أسبابها ، اذ يجعلون صورتها مسخا ، أشبه ما يكون بعملية توليد الجنين قبل استكماله لعناصره الفيزيولوجيه . وهذا هو شأن من لا يدركون حقيقة الثورة . فهم في قلة فهمهم لمعناها يمزقونها أشلاء متناثرة في مخاض

---

(١) نعني بهذا التخصيص (ديكارت) ونظريته ، بعد دراسة موضوعية لقديم الثورات كثورة سبارتاكوس ـ وما حدث في القريب منها .

العائلة ... ترى

بقلم : الدكتورة انعام مسالم

الصباح يقرع بابي على غير عادته مبكرا ، فأنا منذ سنوات طويـلة لا أعرف كيف يبزغ فجر ولا كيف تبدد الدنيا أثوابها السوداء القاتمة ، لترتدي الرمادية الزرقاء ثم النورانية المشرقة ..

منذ أمد طويل والايام تزورني في فراشي وتقبلني بفتور ، بعد ان تقبل الارض وتتمسح بالاشجار ..

وبعد ان تفرغ ابتساماتها في وجوه الناس المتفتحين مع الازاهير والمنتشرين مع العبير !..

ولهذا لا أحس معنى في قبلتها ولا لونـا جديـدا يغريني للتمتع في اشراقتها . وكان هذا يزيدني عنها انصرافا ، ويزيدها زهدا في السعي لقبلتي .. فلا أنا أحس بخيوطها النورانية البديعة ولا بأشعتها الفضية الرائعة ، ولا أتلمس حيوية في وجنة ولا شحوبا في بقايا كثيبة ترسمها على الكون !..

أما في هذا الصباح فقد استيقظت وانا احس بشيء جديد ينمو في داخلي . ومع اشراقة الفجر الاولى تحرك جنين جديد في أعماقي ..

سأوقظ أمي .. ولكن لا .. ستشك في الامر .. اذن لا بد من انتظارها حتى تصحو !..

أيها الفجر ، اني بشوق الى غربة مليئة .. غربة جديدة وبعيدة تحيي في نفسي الكئيبة براعم الشـوق للحياة !..

أيتها الخيوط الرمادية ، كم أنا بحاجة الى أخرى وردية ، تدخل ولو ذرة واحدة من أسرار الحياةالمتدفقة

مصطنع لم تتهيأ أسبابه ، وتنضج مقوماتـه ، وتتحدد أهدافه .

وقد تحدث انتفاضات ضد حكومة مـا ، او ضد فئـة ظالمة ما ، ولكن ليست كل انتفاضة ثورة . فتغير وضع سياسي ليس ثـورة اذا لم يكن فوضى مفتونة . وقلب الانظمة الوضعية ليس ثورة اذا لم يكن تخبطا في جمود جاهل . وكذلك انقضاض حاكم على آخر كي يتربـع من بعـده على كرسي الحكـم ليس ثورة ، بل انتفاضة تجلو أهداف الفردية ، التي يجيء عملها موشى بثوب اصلاحي طالما أرادوه اسـتغلالا وتبريرا لعمـل انقلابي يبقى في حدوده الضيقة التي تضمن كيان الحكم لفرد أو أفراد ، كما تدعوه الحقوقالدستورية بالاوضاع الديكتاتورية أو الاوضاع الاتوقراطية .

ولئن تعددت موازين الخير فالحق واحد ، ومفهوم الثورة من الاخلاق ثابت . فهو في ميزان الحقيقة علم وفكر وعمل ونظام . ونضال مبني على علم وفكر وعمل ونظام .

وليس ضروريا أن تتوفـر عناصر العلم والفكر والنظام في مجموع أفراد الامة . بل يقتضي أن تتوفر هذه العناصر في قادة الفكر ، وهذا هو مبدأ حتميةالثورة التائقـة الى النجاح في عملية اسـتعادة وايجاد لكيانهـا واصالتها في الفكر والعلم والاجتماع .

وهكذا يغدو من الحقيقة والخير ان يكون القادة والمفكرون متفاعلين مع الجماهير تفاعلا جذريا يعلو عن مستوى العواطف والانفعالات الباهتة ومستلهمين قيادتهم من امانيها الجسام ومستوحين أهداف الثورة من آمالها العظام . غير مستغلين هذا التطلع المتمني وذاك التوثب المتأمل من أجل أغراضهم وغاياتهم .

الى نفسي !.. فأنا أريد أن أذوق طعم شيء وردي أو أبيض ، فكل ما عانيته في حياتي لم يكن الا من طيف ذي الوان قاتمة .. حتى ثيابي ما استطعت مرة ان اضيف لها لونا رائعا ، لونا زاهيا ..

أنا بشوق الى لون مشرق ، اتعرف ايها الفجر ما الذي أنا في شوق اليه .. التفتح .. البهجة الاشراق..

وتسللت الشمس الى مخادع الحالمين لتهمس في آذانهم ان استيقظوا فقد طال بكم الرقاد ..

ومضت دقائق جاءت أمي بعدها ، كعادتها في الصباح الباكر لتغلق نافذة غرفتي .. انها تخشى علي من الخيوط المنيرة ، تخشى ان تقرص هذه الاشعة وجنتي أو تهدد استسلام جفني للسبات ..

همست أمي باستغراب ، تستفسر عن سبب يقظتي المبكرة ؟..

بادرتها بالحديث : سأذهب لمراجعة الطبيب ، ما رأيك ..؟ لقد كرهت المرض ولم أعد أستطيع احتمال أظافره المنشبة في جسمي..قرفت من اللون..أصفر.. لون وجهي ووجنتي ..

سأنزل اليوم الى المدينة لارى اخصائيا !..

وامتقع وجه أمي .. ومع ذلك همست بعد تنهيدة طويلة :

ـ الم أقل لك ، ابدلي هذا الطبيب منذ زمن طويل .. الم أقل لك انه لا يعرف من الطب الا اسمه.. والا ، أين ذهبت الشهور الماضية ، والزيارات المتكررة ، وقوائم العلاج أين أين مفعولها ؟

ورددت عليها بصوت صببت فيه كل ما في العالم من تعب وارهاق :ـ

ـ لا بأس ، يا أمي ، سأغيره هذه المرة .. سأذهب لاستشارة اخصائي آخر !..

أمي تعرف عادتها في مثل هذه المناسبات وبعد هذه العاديث . فهي تتصل بشركة السفريات لتحجز لي محلا .. كما انها تتصل بفندق العائلة ليهيئوا لي غرفة العائلة في الفندق !..

انتم لا تدرون الى أين تمتد سلطة العائلة .. فعائلتنا لها أيد سحرية تمنح بركاتها وتمد سلطانها حتى الى أدق الامور الفردية !..

.. لا يليق بك ان تضحكي بصوت مرتفع ، ابتسمي فقط ، لا تتحدثي بحماس ، حركي شفتيك بصوت هادىء رزين . ـ لا تتكلمي بقولك أرى وأريد .. بل قولي العائلة ترى ، والعائلة تريد العائلة لا تسمح .. تناولي الالوان المناسبة في كل مناسبة تدعين فيها لتناول طعام .. هذا اللون مرهق للمعدة .. هذا الفسطان فاضح .. لونه مشرق .. غير مناسب بابنة عائلة مثلك .. انت تملكين بعض الحرية أمام الناس ولكنك لا تملكين التصرف العقلي فيها .. فابنة العائلة المحترمة لا تتصرف كما تتصرف الاخريات .. دون مقاييس .. دون معايير ولم يمض على حديثي مع الوالدة نصف ساعة حتى وصلتني الاوامر .. أوامر ممثلة العائلة الاولى :

ـ استعدي .. بعد قليل ستأتي السيارة لتأخذك .

ما زال شعري مكتوما على اسطوانات ملونة حمراء، زرقاء ، صفراء ، بيضاء هذه الالوان المتعددة لا يسمح لي بالتقرب منها او اقتنائها الا في هذه الاسطوانات ولذلك أكثر من اقتناء الاسطوانات ذات الالوان المشرقة لادع خصلاتي السوداء تستلقي على لون بهيج متفتح ..

وسرعان ما دب النشاط في كل جزء مني !.. ففي حركاتي رشاقة وحيوية ، وفي نظراتي رغبة جامحة الى شيء مجهول .. وفي قلبي دبيب جنين كله تطلع الى حياة مليئة .. بالامل ومفعمة بالنور والحركة ..

وارتفع صوت البوق ، بوق السيارة ، وأحسست مع تتابع الصوت المزعج العالي ، راحة عميقة ، وهمسا دقيقا ، ونجوى حالمة !..

ونزلت بعد ان ودعت أركان المنزل ، ركنا ، ركنا ، ففي كل ركن يقبع ممثل من ممثلي العائلة والمتربعي على عروشها !..

رشقتني الوالدة بنظرة استنكار صامتة !..

استغربت اللون الاحمر يدمي شفتي ويضرج وجنتي ، ودفعت بدفقة هواء تتنفس من عبيرها لتميز العطر الذي مرغت عنقي فيه !..

أمي لا تحب الاحمر يصبغ الشفاه !..

أمي تكره العطر يفوح من أجساد الفتيات !..

أمي ترى في ذلك كله دعارة !..

ولكنها لم تلق علي الا تلك النظرة الدهشة .. نظرة الاستنكار الصامتة ولعلها تسامحت معي لانني مريضة ولانني انفت من اللون الاصفر وقد غزا وجهي كله !..

مالي ولنظراتها !..

السائق يفتح لي باب العربة !..

شاب لا بأس به ، لو كانت عيناه اوسع قليلا مما هي عليه لبدأت معه مغامرة لذيذة !..

ولكن ذوق العائلة لا يميل الى أصحاب العيون الضيقة .. وانا منها .. أقصد من العائلة .

انه يرمقني بنظراته التي يفوح منها الاعجاب .. مسكين هذا السائق ، لا يستطيع ان يغمر وجهه بين ثنايا شعري المعطر المصفف !.. أما أنا فلا أرى بأسا لو ان فتحة عينيه كانت اوسع قليلا فأنا أحب العيون الواسعة ، الواضحة ، المعبرة ..

انني أبحث عن عينين بهما صفاء الافق وسعته ، وزهوة الربيع ونضارته !..

اللون الابيض الضيق يزعجني أيها السائق !.. اني لا أكاد ألمحه في مرآة السيارة الصغيرة .. لن اتطلع اليك ثانية !..

وهناك في مقر شركة السفريات ، كان الركاب الاخرون ينتظرون وصولي . ركبوا جميعا .. تحرك الركب . جارتي في المقعد امرأة فيها الكثير من صفات أمي ، ولذلك سأدير لها ظهري .. فأنا لا أريد ممثلة لاية سلطة أخرى !

خلفي ضابط شاب مع آخرين !..

أرى في نظراته وقد عكستا المرآة أمامي ، حرارة الشباب ، ونزق الشباب ، وتفتح الشباب وانا ابحث عن كل هذا .. سأخالسه النظر وانا أتأمل الطريق الذي خلفته السيارة وراء عجلاتها !..

دهش ، تكاد نظراته تلتهمني انني أحس بحرارتها من الخلف .. يكاد رأسي يطير اليه .. ولكن الرزانة ضرورية كما تقول أمي .. وأنا لم أتعود غيرها ..

تنفس المسكين بعمق ، انه يود لو يحرقني بأنفاسه، حتى رأسه الى الامام والتفت الى جاره يحدثه بصوت مرتفع .. ان الاحمق يحدثني أنا عن طريقة مخاطبة جاره في المقعد بهذا الصوت المرتفع !..

تحدثي يا امرأة ، سأخفي نظراتي المتعالية قليلا ، تحدثي أريد ان احدث الضابط الذي يجلس خلفي بمحادثتي لك .. سأحاول ان اتخيله مكانك !..

انزاحت النظرة المتعالية ، وحلت محلها ابتسامة مشجعة على شفتي ، وصلت السيارة الى قرية في الطريق .. نزلت المرأة في القرية .. ضاعت فرصتي !..

ضاعت الفرصة أيها الضابط ، هل عرفت ذلك ..

ورفعت صوتي أسأل السائق :

– عفوا نسيت أن املأ ساعتي .. لقد توقفت .. كم الساعة الآن ..

– الساعة الآن العاشرة يا انستي !..

رأيت في عينيه وسمعت في نبرة صوته ما يشي بـ « يا انستي » كان يريد ان يقولها « ياحلوتي » وهمست لنفسي ، حسنا ، قلت ايها السائق ، فأنا لا أحب العيون الضيقة ولا يستهويني أصحابها ..

تململ الضابط خلفي ، وعلا صوته ليحدثني مباشرة :

– هل تسمحين يا انستي .. لقد احرقتني الشمس هنا .. هل أجلس مكان المرأة التي نزلت !..

الشمس تحرقه !.. لا .. لا .. ما اشرقت شمس أحرقتك أيها الضابط !..

وبحركة ورثتها عن العائلة ، حركة استعلاء ،

طيف

شعر : يونس وقاف

ان رأتني عيناك عظما ولحما
كان ابصارك المزيف وهما !!
لست لحما ولا دما ، لست عظما

انني هالـة من الاسرار
زوقتها مشيئة الاقدار

كيف جئت الدنيا ؟ أتعلم كيفما ؟..
لفظتني أشعة الشمس طيفا !!..
فانتشى الروض بي ربيعا وصيفا

واكتسى حلة من الازهار
ينهل العطر من ذيول ازاري

منذ بدء التكوين أدركت ذاتي
سابحا في مجاهل الكائنات
ليعب الفضاء من نفحاتي

ما يمد الحياة بالانوار
دافقات في حالكات الديار

سكر الفجر من صباحي فغنى
وغفا الليل مثقل النفس وهنا
ومضت غيمة تردد لحنا

سرقته من موكب الاطيار
عندما استقبل انتشار النهار

هزت رأسي بالموافقة دون ان انبس ببنت شفة .. وجلس .. واعتذر ..

ورددت على اعتذاره بابتسامة ، انفتحت الشفتان القرمزيتان عن عقود ياسمين .

ـ هل الآنسة ذاهبة الى المدينة ..؟

وتجيبه حركة الموافقة من رأسي !..

وفي الداخل ، في الاعماق ، ينمو الجنين ، يكبر بسرعة ، أحس ببوادر الثورة ، كلميه ، أجيبيه ، كفي عن هذه الحركة المتعالية أيتها الحمقاء !..

ويصل صوته مرة أخرى ..

ـ وانا كذلك .. تصوري مدى الشوق العارم الذي أحمله لها .. انني في اجازة قصيرة وسأعود الى غربتي من جديد !..

غريب .. مسكين .. الغربة تضنيه ، تتعسه ، لقاء المدينة يبعث في نفسه فرحا طفوليا .. وانا .. أنا أبحث عن غربة ، غربة لروحي ولجسدي !..

ـ ما أوقح أفكاري !.

وعاد يتحدث ثانية :

ـ الغريب يا انستي انك شديدة الشبه بفتاة أعرفها .. أقصد بخطيبتي !..

الاحمق له خطيبة ، ويجرؤ على مغازلتي !..

سأدعه لها .. لن أفكر فيه مطلقا .. حسنا فعلت اذ تركته يتحدث وحده .. فالعائلة لا تحب ان تمتلك أشياء مستعملة !..

وانزاح رأسي ليتطلع الى الامام .. الى الطريق الذي يقود الى المدينة .. والى زيارة الطبيب ..

درعا ـ الدكتورة انعام مسالمة

يا أمي !..

شعر : جميل حسن

[أنت في فراشك مريضة ·· وأنا عنك بعيد ·· والناس من حولي يحتفلون بعيد الام · فماذا أهديك في عيدك ؟! أتأخذين من قلبي ؟! هذا نثار من قلبي الذي قد منك ، وما يزال يحن الى مصدره]

يا شعاع الضحى !· أراك نديا
من لآليك ان أذب أغنياتي
وأنا في الصباح أسكب لحني
ان روحي تذوب فوق لهاتي
فافرش الكون بالضياء ، لتحيا
يا شعاع الضحى ·· ورش عليه
أوشك الليل أن يلف وجودي
أظلمت غربتي بأعماق نفسي
لا تلم أيها الشعاع !· فاني
منذ عشرين ، أو تزيد قليلا
ودموع عزت لغير اشتياقي
كلما حرك النسيم شجونا
يا شعاع الضحى !· أمالك أم ؟
يا شعاع الضحى !· ألم تشك يوما
من وراء الجبال أم رؤوم
تسأل النسمة الشرود ، وتبكي
وأنا الغائب الغريب ·· أرجي
لي عين على بناتي ·· وأخرى
تشتهي أن يمر بعض نسيم
هبة - يا نسيم - تنعش نفسي
هدهد الدمع لحظة !·· أرهقتني
هات من عطفها رسول حنان

موحيا ، شيق البيان ·· سخيا
يخرج اللحن صافيا ، عبقريا
عاطفي النداء ، عذبا ، شجيا
اذ أغني حناني الابويا
صور الفجر رائعات المحيا
بعض نعماك كي يظل شهيا
برداء يطوي كياني طيا !
وهوى الهم بالفؤاد هويا
دون أهلي أحيا بعيدا قصيا
أقطع العمر مهملا ، منسيا
تهب الليل لحنها العاطفيا
أو دعا الليل همها المطويا
تشتهي قربها ، لتحيا رضيا ؟
ان شكواي شيبت فوديا
قطعت عمرها حنينا اليا
كل طيف تخاله شرقيا
أبد الدهر أن أعود سويا
تتملى هوى لها غربيا !··
حاملا طيفها لترنو مليا
رفة ·· تبعث الشجاعة فيا
طفرات الدموع في عينيا
لاضم الحنان في جانحيا !··

أقفرت جنتي .. وجف ربيعي ... فأعد موسم الحياة .. جنيا
مر في ربعها .. ورف عليها ... رحمة .. وانقل الحديث الشجيا
انها - يا نسيم - سر وجودي ... انها رحمة الاله عليا
رعت الريش في جناحي .. غضا ... ورعت ذلك الجناح الطريا
فتخطى الرياح هوجا .. وألوى ... بالاعاصير .. واستمر قويا
حفظتني من الاذى .. وحمتني ... في سريري ، ويافعا ، وصبيا
وهدتني ، فلم أضل ، بدربي ... وعلى الحق ثبتت قدميا
جنبتني العثار في الف شوط ... مهدت لي السبيل شيا فشيا
وأحالت صحراء عمري روضا ... كوكبي الجنى ، شهيا ، بهيا
مورقا بالحنان ، نضرا ، بديعا ... حافلا بالمنى الكبار ، غنيا
ألف ليل قضته فوق سريري ... وهي ترعى الكرى على مقلتيا
تتهادى بروحها فوق روحي ... فأرى مبسم الاله رضيا
وتريني من الحنان .. صنوفا ... فأرى بالحنان عيشي هنيا
لم أعش لحظة من العمر الا ... فاض فيها الحنان من جانبيا
وأنا اليوم ذاكر ، غير ناس ... كل ايماءة من الحب ريا
ذاكر وجهها الكريم يحييني ... مع الصبح باسما .. لؤلئيا
ذاكر صوتها الرخيم يغني ... ويذيب السرور في مسمعيا
ذاكر كل دعوة رجت الله ... ليحمي لها الغلام الصبيا
ان ما رددته فوق سريري ... كان حلما في قلبها ذهبيا
وأنا الآن صورة في رؤاها ... تبعث الماضي الذي مات ، حيا
ايه يا أم !. لو ملكت وجودي ... لرآني الوجود برا .. وفيا
غير أني يا أم ، حسبي أني ... عشت في الخلق راضيا مرضيا
ستمر الحياة يوما بدربي ... وتراني عف الضمير .. نقيا
وسيحمر وجهها من حياء ... كسرت شوكتي فعشت شقيا
وستأسى حينا .. وتذكر أني ... عشت كنزا في سرها مطويا
يا ترى !. هل أعود يوما وقلبي ... بعض ما تأخذينه من يديا ؟!
تعس الرزق !. في طلابي رزقي ... غبت طول الزمان عن أبويا
وعزائي الوحيد أني بعيشي .. ... أهب العمر شعبي العربيا

سلقين - جميل حسن

العلقم البرى .

جنسنا البشري غده يقفز فوق جرف ، ويستعجل السقطة ، وسدنة معابده يحرقون البخور في خوذ الحرب ، ويشتمون أرج الاعشاب الطفيلية في مستنقع الموت ، وهم مستريبون ، أما أنبياء عصره ، حفدة جوبيتر ، فنرجسيون • لماذا اذن لا يستغفر الضمير العالمي ، ويسترد ورقة نعيه قبل أن يتلقفه سرداب العدم ؟

شعر : موريس قبق



غدنا كهف رماد أزلي ،
هن والتجديف سبحات اله
وأباطيل استلانت وثنيا ،
وتوابيت رصاص تتباهى
أنها طلسم عرق بربري
ما لنا نشتام عنقودا ، ولا
أيداجينا سدين مستريب ،
ويغذينا شروس العلقم
أبدا ينقعنا في حوض كبريت ،
ما لنا نحفى على الثلج ، ونعرى ،
لا يمني النمل بالدفء ،
غدنا عشر وصايا تتناهى
سقطة تستعجل الهوة ، دنيا
معبد غاوى حروفا في شفه
حجري ، ومسوخ مقرفه
وحواريا ، أسيري مجرفه
أنها ساحل جزر مورفه
يتأبى رحلة مستكشفه
نحتزه ، بينا مدانا مرهفه ؟!
حسه ، ليلاته مستنزفه
البري آمين صلاة مسرفه
يصفينا •• فيغدو زعنفه
آن لا يكري نبي معطفه ؟!
بقشات سنونو أتعبتها الرفرفه
في هيولى الوحل ، تعنو مدنفه
المهبط السري دنيا مترفه !

لعبة القـدر

قصة بقلم : امين موسى

جلس سامي خلف طاولته وهو ينظر الى ساعته ليطمئن الى انه رغم صعوبة المواصلات في تلك الفترة من النهار وصل في الوقت المحدد . وشعر بارتياح انه لم يتأخر سوى بضع دقائق ثم طلب فنجان القهوة وراح يتناول الاوراق المكدسة من أدراج طاولته .

لم يتم سامي شرب القهوة من فنجانه حتى جاءه الآذن يعلمه ان المدير قد استدعاه فنهض من مكانه مسرعا ، وما هي الا لحظة حتى كان منتصبا امامه . وبعد تبادل التحية الصباحية ، قال المدير وقد اسند ظهره الى خلفه : يؤسفني يا سامي ان أعلمك انه صدر امر بنقلك .. ومما يحز بنفسي حقا ان تنقل .. وان نشاطك وكفاءتك مما يضاعف في أسفي لذلك .. ولكن مصلحة العمل تقتضي بذلك وأرجو ان تهيء نفسك لتلتحق بمركز عملك الجديد في « درعا » ..

لم ينبس سامي ببنت شفة وانما تسمر مكانه واقفا مدهوشا وكأن الحديث لا يخصه .. فقال المدير وقد راعه جموده : أنا أعلم انه ليس باليسير عليك ذلك .. ولكن لا بد منه ..

واستفاق سامي وقال : الى أين نقلت سيدي ؟.

قال المدير .. : لقد قلت لك الى « درعا » .

وخرج سامي وكأنه قد فقد عقله : يا للعجب .. أأنقل الى « درعا » .. والى درعا بالذات انه لمما يحير العقل ان انقل الى « درعا » .. ولم تكن دهشة سامي البالغة بسبب نقله وانما الذي أدهشه أن ينقل الى درعا .. كانت الهواجس والمناجاة النفسية تملأ عليه عقله وتفكيره وهو عائد الى منزله ليعد نفسه للالتحاق بمركزه الجديد . ودارت الافكار برأسه ودار حديثه مع نفسه ورجعت صورة حية لغرامه المشبوب الى ذهنه وبدأت تتراقص أمام عينيه كشريط سينمائي فريد بذاته يعيد له قصة حبه كأبدع ما انتج من أفلام سينمائية تصور قصص الحب الجامح .

أسند سامي رأسه الى ذراعيه وراح يستعيد الذكريات الذهنية .. فرأى (دعد) وتذكر كيف بدأ حبهما كما يبدأ حب كل شاب لابنة جيرانه وكيف تتطور فأصبح هوى مستعصيا لازما لنفسه .. ثم كيف دارت الالسن عن حبهما وقيلت الاقاويل في ذلك وعندما أراد ان يضع حدا لذلك .. فاعلن لاهله عن رغبته بالزواج من دعد حبيبته وحياته .. وكيف قام الصراع بينه وبين أبويه وكانت حجتهما في ذلك قوية .. لقد اعلموه انه لا زال في بدء الطريق وان دربه ليس خميلة .. وما عليه الا ان يحصل على الاجازة الجامعية ليتمكن من الزواج بمن يرغب .. وحاول سامي أن يقنع نفسه ان بامكانه ان يؤمن لحبيبته حياة كريمة تغنيها عن متاعب العمل والوظيفة وهي تعيش الى جانبه وبكنفه ولكنه وجد ان راتبه الضئيل يستعصي عليه ان يؤمن غرضه المنشود .. فلاذ بالصمت .. واعلم دعد انه لا ينوي الزواج في هذه اللحظة .. وحاول ان ينساها بعد ذلك فتذكر كيف ثار شعورها الانثوي .. وقاطعته بدورها .. ولكنها لم تتمكن قبل مغادرتها البلدة الا ان تطلب مقابلته للمرة الاخيرة.. وقابلها .. وبكت وهدأ من نفسها .. ولكن كلماتها لم تزل تطن في أذنيه وكأنها تقولها الساعة : لقد قررت ترك الحي وبلدتي مسقط رأسي الى مكان آخر كي ابعد عنك .. كي لا أشاهدك كل يوم وانت تدخل الحي وتخرج منه .. علي أنساك ..

وحجر سامي حسه وكبت عواطفه وقال بحدة : أنا متأكد انك ستعتادين على العيش في تلك البلدة وانك

ستنسينني حال وصولك اليها •• ولم يتركها لترد عليه بل اسرع تاركا اياها تكفكف دموعها •

لم يتمكن سامي عندما انتهى عرض هذا الشريط لحبه الوحيد الا ان يبتسم وكأنه قد خرج لتوه من قاعة سينما اثر مشاهدته لشريط سينمائي عربي •• الذي يفرح المتفرج بنهايته السعيدة بلقاء الحبيبين •

وعندما وقف سامي بمكتب سفريات درعا وقد أخرج حافظة نقوده ليدفع ثمن تذكرة ذهابه سأل : كم يكلف الذهاب الى دعاد ••

وابتسم قاطع التذاكر وقال : يبدو انك لا تعرفها أبدا ان اسمها « درعا » وليس « دعاد » •

قال سامي متعجبا : عفوا أقصد درعا •

وقدم قاطع التذاكر له تذكرة قائلا : فقط ليرتان •

وراحت السيارة الصغيرة تنهب الارض وقد اتخذ سامي له مكانا في المقعد الخلفي الى جانب زوجين متحابين كانا لا يكفان عن التهامس ثم الضحك فيما بينهما •• ولم يكن يوقظه من شروده الطويل سوى ضحكة تفلت من احدهما فيتمتم بينه وبين نفسه : ما أسعدهما !•

كان ينقل بصره بين الارض الحمراء التي تبدو مسرعة الى الخلف تحت عجلات السيارة وبين عالمه الداخلي •• فيلقي كل ما بنفسه على ما يرى •• حتى اذا ما نظر الى الثلوج الناصعة البياض فوق جبل الشيخ وهي تلتقي بغيمة كالقطن المندوف وكأنهما بعناق لا يكاد أن يميز بينهما ، فكأن الغيمة امتداد للثلج او الثلج امتداد للغيمة ، ولا خط ولو دقيق يفصل بينهما ، عجب من هذه الصورة الطبيعية الرائعة وتمتم لنفسه •• ما الذي جمعهما يا ترى على هذا الشكل •• وما الذي حرك الغيمة البيضاء لتلتقي بالثلج الابيض •• أهي مصادفة أم ماذا ؟ ورأى في هذه الصورة حبة •• حتى لم يحرك بصره عنها •• بل لقد أصبحت رمز حبه •• ولم يكن يدري في تلك اللحظة ان حبه قد استيقظ على أشده •• وانه الآن لم يعد يقوى على فصمه ••

وما ان توقف محرك السيارة عن الهدير حتى قفز سامي من مقعده خارجا •• وهو يستجلي معالم تلك البلدة الصغيرة التي تضم بين جدرانها حبيبته ومعشوقة فؤاده •• واسعفه طفل يقدم مساعدته الصغيرة للمسافرين •• فتلقفه سامي بقوله : هل لك ان تدلني على مدرسة البنات •• فأجاب الطفل : تفضل معي انها تقع بطرف البلدة • ونسي سامي نفسه •• ونسي ما هو مقدم عليه •• حتى انه لم يسأل عن مكان عمله في البلدة •• بل ظن انه جاء بزيارة لدعد •• وليس الا •• ووقف الطفل مشيرا بيده النحيلة •• هذه هي المدرسة يا سيدي •• فقال سامي : اذهب واسأل عن معلمة اسمها دعد وقل لها ان تخرج لترى شخصا يسأل عنها •

وكان كلما اوغل الطفل بالبعد عنه يشعر بان قلبه يكاد ان يخرج من موضعه ، بل شعر ان قلبه ليس معه ، ربما هو تلميذ وحيد في هذه المدرسة النائية وقد تركه خارجا يستدعيه اليه •• والا فهو ليس قلبه •

وارتجف بكليته عندما لاحت دعد على باب المدرسة •• أهذه أنت يا ملاكي ! أتعيشين هنا وحدك •• كيف يطيب لي العيش وكل هذه المسافة كانت بيننا • وتقدمت دعد وهي تكاد لا تصدق ما ترى •• من سامي ؟ ما الذي اتى به الى هنا •• وكيف ••؟ أسألة عديدة دارت في رأسها الصغير • وكان لقاء على بساط من العشب الاخضر جعل حبهما يبدو وكأنه اسطورة في هذه الناحية من الارض •• قالت : سامي ما الذي اتى بك ؟ لم يجب ، ولكنه وقف جامدا لا يحير جوابا •• وبعد هنيهة من الانتظار عادت تسأل : لم جئت ؟ لقد تركت لك العاصمة •• وهجرت أهلي •• فطلبت من الوزارة نقلي الى مكان آخر خارج دمشق لابتعد عنك •• الا تذكر ولبي طلبي ورضيت بذلك فلم عدت تزيد كلومي •• ولكن •• تعال معي •• هيا ••

وسار الى جانبها منقادا وهو لا يدري ما يفعل وأصبح كشاة أمام صاحبها •• وجلس سامي الى كرسي

قدمته اليه وبدا عليه انه استعاد قواه فقال : لقد أصبحت هنا يا دعد .. سأعيش واقيم في هـذه البلدة .. لقـد نقلت الى هنا .. تصوري يا دعد .. من بين مئات المراكز المنتشرة في مئات المدن والقرى والتابعة لدائرتنا لم يقع اختيارهم سوى على درعا لنقلي اليها .. ماذا ترين في ذلك ؟

وضحكت دعد بخبث وهي تقول : أحقا نقلوك الى درعا ..

قـال : لم تجيبي على سـؤالي .. كيف اتفق ان انقل الى درعا بالذات .. حيث انت . أترى هي الصدفة أم نفس الشيء الذي جمع بين الغيمة والثلج فوق جبل الشيخ تحت تلك السماء الصافية الزرقة .

وبعد ان ارتشف أطيب فنجان قهوة ذاقه في حياته قال وهو يهم بالانصراف : يجب ان التحق بمركز عملي .. أظن انه لا يمكننا أن نتقابل في هذه البلدة الصغيرة الا في دار السينما .. سأمر في المساء بتذكرتين ..

وما ان خرجا من دار السينما في تلك الليلة الباردة حتى كانا قد اتفقا على كل شيء .. لقد حلت المشكلة..

وقال وهو يوصلها الى غرفتها .. سوف لا أوصلك بعد هذه الليلة الى غرفتك .. ثـم أعود راجعا حيث اغفو وحدي في فندق البلدة بل سيكون لنا بيتا واحدا .. لقد حسمت الامر .. ستبقين في وظيفتك وسنعيش معا في هذه البلدة كأسعد زوجين الى ان انال الاجازة الجامعية وانقل الى دمشق وهناك ستكونين زوجتي بلا وظيفة .

وكادت دعد ان ترقص من فرحها وقالت : أحقا يا سامي .

قال : نعم .. لم لا تلفين رأسك فالبرد شديد كما ترين .

قالت : انني لا أشعر بالبرد معك أبدا .. ولكن متى ؟

أجاب وقد وقفا أمام باب غرفتها : غدا سنتزوج.. ولكن الا ترين معي لمن يعود الفضل في ذلك أهم اولئك الذين نقلوني .. أم الصدفـة .. أم مـا جمع الغيمـة والثلج فوق الجبل .. وودعها الى الغد .

وبعد بضعة أيام كانا أسعد زوجين .

أمين موسى

من تجارب حبي

بقلم : محمد عيد الفقير

لوعة وتمزق يجتاحان ذاتي • أنا حائر ، أنامعذب، أنا في جحيم من اضطرابي وحيرتي • انا •• يا الهي ! ما هذا الصراع الذي حالفني مذ قابلتها ؟! ودفنت رأسي في الفراش مرة أخرى ، ثم عدت أضع الوسادة فوق وجهي وأغمضت عيني • اني أقسر نفسي على النوم ، ولكني لا أنام • أنا أشعر بتأججات الحب تحرق القلب وتكوي الفؤاد • اتقلب على فراشي المسكين • فراشي يئن مع ضلوعي • ثم اتململ كالثعبان وازفر كفحيحه • أريد أن أنام لاهرب من الواقع ، وعبثاأحاول • فقسماتها الساحرة ولألأ عينيها الدعجاوين ، ثغرها الباسم ، شعرها المنسدل كشلال من الظلماء ، لفتاتها النزقة المرتعشة كارتعاشات الياسمين مع نسيم الصباح ، كل ما يشع منها ماثل في مخيلتي • وانبثقت في احساسي رائحة ذكية عذبة تسحب الروح من جسدها لتحلق بها في رياض كباها الربيع أحلى زهوره • انها رائحتها ، رائحة عطرها الرقيق الناعم ، رائحة فمها الذكية نشقت بعمق فاجتاحت نفسي نشوة حلوة عبقرية الاثر كما لو كنت أحضنها بين ذراعي وأدور معها على أنغام الفالس • وكأني معها كما كنت اول مرة في المستشفى ، وفي الغرفة نفسها ، يوم دخلت فنكأت بنظرتها الاولى جراحات نفسي • نفسي التي آلت أن تضمد جراحها وان تخمد بركانها باثقال الارادة منذ عهد قريب • وما استطعت ان أقاوم وكأنما انشق صدري لينفر منه القلب يروح اليها يصدح مع نغمات صوتها الرنان ويرقص مع غصنها الميال ، ويتوه في آفاق أحلامها البكر ، أحلام الصبا والعذارى • مسكين يا أنا ! أين قلبي ؟ قد أستطيع العيش بدون عقل ، بلا نظر ، بدون سمع ، ولكن أنى لي هذا بلا قلب ، وحب ؟!

وقفزت من فراشي ولست أدري ما الذي دفعني • ووليت وجهي شطر نافذة سمحة كرمة تمدنا في ليالي الصيف باعذب النسيم • واخذت املأ رئتي بالنسيم الرقيق وأعب منه • فلم لا ؟ لعله مر على جسدها الغافي وحمل لي بين طياته التائهة المتقلبة انفاسها الطيبة وعبيرها الذكي • ما أغرب الحب !؟ انه يتحف الحياة بابدع الآثار واطرفها • فقد تجسد الوهم وغمرني عبيرها ولفني بعاصفة من تصوراتي • ها هي ذي صورتها مرسومة في الافق موشاة بلون الذهب الاحمر من خيوط الفجر المشرق • وتلمست اتقرى باناملي المرتعشة بشرتها الحنطية المشوبة بلون الزهر • يا لعينيها البنيتين بلون البندق ، وشعرها كليل بلا قمر • ليس فيها نشاز ولا فرط في التناسب الى حد الجمود • ان ما فيها لسر جاذب لا يقاوم ، وحسن حلو حالم ، رقة كالطفولة الغافية في نوم هانىء عميق • دعتني بالحاح لحمايتها من لفحة الحر فلبيت النداء مسحورا ونشرت عليها شغاف قلبي • ودغدغ النسيم غرة مدللة تتماوج فوق حاجب فاتن على جبين وضاح ، فقفزت يدي تنضدها • ياللغرابة ! انه زجاج النافذة • وضحكت من وهمي ، ثم وجدت نفسي من جديد بجانب طفلي الفه بذراعي أب يتمنى أن يذوب في ولده وان يندمج فيه • ليس لي دواء سواه ليس لي من يشدني الى الحقيقة ويربطني باوتاد الواقع الاه • خبأت رأسي في صدره الحبيب ، صدره الخفاق الحار ، صدره الصغير المعطر برائحة تعرقه ، ونشقت بعمق كعادتي • ويا لدهشتي ! اليست رائحته قد تغيرت؟ ألايحمل شذاه شيئا من عبيرها ؟ أو لا يمتزج به الامتزاج كله ؟ •

اني لست ممن يحشرون القدر في كل شاردة

وواردة وانما قد لمحت قدري في عينيها عندالنظرةالاولى. وهأنذا خلف مكتبي الكئيب ، تكاد تسيل نفسي مع مداد القلم ، أدون ذكرى لقائنا الاول . كنت على ذلك الكرسي « وقدمي قد التأم كسرها بين قرصين زجاجيين » يرسلان امواجا قصيرة . وقد اوحت لي جلستي هذه خلف الجهاز أوهاما سبحت معها . فانا تارة غاغارين يسبح في الفضاء ويرقب الارض الملساء الصغيرة السابحة من تحته لا تستند على شيء . ووجدت نفسي مرةأخرى أغزو نجمة المريخ وأتصور المسافة الكبيرة التي قطعتها فكم انا عظيم ! او ليست جنان الخلد التي وُعد الله بها ؟ فالحور العين .. وزقزق الباب ودخلت وتوجهت الى الممرضة تكلمها واختفى خداها بين قرصين زجاجين صغيرين خلف الجهاز الثاني يا لسعدها . واخذت بالمنظر الجميل ، بالخدين الورديين ، وبالاشعة المختلطة بنور خديها ليتني كنت اشعة . ورحت أثرثر بصوت عال علني اثير انتباهها .

خطوت نحوها وعيناي عالقتان على وجه ازداد احمرارا وتندى بحبات من جمان بللت الجبين المشرق الوضاح ثم تدحرجت على خدود وردية ناعمة عطشى . يا آنسة !.. وسمرت في مكاني . وأحسست بالارض تميد بي فما الذي دهاني ؟ ولم تفتح عينيها . تمالكت أعصابي وناديت :

ـ يا آنسة تعالي وخففي حرارة الجهاز فان وجهها يكاد يلتهب حرارة فوق حرارة .. توقعت كلمة نابية او شيئا مشابها ، ولكنها رنت لي بطرف ساحرونظرة ملؤها الدلال وقالت :

ـ ماذا تعني حرارة فوق حرارة ؟ ارتبكت بادىء ذي بدء وتعثرت الكلمات بين شفتي الجافتين فبلعت ريقي واجبت ببرود مصطنع .

ـ والله أخاف ان أحرج مركزي ولكني أحب الصراحة انني أعني حرارة الجهاز الصبا والحياة . افتر ثغرها عن لؤلؤ بديع قضى الله في تنضيده وقتا طويلا . ثم اغمضت عينيها وكأنما راحت في غفوتها الحالمة تستعيد جوابي الجريء وتدرس في مخيلتها ملامحي فلقد شعرت باني خرجت من ذاتي لاسبح في سديم فكرها واحوم في آفاق خيالها .

فتحت باب السيارة :

ـ أهلا بك ! بيد اني اعتذر عن قذارة السيارة والغبار العالق بها . هي لا تليق بمقامك . كنت البارحة في صيد القطا ولم أجد وقتا لغسلها . وانتقل قلبي الى اليمين دوما بقربها وانطلقت السيارة تطوي الطريق الاسود الملتوي ، سيارتي نشوى فرحة ، تتمايل سكرى وتتيه خيلاء بالجمال الذي ضمته في قلبها . وافقت من نشوتي على صوتها :

ـ اسمع بعض القرقعات ..

ـ بل قرقعات وقرقعات . فانا مقرقع ، وكل شيء من حولي حتى حياتي بكل ما فيها قرقعة واضطراب .. غرست نظرتها في عيني وهي مملوءة باحساس لم استطع فهمه وقالت :

ـ غريب ! ان مظهرك وانطلاقة نفسك لا يدلان على نظرة متشائمة ..

وبصرت نفسي بعد جدل ونقاش طويل ، أمام انسانة مثقفة تشابه طويتها نفسي . جمعتناالآلاموالاشجان ووحدنا ، داءالعصرالحديث ، الضياع والتمزق . وغزت نفسينا اللوعة العميقة . كل منا يشعر بتفاهة الحياةويؤمن ان مصير الكون حتما الى الزوال . كل منا يأسف ان يكون مصير أكبادنا الى التراب تموج فيها ديدان الثرى ويعيث فيها التفسخ بعد ان كانت معمرة بالامال يمور فيها الحب وتجوش فيها الاماني . ولم تختلف سوى في فكرة أصيلة هامة هي اني وجدت نفسها مشوبة بالشك بان في امكان الانسان ان يعرف الوفاء والاخلاص . هي لا تريد ان تؤمن او ان تصدق ان في ضمائر البشر مكان متسع لقلوب صادقة محبة . قالت :

ـ « لعل الانسان ذئب الانسان » وعذرتها فلعلها مرت بتجربة قاسية . أما أنا فاني أحب الانسان كل الانسان . أنا أثق بالانسان بعقلي والهامي . أنا مخلص

وفي لكل مخلوق في الكون . ولعل هذا سبب ضياعي في ذاتي وفي كل ذاة ، أحيا في كل نفس ، وأشارك كل فرد أعراسه ومآتمه . اضحك مع الضاحكين ، وابكي مع الباكين ، وما اندر ما ضحكت ؟! وما اكثر ما بكيت ؟!

ودعتني بنظرة ناعسةوابتسامة ناعمة ، وغابت خلف باب دارها ومصراعاها مفتوحان ومن خطوتها تسيل الحيرة ولعل في نفسها صراع كما في نفسي صراع ، رحت ضجرا من زيف كل شيء في حياتي ، حتى أقاربي وأصدقائي حتى امرأتي وولدي . أحسست ببواكير الحب تتفتق في أرجائي . وتضخم الفراغ في عمق نفسي فما امر طعم الفراغ وما اعمق الهوة التي يحفرها في أغوار الذات ! يا لشقائي فيما انا مقدم عليه . فليس هذا هو حبي الاول وليس هذا هو كأسي الاخير. كم أحببت وكم قاسيت ؟ أنا أوافق بان للفرد حب واحد فحسب او ليس يخطىء هذا الذي يؤخذ برنة اللفظ ، وبموسيقى الشعر فيؤمن بمن يقول « ما الحب لا للحبيب الاول » لقد خبرت الحب مرات وجربته وتفاعلت مع صخبه مرات ومرات . تجارب الحب هي التي خطت للشروق دروبا في رأسي ، تجاربي نابضة ، حية عنيفة مبللة بالممنوع ، محروقة بالشوق . كم أحببت فغابت من حياتي تلك النظرة الصادقة الى المفاهيم وما بقي في كياني سوى موضوع حبي يلاحقني كما تلاحق الاشباح النفوس المريضة ، ويصبغ نظرتي الى الحياة بلون الغيرة الحمراء القاتلة ، ونزوات الطيش والتسرع . التضحية؟ لقد اتت هذه الكلمة عفو الخاطر . نعم في كل مرة يغزو فيها الحب نفسي يتثقف شعوري به ويصبح أكثر وضوحا وعمقا ، ويزداد استعدادي للتضحية ، فهل أطلق لنفسي عنانها في هذه التجربة الجديدة ؟ هل اتركها تحب وتسعد بكأس الوصل ، ثم ادفع ثمن الوصل والفرحة دموعا وولوعا ؟ هل سأبذل عصارة النفس في هذه التجربة كما في التجارب الماضية ؟ ماذا سيكون من امر اسرتي ولم يمض على آخر خلاف فيها الا اشهر قلة ؟ ثم اين ارادتي ؟ تجلد يا هذا ! او لست تتصف بفكر متحرر من منطق العاطفة في اكثر المواضيع ؟ ها ! في اكثر المواضيع سوى موضوع الحب ! هل سيهزم الحب ارادتي ؟ هل اوطد علاقتي بها أم أصرف النفس والقلب عنها من أجل اسرتي وكيان داري !..

ورحت ادور في دوامة القلق المؤلم ، والحيرة المريرة ، بين صرخات القلب واسترحامه ، وبين افكار الواجب المقيد الثقيل . سأذهب الى الموعد . يجب الا أبتعد عنها . وهل استطيع ؟ وكيف ؟ والشوق يعزف على قيثار فؤادي ألف ألف نغم ونغم . أنا قد خلقت للحب وحسب . أنا قد نذرت حياتي له وعشت في محرابه أصدح بالحانه واغرد على افنانه وارتل آياته ترتيلا . لم أخاف منه ؟ لم أجد نفسي لاول مرة مترددا في اقتحام معابده ؟ الواجب يناديني ، واجبي نحو اسرتي سيما انه واجب سطحي اذا ما قيس بواجب الفرد نحو أمته ووطنه . الزمن يمضي سريعا عاجل الخطى وفي كل لحظة تمر أخطو خطوة نحو القبر ، فهل تستحقه هذه الحياة الواهمة بكل ما فيها من عرف وتقاليد ، بكل ما فيها من جمال حتى القبح ان يعاقب الانسان نفسه فيها بالحرمان الكبير حرمانها من الحب ؟

وعربدت الاماني ، وطفح الشوق ، وانتصر الحب على الواجب ، ووجدت نفسي معها على طريق دمر ، بين أحضان الرياض الوارفة ، والطريق الحالمة التي طالما حنت على العشاق الوالهين . وكان سمر ، وكان دلال ، وكان خجل . وتحققت آنذاك اني أسير حب عظيم ، رائع ، مبدع ، خلاق .

ـ هل أنت جاد فيما تقول ؟

ـ اسألي قلبك . بيد اني خائف من نتائج حبي . فهو عنيف ، جارف .

ـ وليكن .. طالما يجرفني معك . ولكن لو انك أحببتني حقا لما وقفت موقف الخائف المتردد . لو أحببت وحبك جارف كما تدعي ، لاندفعت دون ان تشعر بقدرتك على التردد . ألم أقل لك انه ليس في امكان الانسان ان يحب ويخلص ؟

– من قال لك ان خوفي وقلقي دليل على عدم حبي ؟ القلب لا يحيا الا بالقلق . النفس لا تعيش الا في الحيرة والاضطراب وهدوء النفس موت وقتل للنفس ..

يا الهي ! ماذا جنيت ؟ أنا حائر ، تائه ، معذب ، أنا في جحيم من اضطرابي وحيرتي . أنا .. يا الهي ! ما هذا الصراع الذي لازمني مذ قابلتها ؟ ولدى يبكي يود الخروج معي ، وقد قرب موعدنا الثاني . تصطخب في نفسي عواطف وتجوش فيها أفكار وآراء . الواجب . الاخلاق ، كيان الاسرة امرأتي المخلصة ، ولدي الجميل الذكي ، ولدي الصاخب بحيويته ، وعيونه الخضراوين الباكيتين ، ولدي الثاني في طريق النور . ماذا سيقولون اولئك الذين يعيشون معي ، أهلي اصدقائي كل من حولي ولما تكتمل فرحتهم ببناء كيان أسرتنا من جديد ؟ حبي لها ، شوقي العنيف الملحاح ، جمالها الآسر ، رقتها الحالمة ، لآلىء عينيها ، رائحتها الغامرة . الحب . الحب مذهبي ، الحب حياتي . حياتي بدونه مستحيلة ، قلبي يئن ويصرخ ، قلبي يسترحم ذاتي . ذاتي تبكي على قلبي ، هو يكاد يقفز من صدري اليها دوني . آه ! آه ..! أنا في صراع . أنا في عذاب مرير . أنا في جحيم أذوب مع نيرانه . اللوعة الضخمة تكوي أحشائي . هل أذهب ؟ وهل اكرر الذهاب ؟ قسماتها دوما في صميم خيالي ، بسمتها الحلوة بين عيني وعلى صفحات ناظري . رائحتها الذكية وأنفاسها الحارة تملأ آفاق احساسي . ولدي يجدد البكاء « بابا ! خذني معك الله يخليك » فهل أستطيع أن أصم أذني فاقفل قلبي دون ندائه وتوسلاته ؟ هل اتركه يبكي ويلتاع واذهب اليها ؟ امرأتي تنظر الي بصمت وبعيون ترجوني الا اترك ولدي يبكي فهو مريض منذ أيام . انها في انتظاري .. وأكاد أشتعل من شدة الحرقة وفداحة اللوعة . نعم هي في انتظاري قلقة ، حائرة بلهفتها ، تسائل الطريق الطويلة العاجة بالسيارات ، تسائل الافق الجامد بعينين زائغتين عن سيارة زرقاء كزورق في عرض البحر . انها في الافق ، سيارته الزرقاء تلمع من بعيد . يالله ! يا لفرحتي ، ها هو قد أتى . سأسمعه كلمات عتاب قاسية . لقد تأخر عن الموعد دقائق هي كالدهر الطويل . هي في هذا الافق الجامد كالعدم المطلق ، وفي نفسي الحية الصاخبة كيوم الحشر . ها هي ابتسامة عريضة تنطلق معبرة عن رضاها ، وتمتد يدها الى خصلات شعرها تسويها وترتب الغرة الفاتنة فوق الجبين الوضاح . سيارتي الزرقاء اللامعة تقترب . ها هي تهم بالركض الى المرآة كآخر نظرة قبل ان تلقاني . وتبقى متسمرة في مكانها . هي سيارة صغيرة كالعلبة ، زرقاء وانما ليست سيارتي . اسرتي تزداد قلقا في كل لحظة ويشتد لهيبها في كل ثانية . سيحرقها اللهيب . ويحطم قلبها القلق وتهدم كيانها الخيبة . انها على أبواب مأساة جديدة تثبت وتدعم نظرتها الى الحياة وتزيد من يقينها بانه ليس في امكان الانسان ان يخلص وان يكون وفيا . انا انسان ، انا بنفسي نفيت لها ذلك واثبت لها عكسه بالحجة الدامغة بنفسي سأمثل لها اني ذئب الانسان . سأمثل لها ذلك رغم اني سأحترق مثلها ، سأتحطم معها متطوعا ، في فؤاد عميق أعمق من شعوري اعمق من ان يدركه احساسي بالحياة . ومن خلف لي هذا الفراغ ؟ أهو واجبي نحو اسرتي . أهو ولدي ، وحكم الناس على سلوكي . كم ضيعت في الاوهام عمري . لم تكن حياتي في يوم من ايامها سوى عبث لا طائل تحته وفراغ لا جدوى فيه . حياتي هكذا دوما فراغ وضياع . كل شيء سوف يفنى ان أحببت وسعدت أم حطمت قلبي وكل قلب . نعم كل شيء سوف يزول ويفنى والوجود وهم وسراب . ولأكن ذئب الانسان في نظرها ، وليتحطم قلبي على صخور الواقع وتحت أثقال الواجب وياويح قلبي كم حب وكم تحطم ..

محمد عيد الفقير

عمري

شعر : ناديا نصار

لم يكن عمري سوى صدر كئيب
حاله الحزن الى داء مريب
عشته محرومة من كل طيب
عشته العمر كاني في مشيب
لا أرى في ناظري غير شحوبي
وقضيت العمر في سهد رتيب

بعد ان آلت حياتي للغروب
وتوارت في شهاب من لهيب
لم ولم يبق سوى ذكرى حبيب
ايها الذكرى اذيبي .. واذيبي
وخذي من قلبي الذاوي .. وجيبي

بانياس ــ ناديا نصار

مثل صيني

قصيدة نظمها بالفرنسية الشاعر
(شريف الخزندار) ونقلها الى العربية
الدكتور شكيب الجابري

(المرأة زهرة ، والرجل نحلة ، ترف من زهرة الى زهرة)
ــ مثل صيني ــ

ذبلت الوردة

* * *

قد مرت بها نحلة
فاستلبت منها
الرحيق والنضرة
وانكفأت توا
في عريها تذوي
وطافت النحلة
فقادها المسرى
لوردة أخرى
لاحت لعينيها
عذراء ، قد ماست
في حسنها الابهى
في خفر ، جادت
للصب بالقرب
بالحب ، بالنجوى
بالشم ، باللمس
بالعبث العاتي
بساحر الهجس
أعطت هي الاخرى
رحيقها الصافي
حليبها الشافي
وريقها العذبا
والروح ، والوجدا
وانكفأت تذوي
في فرط اعياء
ظلت النحلة لا تألو طوافا
وهي أقوى
ثم لا تنفك تزداد نشاطا
وهي نشوى
والذي أعطته أجساد الضحايا
ترك المهجة حرى
ثم لاحت زهرة السوسن تعرى
بين أنداد ملأن الحقل عطرا
فرأتها أجمل الازهار طرا
تستبي ناظرها حسا وفكرا
حاولت في كل جهد واقتدار
جني ما تحوي عليه ، من نضار
كلما النحلة ظنت
أنها نالت عطاءا
كانت السوسن دوما
تتبع الجود سخاءا
وببشر ،
رحبت بالنحلات
البشمات
والتي ما زلن دوما
نهمات
عبت النحلة عبا
ما روت منه صداها
من شفاه معطيات
ما ونت تهدي لماها
كلما السوسن جادت
وتمادت في سخاها
رامت النحلة فضلا
ومزيدا من عطاها
وانبرت لاسعة زهرتها
وانثنت تاركة حمتها
وانتحت ، في نجوة ، هالكة
حيث تقضي ــ فوق روث ــ نحبها
أما الوريدات اللواتي
غمست في رجسها
فهي لم تقو ، ولم
تسطع بكاء نفسها .

دفنوه بلا كفن

شعر : تيسير سطاس

مات بالامس جائعا
ومفاصله ترتعد من البرد
مودعا سنابل القمح الذهبية
وآبار البترول والقطن ..

* * *

لقد دفنوه بلا كفن
ولكن في أرضه
ما أروعه ؟
وهو على أكتاف الرفاق
والعلم الثائر يحتضنه
معانقا التراب

* * *

ما أجمله
وشعره الاشقر لم يعد يلمع
ووجهه الابيض تحطم
وابتسامة الشباب على ثغره
تمنيت أن أكون مثله
هيهات أن أصل أرضه

* * *

هذا الوجه أعرفه
انه وجه أخي ..
صعب المراس كشعبي
ولكنه طيب
هذا حروم ، عذبوه وأهانوه
ما ذنبه ؟
ألأنه صاح :
« شعبي يموت من البرد ،
والبترول في أرضه »
قضوا عليه حين أتمم :
« شعبي يدفن بلا كفن ،
والقطن يجود في سهله »
ما حياتي وأخي مات قتلا
وشعبي مات تشريدا ؟!!

* * *

لقد تعودت الألم
وشيعت اخوتي ..
ممدوح وعلاء وكمال
كانوا أعز أحبتي
ما ذنبهم ليموتوا بردا وجوعا ؟!
ويدفنوا بلا كفن ؟
والبترول والقمح والقطن والثلج
في أرضهم ؟!!

التمر ... والصيام

شعر : شوقي جلول

يا طقوس الجاهليه
يا محاريب الدجيه
يا كهوف اللات والعزى
ووهم الوثنيه
بعد طوفان الليالي
عجبا
ما زلت حيه ؟
فوق باب الامس
أحرقنا
وشنقنا
مفاهيم الخطيه
ورششنا فوق نار الغرس
كالشمس
مدى الابعاد نارا يعربيه
وفتحنا لجياد الفكر
مذ أدركنا الحق ميادينا
قصيه ..
صنم التمر أكلناه
وكسرنا البقيه ..
رغم طوفان الاضاحي
في بطاحي
أنا كرمان بطاحي
عاشق عمق جراحاتي
النديه
ابتني منها صباحي
أنا لن أدفن في السلم
سلاحي
لكفاحي
عشت ما هبت رياحي
أنا في صحو جراحي
مارد عملاق
أبيض الآفاق

يبني مؤمنا
بالحق
دنياه الهنيه
لن تعودي
يا سراديب الصديد
أنت ياسود العهود
لن تعودي
كرة أخرى
الينا
أو علينا
يا طقوس الجاهليه
أيها المضرم
في الاكباد
نار العصبيه
أيها الموقد
في الاعماق
جمر الطائفيه
أيها الملهب بالصيحات
تضليلا براكين الحميه
أيها الموحل دربي
لم تعد رمزا لصحبي
لم تعد ربا لشعبي
شعبي الحامل في عينيه
صبح المجد لا يرضى العشيه
شعبي الحاضن مجد الكون
لا يرضى على ثاراته
الكبرى
وصيا أو وصيه
شعبي الجبار
كالاعصار
كالاقدار
كان للغايات

للشهوات
يارب : الضحيه
لم تعد ربا لشعبي
لم تعد ربا لانسان
صغير
باع للشيطان من
خانوه في يوم
نكير
وصحا ينفض عن جفنيه
كابوس الرئاسه
وقراصين السياسه
شعبي الطماح
لم يعرف مدى ايامه
سوق النخاسه
لم تعد ربا لشعبي
أيها المغزول
من
مليون ذنب
فتح الشعب عيونه
وجفونه
وصحا يصنع للحق يقينه
كان لا يهوى ظنونه
وغدا يهوى ظنونه
أيها المجدول من حبل الخطيه
ما ترجي أيها الناكر
تاريخي وتاريخ الاخيه
حدثونا عنك يوما
انما انت اله
ردد الزعم الحواشي
انما انت اله
تطعم الاحرار موتا
وسوى الاحرار جاه

تصنع الموت لمن شئت
وتعطيه الحياه
أنت يا انسان
هل حقا اله
أنت يا ابن الموت
سموك : اله
يسجد الشعب على أعتابه
سمر الجباه
ضارعا يرجوه تجديد الحياة
هل سمعتم باله
يجبل المخلوق بالجمر دماه
هل سمعتم باله
ثارت الخلق عليه
وبكى الشعب على
مأساته
في ناظريه ..
عجبا ينداح فوق العجب
روجوا عنك نبي
يا لهذا الشعب كم كان غبي
يا لهذا العقل كم كان صبي
ثم قالوا
أنت أعلى من سويات البشر
أنبياء الله - يا انسان -
كانوا كالبشر
هكذا كان عمر
أنت عمر
هكذا قالوا ..
أتيت اليوم كي
تمحو الدنيه
تملأ الدنيا وقد ضلت
بميراث حضاري

جديد
من عهود السلف المؤمن
بكر والرشيد
مرة أخرى مع التاريخ
عشنا بالاسى
عصر يزيد
والاسى ثوب حديد
عاد للاحفاد
حجاج العراق
يغزل التاريخ
للاسياد
كالامس الشهيد
لحواشيه العطايا
وسواهم
أبجديات الحديد ..
كلكم راع وراعي
الرب مسؤول أمام
الله عن حال
الرعيه
وغدا أمر الرعيه
للولاة الحمر
ميراث وصيه
لم تكن ربا
ولا نصف نبي
لا ولا حتى من الالقاب
لم تحرز سميه
نحن شئناك لغار الثأر
انسان قضيه
نحن شئناك لدين المجد
ان تضحي نبيه
نحن شئنا غير ما شاؤوا

من التضليل والتطبيل
والسم وتوليد الاذيه
نحن شئناك لدين
العرب والدنيا
فراقين قضيه
نحن شئناك لحطين
واوراس وأرضي العربيه
وظننا فيك
يا مبعوث
يا للوهم
سعد القادسيه
بابتسامه
الف شلال ابتسامه
أنت لن تبني زعامه
أنت لم تشمخ قامه
نحن علمناك ما تعني
الكرامه
نحن أجلسناك في كرسي
الزعامه
نحن شئناك لجيش الحق
في الزحف اسامه
كيف ترضانا لكف الذل
ان تخفض هامه
لا تقل شعب صغير
شعبنا رب الكرامه
نحن علمنا فرنسا
يومنا يوم القيامه
لا أراح الله قلبا
لم يعش جرح الرعيه
عاش في دنياك خلوا
من تباريح القضيه

شعراء المهجر يلقون الوطن

بقلم : فريد جحا

اخوتي من الشعراء الذين كانوا يذوبون في مهاجرهم وجدا وشوقا للقاء الوطن في شعر الحنين يؤلف ديوانا ضخما من أجمل الشعر .. ترى ماذا يقولون حين يتاح لهم لقاء الوطن ؟ سؤال يجيب عنه هذا الحديث وما سيتلوه من أحاديث[1]

وطن النجوم والمهند والكتاب

لولاه ـ فيما أعتقد ـ ما سمع أحد عن قريته (المحديثة) التي وصفت بأنها : « جارة بكفيا التي يحييها صنين مع الشروق وتجثو عند أقدامها التلال والاودية وأشجار الصنوبر والسنديان المتعالية على السفوح والهضاب »[2] .

انها قرية صغيرة لم يعرفها تاريخ الادب الا أنها المكان الذي ولد فيه شاعر المهجر الكبير العظيم (ايليا أبو ماضي) حوالي عام ١٨٩٠ .

هجر القرية بينما كان القرن العشرون يخط سنته الثانية الى الاسكندرية ثم الى الولايات المتحدة عام ١٩١٢ بعد أن أخفق في التجارة ونجح في التزود بزاد طيب من اللغة العربية وفي اصدار ديوان شعر . أقام سنوات أربعا في (أوهايو) تطورت فيها شاعريته تطورا عجيبا . ثم أم (نيويورك) حيث شارك في (الرابطة القلمية) وكان من أعضائها البارزين العاملين . أدركته (حرفة الادب) فلم يوفق في التجارة عمل حينا في تحرير الصحف ثم أصدر مجلة (السمير) شهرية عام ١٩٢٩ . وقلبها عام ١٩٣٦ يومية ، فضمنت له حياة كريمة لائقة . نال شهرة واسعة بشعره في المهاجر وفي الوطن لا بديوانيه الاول والثاني ولكن (بجداوله) عام ١٩٢٧ عام ١٩٤٠ ، ثم (بتبر وتراب) الذي طبع بعيد وفاته في أواخر عام ١٩٥٧ .

وفي شعر ابي ماضي عامة وفي (الخمائل) خاصة كثير من شعر الحنين . ولقد كان يود قبيل وفاته أن يقضي الصيف في (وطن النجوم) « يتطبب بنسمات الارز من علة قلبه ، فيسترد نشاطه ويجمع ما انتثر من منظوماته »[3] واذا كان قد توفي دون أن يتاح له زيارة لبنان في ذلك العام فقد أتيح له أن يزوره ويزور الاقليم السوري مرتين . أولاهما عام (١٩٤٨ ـ ١٩٤٩) والثانية في عام ١٩٥٧ وكان وحي اللقاء الاول قصيدتين أولاهما في (لبنان) والثانية في (الشام) وكلتاهما تحتل الصفحات الاولى من ديوانه الاخير (تبر وتراب) .

لعل الطائرة التي حملت (ابا ماضي) الى الوطن في ذلك اليوم من أواخر عام ١٩٤٨ قد اوصلته اليه في الليل عندما تلتمع القرى المتناثرة فوق الجبل كالنجوم ؟ نعم ان لبنان (وطن النجوم) جمالا ورفعة وعزة شأن وهكذا أطلق الشاعر على وطنه هذا الاسم ورضي عنه ثم مضى يتذكر ..

كم مضى عليه منذ غادر الوطن حتى اليوم ؟ عشرون ؟ ثلاثون ؟ أربعون ؟ خمسون سنة ؟ لا انها ست واربعون سنة .. يا الله نصف قرن من الزمان مضى على تلك السنة التي ترك فيها الشاعر وطنه ..

انه زمن طويل مديد نسي الوطن فيه شاعره . فليسأله هل يعرفه ؟

---

(١) انظر العدد الماضي من الثقافة .

(٢) ـ عيسى الناعوري في (أدب المهجر) ص ٣٧٥

(٣) جورج صيدح (جريدة الحياة) ٢٨/١١/١٩٥٧

انه لا يكاد يتعرف عليه .. فليقدم نفسه اليه ..
انه ذلك الفتى الغرير الارعن الذي يمرح في الحقول كالنسيم ليقتني ما له وما ليس له ، وليتسلق الشجرة بعد الشجرة يقطع أغصانها ليصنع منها سيوفا أو رماحا .

وطن النجوم أنا هنا
حدق أتذكر من أنا
المحت في الماضي البعيد
فتى غريرا أرعنا
جذلان يمرح في حقو
لك كالنسيم مدندنا
المقتنى المملوك ملعبه
وغير المقتنى
يتسلق الاشجار لا ضجرا
يحس ولا ونا
ويعود بالاغصان يبر
يها سيوفا أو قنا

ولما لم يذكر ، الوطن كما يريد مضى في تقديم نفسه اليه : انه ذلك الولد الذي كانت دنيا ، كلها في هذا الوطن . انه قطرة من مياهه فاضت جداول من نور ، وذرة من ترابه استحالت الى رائع الاماني ، وبلبل من طيوره غنى بمجد الوطن فأصبح أغنى الناس مالا وفنا وسؤددا :

أنا ذلك الولد الذي
دنياه كانت ههنا
أنا من مياهك قطرة
فاضت جداول من سنا
أنا من ترابك ذرة
ماجت مواكب من منى
أنا من طيور بلبل
غنى بمجدك فاغتنى

هذا الولد أيها الوطن العزيز .. كم عانقت روحه رباك ، وصفقت في منحنى الوادي . للارز الخالد يهزأ بالفناء وبالرياح .. للبحر حمله الآباء والابناء حضارة ومدنية . لليل المنشور على الدنيا وللفجر المؤذن بالنهار . للشمس الساطعة التي تطيل المقام فوق ذراك حبا وشوقا وللبدر الساجي الذي يكحل بضيائه أعين المهى فاذا فيهن السحر واللطف . للحقل يقدم بعفوية الزنبق والسوسن وللعشب المثقل كالندى تحت الغصن المثقل بطيب الثمر :

كم عانقت روحي ربا
ك وصفقت في المنحنى
للارز يهزأ بالريا
ح وبالدهور وبالفنا
للبحر ينشره بنو
ك حضارة وتمدنا
لليل فيك مصليا
للصبح فيك مؤذنا
للشمس تبطيء في ودا
ع ذراك كيلا تحزنا
للبدر في نيسان يكحل
بالضياء الاعينا
فيذوب في حدق المها
سحرا لطيفا لينا
للحقل يرتجل الروا
ئع زنبقا أو سوسنا
للعشب أثقله الندى
للغصن أثقله الجنى
لقد زعموا أني سلوتك ياوطني
ألاليتهم نسبوا الي أمرا ممكنا

فقد ينسى المرء الاساءة والاحسان ، وقد يسلو الخمرة والمليحة والوتر المرنح والصوت الرائع وقد يسهو عن مرارة الفقر وذله ، وعن لذات الغنى الكثيرة ، ولكن هيهات أن ينسى الوطن ..

زعموا سلوتك ليتهم
نسبوا الي الممكنا

فالمرء قد ينسى المسيء
المفترى والمحسنا
والخمر والحسناء والو
تر المرنح والغنا
ومرارة الفقر المذل
بلى ولذات الغنى
لكنه مهما سلا
هيهات يسلو الموطنا

وكان لا بد لسوريا التي طالما تغنى بها ابو ماضي وحن اليها واعتبرها مع لبنان أفضل الاوطان وأجملها .. كان لا بد لسوريا أن تكرم الشاعر العائد ، فدعته الى دمشق وفي اليوم الثاني من شباط ١٩٤٩ أقيم احتفال ضخم برعاية رئيس الجمهورية السورية (حينذاك) قلد فيه الشاعر وساما رفيعا واحتفل به الادباء والشعراء وصفوة أهل الفكر والقى الشاعر في نهاية الحفلة (تحية الشام) .

واذا كانت تحية لبنان (موطن النجوم) قصيدة مجنحة اللفظ فيها الموسيقى والسلاسة والعذوبة فان تحية الشام قصيدة فخمة في مطلعها ووزنها والفاظها وقوافيها .

تحية لك يا دمشق يا مدينة الابطال والعلم والادب تحية لغوطتك الخضراء الجميلة ولمحرابك الذي شهد أمجاد أمية . ان هذه القباب التي وقفت تحيي المقبل اليك ليست قبابا بل هي عزم تمرد على المعتدين ، على الزمان ، على الفناء ثم استطال في السماء قبابا .

حي الشام مهندا وكتابا
والغوطة الخضراء والمحرابا
ليست قبابا ما رأيت وانما
عزم تمرد فاستطال قبابا

أما بردى الضاحك المرح المتلوي بين التلعات يناجيها فلا يدري الشاعر ما هو ؟ أهو روح علوية أطلت من السماء فرأت هذا الجمال . فذابت في ماء جرى في نهر لذلك أوشكت ضفافه أن تنساب وجدا اليه ؟ أم هو دموع ذرفتها حور الجنان من السماء الى الارض ولم تستطع اعادتها مرة أخرى فجرت صافية تذكر بالعيون الجميلة التي سكبتها .

واهبط على بردى يصفق ضاحكا
يستعطف التلعات والاعشابا
روح أطل من السماء عشية
فرأى الجمال هنا فحن فذابا
وصفا وشف فأوشكت ضفاته
تنساب من وجد به منسابا
بل أدمع حور الجنان ذرفنها
شوقا ولم تملك لهن ايابا

فاذا انتهى الشاعر من حديثه عن بردى واعجابه به ذكر ذلك الشهيد الموسد في ميسلون والذي مر الشاعر بقبره في طريقه من بيروت الى دمشق . انه الشهيد الذي قدم حياته فداء لوطنه فلما دفن في ميسلون اهتزت هضباتها فرحا وتنفست عطرا . وأطيابا احتفالا بمقدمه . وفي السماء كانت لروحه فرحة أخرى فلقد بلغ حديث شجاعته وبطولته النجوم فتهافتت من عليائها لتغدو له حراسا وحجابا . وليس هذا غريبا فلم يكن (يوسف) الشهيد بطلا واحدا مات ، بل هو موكب من النور المتلألىء صعد في السماء وتغلغل بين الشمس وغاب انه الانسان العظيم الذي تاق الى الموت تحت التراب لانه لم يكن يطيق رؤية الاغراب في دمشق . وهذا شأن الابطال دائما اذا نبا بهم العيش فأصبح ذليلا ماتوا ميتة الكرام :

بأبي وأمي في العراء موسد
بعث الحياة مطامعا ورغابا
لما ثوى في ميسلون ترنحت
هضباتها وتنفست أطيابا
وأتى النجوم حديثه فتهافتت
لتقوم حراسا له حجابا

ما كان يوسف واحدا بل موكبا
للنور غلغل في الشموس فغابا
هذا الذي اشتاق الكرى تحت الثرى
كي لا يرى في جلق الاغرابا
واذا نبا العيش الكريم بما جد
حر رأى الموت الكريم صوابا

وعلى نهج الشهيد يريد الشاعر من الشباب أن يسيروا : انه يزهى فخرا بالفتى يهوى الحياة جهادا ونضالا ، وينشر المسك كلما ادلهمت الدنيا حوله وعركت قلبه الوثاب ، ويكون ماء في الصحراء القفراء ، وشهابا في الليلة الظلماء .. انه يحب الفتى الذي يبني أملا جديدا من رجاء خاب في دنيا تهدمت فيها صروح الآمال :

اني لازهى بالفتى وأحبه
يهوى الحياة مشقة وصعابا
ويضوع عطرا كلما شد الاسى
بيديه يعرك قلبه الوثابا
ويسيل ماء ان حواه فدفد
واذا طواه الليل شع شهابا
واذا تقوض صرح آمال بنى
أملا جديدا من رجاء خابا

واذا كان الشاعر يعجب لشيء فهو أن وطنه يعيش حياته هادئة كأنه ليس في حرب مع عدو ضار واقف له بالباب ترى كيف يستحل قدم الشاعر لانفسهم اللهو واللعب وعلى حدودهم يقف العدو اليهودي الماكر الذي دخلوا ضده الحرب ثم توقفوا .. والذين تخاذلت سيوفهم عن سحقه حين أصبح النصر وشيكا . يا ويحهم كيف تركوا الحسام الى الكلام !. ألا ليت السيف لم يدخل غمده . بل يا ليته لم يعرف الغمد :

عجبا لقومي والعدو ببابهم
كيف استطابوا اللهو والالعابا
وتخاذلت عن سحقه أسيافهم
في حين كان النصر منهم قابا
تركوا الحسام الى الكلام تعللا
يا سيف ليتك ما وجدت قرابا

أما الوطن ، وطن العروبة ، فقد غدا غابة واحاطت به الذئاب والافاعي من كل جانب . فليكن له عوض المطارف لباس من حديد ، وبدلا من اللسان مخالب وأنياب . ففي هذه الدنيا التي تسود فيها شرعة الغاب ، لا قانون الا قانون المخلب والناب ، ولا كلام الا كلام القوة ، أما الشكوى والعتاب فهما شأن الضعفاء الذين يموتون في الغابة دون أن يدري بهم أحد :

دنياك يا وطن العروبة غابة
حشدت عليك أراقما وذئابا
فالبس لها ماء الحديد مطارفا
واجعل لسانك مخلبا أو نابا
لا شرع في الغابات الا شرعها
فدع الكلام شكاية وعتابا

الشاعر الدرويش

بقلم : أمين حرب

كنا طلابا صغارا في الصف الرابع الابتدائي عندما فتح معلمنا كتاب قرائتنا وأخذ يقرأ علينا :

يا ثلج قد هيجت أشجاني
ذكرتني أهلي وأوطاني
بالله قل عني لجيراني
ما زال يرعى حرمة العهد
يا ثلج قد ذكرتني الموقد
أيام كنا حوله ننشد
نعنو لديه كأنه المسجد
وكأننا النساك في الزهد

قال المعلم ان القصيدة لشاعر غريب بعيد عن أهله ووطنه ذكره الثلج المتساقط في أرض غربته الاهل والوطن وليالي شتاء بلاده الباردة المثلجة والموقد المتأجج وحكايا الشتاء وسهراته اللذيذة فبث حنينه الى كل ذلك في ثنايا هذه القصيدة . كانت القصيدة غفلا من التوقيع فلم يذكر المعلم اسم صاحبها ولعله كان مثلنا يجهل اسم الشاعر . والآن بعد مرور خمسة عشر عاما عرفت ان قصيدة « يا ثلج » هي للشاعر الدرويش او الشاعر الشاكي وقد تسمى بالاول اعلانا عن زهده في الغنى وفي السعي كما سمي بالثاني لكثرة شكواه من الزمان وحظه المتأرجح بين العسر واليسر وترديده زفرات الحنين الى وطنه .

ولعله محق في شكواه وهو الذي هجر وطنه في سبيل الرزق الى باريس ومانشستر الى أميركا الشمالية حيث استقر في نيويورك . كل هذا والحظ ما يكاد يبسم له مرة حتى يتجهم مرارا فلا يتمالك أن يهتف :

رباه ما هذا الطفر
فاسمح لعبدك ان كفر
للناس عيش طيب
أما أنا .. ياما أمر
أسعى ولكن لا أرى
للحسن في حظي أثر
ان كان بالصبر الغنى
أيوب مثلي ما صبر

وكيف لا يشكو ويندب حظه العاثر وهو الشاعر المرهق الخائب رغم كده وسعيه بينما كثيرون غيره يراهم دونه خلقا وسعيا تنهال عليهم الثروة وأسباب الرزق فيصعدها زفرة حرى :

رأيت اناسا لا مروءة عندهم
وارزاقهم في الارض لا تعرف الحدا
فاوشك قلبي ان يشك بربه
ولو كان هذا الشك يؤلمه جدا

هذا الاديب الذي تعززت بنزوله في نيويورك دولة الادب كما قيل لم يفنه أدبه شيئا رغم ان الهة الشعر حنت عليه فوهبته قريحة عذبة وحسا مرهفا ووترا حنونا فجمع شعره السلاسة والرقة والنغم الراقص والحلة البهية ولكن قدر لهذه « البضاعة » النادرة ان تبور :

وضربت اوتاري على نغم
جعل السماء قريبة مني
ودخلت عبقر وهي لي وطن
منها جملت بدائع الفن
واتيت بالاشعار صافية
كالكوثر السلسال في عدن

وظننت اني عدت منتصرا
فاذا بنفسي خيبت ظني
فالناس في الدنيا لجهلهم
لا يشترون بضاعة الجن

لم يشتر الناس بضاعته العبقرية ولكنه لم يعدم من يقدرها ويطريها ولكنه اطراء لا يسمن ولا يغني من جوع .

كم قائل لي قد اوتيت موهبة
فقلت يا صاحبي خذها بدولار

كان غنيا فقيرا بماله غنيا بنفسه وعلمه واشعاره الخالدة .

يا طالب الدنيا وما
أدركت في طلب المعاني
فكفيت نفسك بالغنى
وانا غنى نفسي كفاني
لكن مغانيك التي
شيدتها ليست أغاني

اليأس والالم والحسرة والخيبة تنضح من خلال أبياته كلها ومع ذلك قيل عنه انه افكه الادباء حديثا ، واخفهم ظلا ، واكثرهم حيوية . كان يخفي آلامه عن الناس لتحز سياطها في نفسه وتعس كالنار تحت الرماد .

من خمرة الكأس لا من خمرة اليأس
أعطيت نفسي مداها بين جلاسي
فخمرة اليأس لي وحدي أعاقرها
وخمرة الكأس بين الناس للناس

ولم يشكو بؤسه وشقاءه الى أناس هو بطبعهم عليم .

يا نفس ان العيش نغصه
قلم بكى حظي على الطرس
لا تشتكي الدنيا الى احد
فلكم مررت بابلغ الدرس
فالناس يبتعدون عن رجل
يشكو اليهم حالة البؤس

قيل : أربعة ان جمعت تجلو عن القلب الحزن
الماء والخمرة والخضرة والشكل الحسن .

وقد اولع شاعرنا بها كلها وبالاخص الخمرة فقد اتخذها سبيلا لتبديد أحزانه ويأسه وله في وصفها لمحات من ابي نواس في خمرياته تكاد تضاهيها جودة .

كميت السراح يا صهبا
ظلام الليل قد دبا
ونادت للوغى الدنيا
وجيش الهم قد لبا
تعالي يا ابنة العنقو ..
د ننهب عيشنا نهبا

كانت الخمرة نديم خلواته وسمير لياليه :

أنا لست وحدي في خلوتي
تعالي انظريني ونبت الكروم
صفوت فرحة أغني لها
وراقت فلاحت عليها النجوم
تلين بكفي ولكنها
شديدة فتك بجيش الهموم
دليلك ان أنت لم تعرفي
سبيل الوصول الى موقفي
شعاع بكأسي لن ينطفي

وما كان أحب كؤوسها الى نفسه مشعشة يسطو على ظلام يأسه وبؤسه :

تلوح كفي الكأس خوف لهيبها
كأني بكفي قد أحاطت بنبراس

ويعب تلك الكأس او يجشمها فؤاده يبعث فيه الشباب والنشوة والانطلاق :

جشمته الكأس يعلو وجهها لهب
فولدته جديدا أي توليد
وصحت من طرب لو كان أيسره
يبقى لعشت بلاهم وتسهيد
يا ساقي السراح صرفا ان هي اتقدت
وشعشعت هاتها من غير تبريد

قال أحد شعراء الخمرة :

اودرها بالكبير وبالصغير
وخذها من يد القمر المنير
ولا تشرب بلا طرب فاني
رأيت الخيل تشرب بالصفير

وشاعرنا يشرب فلا ينسى تلك النصيحة ولا يلبث ان يطلب النغم يطيب به الصهباء :

هات الكمنجة هاتها
الله في نغماتها
واعد على سمعي حديث الحب من رناتها
تهفو القلوب لشدوها وتهيم في اناتها
فكأنها صوت الحياة على اختلاف لغاتها
هات الكمنجة هاتها

شاعر يعيش على الاماني واطياف السعادة يستمدها من قرارة الكأس وومض الخيال كلما دب يأسه وخيم حزنه وربما انصرف الى الغياض والمروج وحيدا يبث الطبيعة همه وذات نفسه .

اخطأ السعادة والمال في دنياه فأملها في العالم الثاني ونشدها في عالم وهمي من صنع خياله الجموح ، فكان أخيرا ملكا عزيزا بلا تاج ولا صولجان ، مملكته الطبيعة المشرقة والروض الباسم وله من شجر الروض وزهره وطيره .. جنود واعوان .

جلست في الروض وحدي عند ساقية
يردد الماء فيها صوت الحاني
والزهر فاح شذاها في الفضاء كما
قد فاح شعري من روحي ووجداني
فقلت لما رأيت الروض مملكتي
وانني بين أنصاري وأعواني
يا ليت محبوبتي في الروض حاضرة
كيما تراني في عزي وسلطاني

ياترى أية محبوبة هذه من بين الكثيرات اللواتي تغزل بهن ؟ كان كفراشة ربيعية يتنقل من زهرة الى زهرة يشتار الرحيق وينهب اللذة فاسمعنا غزلا رقيقا مطبوعا ذا بساطة أخاذة وصور نابضة ، يضمخ أجواءه بالطيب وينقلك الى تلك الاجواء :

ألا تذكرين بشط الغدير
على صخرة قد جلسنا هناك
ولما انحنيت لصوت الخرير
لمحتك في الماء مثل الملاك
حين لحت
ولما مشينا لنجني الورود
بظل فراشاتها الحوم
تعبت فودعت هذا الوجود
وقلت لاغصانها خيمي
ثم نمت

تنأى الحبيبة فيعيش على ذكريات هواها وأمل لقاها :

جلست بقرب شباكي
أردد طيب ذكراك
وأطوي بيد أحلام
كبت فيها مطاياك
أتاركتي أخا سهر
متى عهدي بلقياك

تلين هذه الذكريات فتدغدغه كالنسيم الهفاف وقد تنبو فتثور كالعواصف ولا عجب فهي ذكريات حياته المتقلبة بين السعادة والشقاء :

وحولي صفوف من الذكريات
كسرب الحمام خلطن الصياح
فحينا تهينم مثل النسيم
وحينا تهب كهوج الرياح

واخيرا وبعد ان يبلغ خريف العمر يمن الله عليه بلقاء حبيبته ، فهل جادت بوصل حين لا ينفع الوصل ؟ جواب ذلك في قوله :

هون الله وعدنا فالتقينا
وتذكرنا الليالي فبكينا

يـوم كنا في بساتين الصبا
من ثمار الحب نجني ما اشتهينا
وهنت مثلي ، ولكن لـم يزل
في حواشي العمر ما يحلو لدينا

بلغ الشـاعر السبعين ومـا زال يهفو الى الصبا والصبابـة :

عاهدتني يا قلب تسلو الهـوى
يا كاره السـلوان أين العهـود
قلبي زمـان المعجزات انقضى
أفي حمى السبعين غير الصدود؟

ذلك هو شباب القلب يطل من قوله :

أنا الذي قد طوى بيد الغرام ولم
يبرح اذا ذكرت يهفو الى البيد

هذا الحنين الى عهد الهوى والشباب رافقه حنين الى الوطن يماثله حرارة وصدقا :

ذكرتك يا لبنان والقلب خافق
لذكراك حتى كاد يفلت كالطير
وليس سلوا ما تراه من النوى
ولكنها الدنيـا نهتني عن السير
على أن عندي في الفؤاد محبة
اذا مت يا لبنان اورثتها غيري

فهو بالنسبة لوطنه راحل مقيم :

بلى بعـد هـذا البعـاد
الا سـجلي يا سـما
أنـا في أقاصي البـلاد
وروحـي بـوادي الحمـى

الشاعر الدرويش في حياته صورة للشاعر الجاهلي طرفة بن العبد فلكليهما في الحياة مذهب واحد :

ألا أين كأسي اترعوها فاشرب
فما لي وللايـام تأتـي وتذهب
دعوني اوف العيش باللهو حقه
واسرق لـذات الحيـاة وانهب

كما شابـه المتنبي في سعيه وتطوافه وراء الثروة والجاه وفي خيبته وشكواه وعرف ذلك في نفسه فقال :

فكم رددت نفسي لشاعر كندة
اذا بت في ليـل الاسـى اتقلب
الا ليت شعري هل أقول قصيدة
فـلا اشـتكي فيهـا ولا اتعتب

ولعلك توافقني الآن في ان لقب الشاعر الشاكي الصق بصاحبنا من لقب الشـاعر الدرويش وما أظنـه درويشا زاهدا في السعي والغنى وهو الذي طاف آسيا وأوربا وأمريكا في هذا السبيل •

وفي دواوينـه الثلاثـة « أغـاني الدرويش » و « الايوبيات » و « هي الدنيـا » يلتقي مـع ابي ماضي وعريضه في كثير من القصائـد التي تطل منها الحيرة النفسية والنظر الفلسفي التأملي ولا عجب فهما زميلاه في « الرابطة القلمية » التي اتسمت بهذا الادب والتي كان جبران عميدا لها •

بقي أن أقول ان الشاعر الدرويش او الشاعر الشاكي هو رشيد ايوب المتوفي سنة ١٩٤١ عن سبعين عاما ومن مواليد بسكنتا ـ لبنان قرية ميخائيل نعيمة •

التمايز بين علم النفس والمنطق

بقلم : ادوار يعقوب شمعون

تشمل الحياة البسيكولوجية (النفسية) ، كل ما تزخر به الطبيعة البشرية ، من فعاليات نفسية تتشعب في أعمق أغوار الذات الانسانية ، بما تحتويه من حوادث داخلية ، تؤلف الكيان المعنوي الدائم للفرد . ويقسم علماء النفس الحاليون (البسيكولوجيا) توخيا سهولة بحثها ، الى ثلاثة أنواع من الحوادث : يتمثل في النوع الاول منها ، كل ما تستوعبه النفس من حوادث انفعالية كالاهواء والعواطف والميول واللذة والالم . ويتضمن النوع الثاني منها جميع المحاكمات العقلية التي ينتهجها الفكر في انطلاقه ، ومجابهته الموضوع ، وتقديم أهم الحلول عندما يلتبس عليه حكم : كالادراك والذاكرة والتخيل والحكم . أما النوع الثالث من هذه الحوادث فيتألف من الافعال الارادية والافعال الغريزية التي يقوم بها الانسان كرد فعل بحالة شعورية او لا شعورية كي يتوافق مع البيئة المحيطة به .

وعلم النفس كان بأول عهده مختلطا بمباحث الفلسفة القديمة ، بما لا يزيد عن عدة اراء وأقوال عامية سطحية ، تنقصها الدقة العلمية ، ويشوبها الكثير من الاستقراءات الركيكة والتعميمات السريعة ، فكان البعض من المفكرين الاول يعتقد انها علم الروح ، والبحث عن مصدرها ومصيرها . وذهب فيها اخرون على أنها ضرب من علوم ما بعد الطبيعة (الميتا فيزيك) . فعلم النفس اذن لم يستقر على مدلوله العلمي الحالي الا بعد ان ارتدى أثواب الروحانيات وما بعد الطبيعة ، فظهر اثره أول ما ظهر في الاديان السماوية ، ثم في عدد من الفلسفات الشرقية القديمة التي هيأت الاذهان لتقبل الفلسفة اليونانية بعدئذ ، ومن تلك الفلسفات الفلسفة المصرية التي التمست جانب النهاية الحتمية لكل انسان حي ، وعقبى الحكم على أعماله بالخير او الشر بالنسبة للنفس . وذات الروحانية التي سادت عقول علماء مصر القديمة عن النفس طغت على عقول أهل فارس بفارق بسيط ، هو اتجاه الفكرة عن النفس عند أهل مصر اتجاها فكريا ، بينما اقتصرت عند الفارسيين على بضع مبادىء عملية في الخير والشر .

والسفسطائيون على ما لتعاليمهم النفعية من بلبلة في صف الفلسفة ، وطعن لقيمها السامية الشاملة ، هم أول من أشار في عهد الفلسفة اليونانية ، الى ضرورة اتخاذ الانسان محورا للبحث بدلا من الطبيعة المادية التي طال فيها تبحر المدارس الفلسفية اليونانية الاولى (كالايونية) و (الايلية) . فالتمست السفسطائية ما يصلح شأن الانسان في حياته العملية . وماذا يصلح شأنه في بلاد متناثرة غلب أهلها الشعور العصبي للمدينة على الدولة ، وتمكنت الانانية من أعماق النفوس !. الجشع والطمع . فلتبرر كل ما تشتهيه ، الرغبات والنوازع البشرية . وهكذا كان : اذ اتخذ معلمو السفسطائية من تعليمها ، حرفة يتقاضون عليها أجرا ، يتفق عليه حسب الحالة المادية للدارس عليهم . وانطلقوا في طول البلاد وعرضها ، يلقنون الناس المعرفة للنجاح في الحياة لا من أجل العلم لذاته ، فحاججوا كل من اعترض سبيل انتشار رسالتهم ، محاولين افحامه ، حقا أو بهتانا ، حتى جاءت كلمة سفسطة مدلولا للخداع والغش باسم المنطق .

واشتهر كثيرون منهم أمثال (برود يقوس) و (هيباس) .

والمؤسس الحقيقي لعلم النفس في بدء ازدهار الفلسفة اليونانية ، هو الفيلسوف سقراط (٤٧٠) ق.م

الذي وجه عناية الفلاسفة الاغريق الى حقيقة هذا العلم، بطريقة بعيدة عن طريقة السفسطائيين النفعية ، وما زال تاريخ الفلسفة يحتفظ باقواله الشهيرة : (اعرف نفسك أيها الانسان ، لا خير في علم يبحث في الطبيعة ويهمل الانسان) • فسجل سقراط بذلك نقطة الانطلاق بهذا العلم من أجل العلم •

وتتدارك البسيكولوجيا سنة التطور فتدخل مرحلة التفكير الاسطوري ، أول مراحل التفكير اليوناني بدخول أفلاطون (٤٢٩ ق٠م) الفلسفة اليونانية من بابه الخيالي المثالي المعروف ، فالنفس عنده علة حركة الانسان ، تتصل بطرف علوي سام بسماء المثل ، كما تتصل بطرف سفلي مادي بالجسد ، وتقسم في الانسان تبعا لجسده الى قسمين : يتبع القسم العاقل الاول منهما للرأس الذي يحتوي على عقل يتسع لفهم المثل وتسلسلاتها ورتبها ، ويتبع القسم الثاني الجزء اللاعاقل الذي تتوضع به الفضائل الانسانية ، وتتخذ من القلب مركزا لها مضافا اليها على حده الجزء الوضيع من الجسد التابع لاسفل البطن ، والانسان عند افلاطون له كلا القسمين اللذين يؤلفان جزئي النفس ، والحيوان له الجزء الوضيع والجزء الشريف من القسم اللاعاقل ، كما ان النبات عنده يحتوي أيضا على جزء من النفس وهو الجزء الاخير من القسم الثاني ، أي الجزء الوضيع ، والنفس تسلسل عن سماء المثل الجميلة التي خلفتها في سبيل تقمصها الجسد البشري الحقير ، وسترجع لمصدرها الازلي السعيد ثانية ، حالما ينزاح عنها بالموت هذا العبء المادي الملقب بالجسد • أما مثله (مثل النفس من الجسد كمثل الربان من السفينة) فما برح محتفظا بحيويته الفكرية رغم ان عمره قد تجاوز أربعة وعشرين قرنا ••

لكن علم النفس الذي رزح طويلا بفلسفةافلاطون الشاعرية وخياله المثالي ، ما لبث ان أفاق من غفوته السابقة ، وقفز الى مرتبة تجريدية عظمى ، من الاستقراء والبرهان المنطقيين ، حين آلت الزعامة الفكرية في بلاد اليونان الى ارسطو (٣٨٤ ق٠م) تلميذ افلاطون في أول أكاديمية له حيث كان التلميذ ، على طرف نقيض من معلمه ، فبينما يغازل منشىء الاكاديمية الاولى السماوات والنجوم ، مجرّيا تأملاته حسب تخيلاته ، يخالفه ارسطو على ما برايه من غلو من الواقع ، فيعكس نظره الى حيث يتعارك الحق مع الباطل ، وتجري الرياح بما لا تشتهي السفن ، منتهجا في بحثه ، منهجا قريبا من البحث العلمي ، وخاليا من تلك الروح الاسطورية التي كانت تغلف جلي معتقدات اليونان • سيما وهو مخترع المنطق ، تلك المجموعة من الطرق الفكرية ، التي تعصم الذهن من الضلال •• والنفس عند ارسطو تندمج في معترك التطور المنطقي : فالانسان عنده أرفع مرتبة من الحيوان لامتيازه عنه بالنفس العاقلة • وهو يعارض استاذه في امكان تقسيم النفس التي لها من الوظائف المتناسقة في الادراك والتخيل واللفظة الخ •• ما يجعل تقسيمها فصلا لقواها المتعاضدة • كما يعارض رايه بمصير النفس الازلي ، اذ تموت عنده النفس بموت الجسد •

وكأن الاقدار شاءت بارسطو ، خاتمة الفلاسفة والعلماء الاغارقة ، الذين سموا بالفلسفة اليونانية ومنها علم النفس الى حد رائع من العلمية ، فبعد ان طغى الرومان على بلاد الاغريق واستعمروها تقهقرت هذه الفلسفة ، ورجعت اليها الروح الاسطورية التي كانت تسودها قديما ، ففقد علم النفس شمولية أحكامه في الابحاث التي تلت ابحاث أرسطو مقتصرا على الفرد دون الجماعة • فدخلته الاجتهادات الضعيفة ، وكان ذلك ايذانا بانهياره وانهيار جميع المعارف والعلوم معه • ولم يتتابع بحثها بنهج علمي الا في عصور النهضة الفلسفية في أوربا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر •

أما المنطق فيندمج لكونه طريقة التفكير الصحيح ، في ثاني انواع الحوادث النفسية : في النوع العقلي منها ، لان الاشتغال في ايجاد العلائق المنطقية الموسسة على أبسط البديهيات لفهم الموضوع وحل الجانب المعقد منه بشكل منصف يقبله الفكر الانساني ، فامر له أهميته في الحياة النفسية ، وهو في الجانب العقلي ، منها يقصر

أهمية ، وخاصة عندما يلتزم الفكر موضوعا لا يتجاوزه الى سواه • فتنبزغ الحقيقة الثابتة ويلمس قيمة المنطق كطريقة واضحة اتبعها الفكر فادت لنتائج موثوقة واضحة •

ولئن اعتبره البعض من هنا صوريا ، مقتصرا على دراسة الطريقة العقلية البينة ، فهو مع ذلك لم يقف عند الوسيلة كحد مانع ، بل تعداها أخيرا الى ذات المبادىء والقوانين التي انتهي اليها بواسطته ، وهو بين اتخاذه الوسيلة ثم الغاية يتجه حينا من الصورة الشكلية التي تقولبت فيها الفكرة ، الى مضمون القالب ، الذي يحتوي الفكرة في المنطق العلمي ، الذي يفلسف اكتساب العلم وانتهاجه وتطويره •

والحديث عن المنطق ، يجبر التحدث عن ارسطو الفيلسوف ، الذي اكتنفه في بداية عهده الفلسفي اذ ان أغلب ما بين اللغة والفكر من قواعد منطقية صورية ، انما تعود للمعلم الاول : كالمقولات العشر والكليات والبحث بالالفاظ والقياس وتحويله •• الخ ••

ومعروف ان صفة المنطق الصورية او الشكلية ، السائدة عنه الآن ، لم تكن معروفة عنه لا فيعهدمكتشفه، ولا في العصور التي أعقبته ، وانما الصقها به منطق المعلوم الذي بدأت حركته تثمر في بداية عصور النهضة الاوربية الآنفة الذكر ، حين عرض علماء هذه الحقبة قواعد المعلم الاول المنطقية على محك العلم فبانت سطحيتها •

والمنطق كعلم النفس وجميع العلوم والفنون الاخرى ، كان يؤلف جزءا مهما من مباحث الفلسفة اليونانية ، في فجر انبثاقها وازدهارها ، قبل ان يختص كل علم منها ، بمجرى خاص به • فالمدرسة (الفيثاغورية) اختزلت مبادىء الطبيعة ، وحكم الحياة ، بمنطق رياضي يرمز كل عدد منه او عدة ١ الىصفة الشيء ، فالاجسام خطوط ، تنقسم الى اعداد فردية وزوجية متضادة تسبب انشطار الكون الى محدود ولا محدود ، فالرقم ١ـ نقطة، ٢ـخط ، ٣ـ سطح ، والعدل اعادة الحق بمثله ويساوي ٢ × ٢ • ومجمل مذهبهم ان أس الكون اعداد رياضية أصلها الواحد •

وقد التقى المنطق بعلم النفس لاول مرة في شخص ارسطو وفلسفته فكون هذا الفيلسوف عالما بما في العلم من تجرد وموضوعية قد كتل جهوده لمناقشة ما استطاع ان يترجع اليه من نتاجات الفلاسفة السابقين عليه ، والتي لم تكن تروق لعقليته العلمية ، لينقي منها الشوائب الفكرية ، ويبحث في المواضيع التي تأخرت عن بحثها الادمغة ، كي يلائم بينها وبين آرائه التي طرحها على بساط البحث • ومع ان أثره في علم النفس يكاد يصبح أثريا ، فاكتشافه المنطق جعل أثره فيه ثابتا وكبيرا استحق عليه لقب المعلم الاول •

لقد وجد ارسطو ان الاصل في التميز بين الانسان والحيوان هو المنطق ، الذي يرتدي أثواب اللغة في الظاهر المسموع ويتمكن من أصول الفكر في الباطن • ولما كانت اللغة اداة للتعبير عما يجول في الفكر ، بينما يجد المفكر عديد الالفاظ العامية والجامدة التي لا تفي بمضمون الفكرة بمعنى دقيق •• فحلول تفادي عيوب اللغة بوضع ما أسماه بالقياس في المثل الشهير كل انسان فان • سقراط انسان • سقراط فان •• الذي يمكن ان نرجعه الى القضية التي تتألف من موضوع ورابطة ومحمول • وكما في جملة سقراط ميت • فسقراط هنا هو الموضوع ، وميت هو المحمول ، والرابطة بين الموضوع والمحمول هي فعل الكون ، الذي يضعف في اللغة العربية لطبيعتها التركيبية العائدة للسان العربي • ونستطيع بهذا القياس أن نحصل على كثير من الاحكام ، باستبدالها بالتصورات التي نشاءها •

وأول طعنة نجلاء سددت الى منطق أرسطو هي للفيلسوف الانكليزي (بيكون) في المنطق الجديد الذي حاول باورجانه الجديد هذا ، ان يضع أسسا جديدة للمنطق الارسطي ، كي يلائم تطور العلوم

في تلك العصور ، فالاقوال الماضية مهما بلغت من الدقة ، لا تعبر الا عن تفكير سابق ، بموضوع له حقيقة وضعية موجودة دوما ٠ ساعد في ذلك أيضا اتجاه العلوم ذاتها الى المنهج الرياضي البسيط كما في منطق (لبنتيز) الجبري ، وفلسفة (الوضوح) الديكارتية ٠ كل هذه الاسباب بالاضافة الى ما آلت اليه العلوم من تقدم شامل ، أدت الى تنحية منطق أرسطو نحوا صوريا، فقصر اعتباره قانون الحق الاوحد ووجدت العقول ذاتها متحررة من نيره ، ففتح أمامها مجال البحث حرا واسعا ٠٠

لقد درسنا الى هنا بعض نواحي التفكير الانساني ، بالطريقة التي ينتهجها المناطقة ، الذين حاولوا اختزال الممكن مما تتضمن افعولاته الذهنية ، من صيغ واحكام عقلية ترتفع تجريديا نحو مستوى المفاهيم والقوانين ٠٠ فحددنا للفكر مدلولا ضيقا ، لا يزيد عن كوننا قد وضعنا العقل امام مشكلة ، ليحل المتشابك منها بطرق منطقية : من فهم للعلاقات القائمة بين أركانها للتوصل الى حكم صائب ٠٠ وهكذا نكون قد حصرنا بعض مجالات العقل اللامتناهية ، في عدد من القواعد المنطقية ، التي تنخرط تحت لواء علم النفس العام ٠ ولكننا لو أخذنا الفكر بمطلق مفاعلاته الذهنية الشاملة ، وبكل ما يطلق من قوى عقلية ، تمحص جميع ما يعترضها من مواقف وملابسات حياتية تتطلب منه حلها والتلائم معها ، بالاستفادة من حكم الماضي ، وما ينطوي عليه من ذكريات حوادث عابرة ، تخطر اذ ذاك الى ساحة الشعور الحاضرة ، أو تتمركز في اللاشعور ، بالاضافة الى التخيلات الابداعية التي يحاول المفكر صبغ حياته المقبلة بها ، وتوجيه خطواته نحوها ، وتعديل ما آلت اليه عاداتنا السيئة ٠٠ نكون قد شملنا في ادارة التفكير النفس باكملها ٠ وبما ان التصنيف العلمي الاقوى هو السائد ، فاعتبار الفكر جزءا من النفس هو الرأي المعمول به الآن ، بالنظر لما أحرز علم النفس من تقدم شمل جميع نواحي حياة الانسان ٠ بينما تقلص منطق ارسطو على ذاته فما يسمع عنه تقدم بعد ، الا بالمقدار المشار اليه في بحثنا أعلاه أصول المنطق وتطوره وتعديلات الفلاسفة عليه ٠٠ ومن شمول علم النفس الحديث لجميع الحياة الانسانية ، وضمور المنطق بدا التمايز الكبير بين مبلغي اتساع هذين العلمين ، الذي من أهم أسبابه بعد أو قرب منهج كل من العلمين ، من مناهج العلوم الاخرى ، فكلما اشتدت مساسة أحد العلوم بالاخرين ، كان ذلك مدعاة لاتساعه وتضخمه،لان القوانين التي انتهى اليها هذا العلم ستبرهن على صحتها قوانين العلوم الاخرى ، التي ثبتت صحتها ، بداعي التكامل العلمي ٠ فمنذ أقدم الازمنة مثلا أشار الاطباء العديدون الى كثير من الامراض الجسدية التي نشأت عن توترات نفسية او بالعكس ٠ كما وجد علماء الاخلاق في النفس الجذور الحقيقية للسلوك البشري ٠

ولذا فان اقتراب علم النفس من ميسم العلوم الاخرى وخاصة الانسانية منها ، قد حفز همم العلماء الى بحث النفس بنهج علمي بعيد عن تخيلات الفلسفة ، فانفصل عنها في القرن التاسع عشر على يد (فوندت) (وريبو) وغمرت أبحاثه الاراء العلمية التي خطأت الكثير مما قاله الاقدمون فيه ، فتخلص من كل ما هو غير علمي ، وتطور ملحوظا شمل جميع نواحي حياة الانسان الفردية والاجتماعية واتخذت كل وجهة منه علما خاصا بها ٠

ومعلوم ان متابعة البحث والكشف العلمي ، في أي علم ، تجعل من الضروري ، استبدال الاراء السابقة فيه بمصطلحات حديثة ، تحل محل القديمة مما يدل على أن هذا العلم يتقدم ٠ ولو نظرنا من هذه القاعدة ، الى كل من علم النفس والمنطق ، لوجدنا ان مصطلحات علم النفس الحديث الغزيرة ، قد قطعت عنه صلاته الفلسفية السابقة فما حفظت أقوال القدماء فيه الا كذكرى لما كان عليه هذا العلم في فترة ما ، وللتعرف على طبيعة فكر سالف ، بينما يختلف الامر في المنطق الارسطي الذي لو درسناه في أي زمن ، لالفينا المصطلحات العلمية فيه نادرة ، ولمثل أمامنا أثر أرسطو من الفه الى يائه ٠

وهناك ثمة مثار فكري آخر نقدر ان نمايز به من جهة ثانية بين هذين العلمين وهو موقفهما مما هو كائن وما يجب ان يكون فجميع العلوم الوضعية تنطلق بحكم وضعيتها مما هو كائن عليه الواقع ، فتمحصه جهد المستطاع لتستشف منه القوانين التي تجعل قوى الطبيعة الانسانية والمادية ، بالكيفية التي يجب ان تكون عليها ، كي تخدم الانسان باحسن مردود ممكن ، وأغلب العلوم الانسانية كذلك تنطلق من وصف واقع الحياة بكافة جوانبها ، لكي تحكم على الانسان بما يجب ان يكون عليه ، موضحة له السبيل لذلك كالاخلاق : فحين ندرس السلوك الانساني لا نقصد من ذلك معرفته فقط، بل يهمنا زيادة على ذلك معرفة طبيعة أعمالنا ، من حيث هي خير أم شر ، والسعي بها من ثم الى ما فيه خير الفرد والمجموع • وعلم النفس بكافة أدوار تطوره قد لمس أيضا ما هو كائن عليه الانسان ، من نقاط ضعف ، فأظهر له كيفية ملئها بتيار من القوة ، وسعى به الى ما يجب ان يكون عليه من راحة وصحة نفسية لا بل اجتهد لقيادة مريض النفس الى السبيل السوي من الحياة النفسية •

أما منطق أرسطو فقد استمد اراءه ، مما يجب ان يكون عليه التفكير الصحيح ، دون ان يبحث واقع الفكر العادي • بينما من الضروري معرفة طبيعة الكائن بكافة دقائقه ، للتمكن من جعله بالشكل المراد ، وهذا هو السبب في ان الكثير من العلماء والفلاسفة ، انتقدوا المنطق الارسطي وحاولوا اصلاحه ليبتعد عن الصورية ، ومع ذلك فقد وقع بما خشي منه هؤلاء ، فابتعد عن المضمون الفكري ، واصبح قالب تفكير لا غير • فورث مكانته الفكرية السابقة منطق العلوم • بينما تفتح علم النفس ، على جميع مجالات حياة الانسان كالتربوية والعسكرية والتجارية والمهنية والاجرامية والمرضية ••